الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

تاريخ مدينة المرية الاسلامية

قاعدة أسطول الأندلس

الطبعة الأولى

١٩٦٩

تاريخ مدينة المرية الاسلامية

تاريخ مدينة المرية الإسلامية

قاعدة أسطول الأندلس

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٤

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر
ت ٣٩٤٧٢ اسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مدينة المرية من المدن الاسلامية الهامة التي أسسها المسلمون في الاندلس ، فقد كانت أعظم قواعد أسطول الاندلس في عصر الخلافة الاموية وعصر الطوائف ، والمركز التجاري الاول للتجارة البحرية مع أقطار البحر الابيض المتوسط ، وكانت الى جانب ذلك أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية في الاندلس في العصر الاسلامي • كذلك لعبت المرية في عصر الطوائف دورا سياسيا وحربيا خطيرا ، لا يقل بأي حال من الاحوال عن الدور الذي لعبته مدينة اشبيلية في عصر الموحدين ، أو قرطبة في عصر الخلافة • وكانت المنفذ الوحيد لمملكة غرناطة ، بعد أن تقلص ملك الاسلام في الاندلس ، وأصبح يقتصر على مملكة غرناطة ، فإليها كانت تصل الامدادات والمؤن من بلاد المغرب في القرن الخامس عشر الميلادي ، وعليها كانت تعتمد مملكة غرناطة اعتمادا كبيرا في وصول المجاهدين المغاربة ، ولذلك كان سقوط المرية في أيدي القشتاليين في سنة ١٤٩٠ م نذيرا بسقوط غرناطة آخر معقل للاسلام في الاندلس بعد مضي عامين فقط •

ومع ذلك ، فلم يوجه المؤرخون لهذه المدينة الجليلة ما تستحقه من اهتمامهم ، فكل ما كتبوه عن تاريخها وآثارها لا يعدو أبحاثا قصيرة متفرقة ، وعلى هذا النحو فتاريخها عبارة عن دراسات غير مستوفاة ،

ولا تتناسب بأي حال من الاحوال مع الدور الرائع الذي لعبته المرية في تاريخ الاندلس[1] .

لذلك حرصت على دراسة تاريخ المرية دراسة كاملة ، ورسم صورة متكاملة عن حضارتها في العصر الاسلامي ، وقسمت بحثي الى أربعة فصول :

الاول ، يتضمن بناء المرية وأهميتها في العصر الاسلامي كقاعدة للاسطول الاندلسي . والثاني ، يشتمل على موجز لتاريخها منذ إنشائها حتى استيلاء جيوش فرناندو الكاثوليكي عليها . والثالث ، يشتمل على دراسة النظام العمراني للمدينة وأهم آثارها الباقية . أما الفصل الرابع والاخير فقد بحثت فيه الحياة التجارية بالمرية ، وأهم الصناعات التي اشتهرت بها ، وأخيرا الحياة الفكرية في المرية في العصر الاسلامي . واعتمدت في دراستي لتخطيط المرية وتطور العمران بها في العصر الاسلامي على أخبار جمعتها من كتب التاريخ والجغرافية العربية في العصور الوسطى ، وأهمها وصف المرية من كتاب العذري ومن كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف الادريسي ، والفصل الخاص بالمرية من كتاب « الروض المعطار في خبر الاقطار » للحميري ، هذا الى جانب ما ذكره ابن فضل‌الله العمري في مسالك الابصار ، ترجمة جودفري ديمومبين ، واشارات متفرقة عن المدينة وعمرانها وأسوارها وقصبتها في الذخيرة لابن بسام ، ونفح الطيب للمقري ، والمغرب في حلى المغرب

(1) ارجع الى الابحاث التالية :

Torres Balbas, Restos de una casa arabe en Almeria, al-Andalus, Vol X, 1945, PP. 170-177 ; Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane,t. III, Paris, 1953, PP. 344-345 ; Torres Balbas, la Mezquita Mayor de Almeria, al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, PP. 412-430 ; Torres Balbas, Almeria Islamica, al-Andalus, Vol. XXII, Madrid, 1957, PP. 411-453.

وبحثي عن « المرية قاعدة الاسطول الاندلسي » ، بمجلة الرابطة ، القاهرة ، مايو ــ يونيو ١٩٥٦ ، ص ٦٨ ــ ٧٦ .

لابن سعيد المغربي ، وكتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الابار ، وكتاب الصلة لابن بشكوال ، وغيرها من كتب التراجم الاندلسية .

ولقد أفدت كثيرا من البحثين القيمين اللذين كتبهما أستاذي في مدرسة العمارة بجامعة مدريد الاثري الكبير المرحوم الاستاذ توريس بلباس عن المرية ، وهما « جامع المرية » و « المرية الاسلامية » ، كما أفدت أيضا من زيارتي للمرية ودراساتي لآثارها الباقية من العصر الاسلامي ، في صيف سنة ١٩٥١ في كتابة الفصل الذي أفردته لآثار المرية الباقية .

أرجو أن أكون قد وفقت في رسم صورة كاملة واضحة المعالم لمدينة المرية في العصر الاسلامي ، والله ولي التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

الفصل الاول

تاسيس المرية واهميتها كقاعدة لاسطول الاندلس

(١) الخصائص الجغرافية

(٢) تأسيس مدينة بجانة وأثره في قيام المرية

(٣) المرية قاعدة بحرية لاسطول الاندلس

الفصل الاول

تأسيس المرية وأهميتها كقاعدة لاسطول الاندلس

(١)

الخصائص الجغرافية

كانت المرية في العصر الاسلامي تشغل نفس الموضع الذي تقوم عليه مدينة المرية الحديثة ، وكانت تقع على شاطىء خليج واسع عميق يحميه من الرياح ويعرف اليوم باسم خليج المرية ، يعتبر مرفئا ممتازا ، ويمتد ما بين رأس قابطة بني أسود[١] شرقا ورأس سابينال غربا Punta del Sabinal ، مكونا مرسى صيفيا يكن بشرقيه وغربيه[٢] . ويحد المرية من الغرب الركائز الاخيرة من جبال المرية ، وتؤلف فرعين من سلسلة جبال جادور Sierra de Gador المتفرعة بدورها من جبل شلير Sierra Nevada . أما من الشرق ، أي في اتجاه ناجر Nijar ، فيمتد فحص مثلث الشكل وأراض منبسطة ،

---

(١) ابو عبيدالله البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق البارون دي سلان ، الجزائر ١٩١١ ص ٨٩ . وقد ورد ذكر حصن القبطة في أعمال الاعلام ، لابن الخطيب (طبعة بيروت ١٩٥٦ ص ٤٢) ، كما ورد ذكره في الوثائق العربية بمحفوظات أرغون التي نشرها Ramon Garcia de Linares, y Maximiliano Alarcon, تحت عنوان : Los Documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940, No. 5,53.

(٢) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٨٤ .

ما يقرب من ثمانية أميال شرقي المرية بين سلسلة جبال رأس القبطة في الجنوب الشرقي من المرية وجبل الحمة في الشمال الشرقي منها[١] . وهكذا تحيط الجبال بمدينة المرية من كل الجهات ما عدا الجهة الجنوبية والفحص الشرقي ، وكلها جبال صخرية مضرسة . وقد لاحظ الادريسي هذه الظاهرة ، فقال : « وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدسة ، وأحجار صلبة مضرسة ، لا تراب عليها ، كأنما غربلت أرضها من التراب ، وقصد موضعها بالحجر »[٢] .

ومناخ المرية يسوده الجفاف ، فالمطر يسقط نادرا في هذه المنطقة القاحلة الجرداء ، وقد تمضي أعوام لا يسقط فيها ، واذا أمطرت سماء المرية بعد ذلك فـان مياه الامطار تحدث سيولا جارفة ، تؤلف وديانا تصب في مياه البحر ، وأكبر هذه الوديان وادي بجانة الذي يصب في البحر على بعد ٤ كيلومترات شرقي المرية ، وهو واد يغلب عليه الجفاف لأن مياهه تضيع في جوف الارض قبل أن تظهر على فحص المرية ، وهو نهر أشبه بالجدول يمتد كالحبل[٣] . ويذكر الاستاذ توريس بلباس أن الفحص الشرقي كان يغل في حالة سقوط الأمطار ثلاثة محاصيل متتابعة ، ويستشهد بنص ذكـره المقري بـأن القمح والشعير يزرعان بالمريـة ويحصدان بعد مضي أربعين يوما من زراعته ، ولكن المقري لـم يكن يقصد المرية بذلك وانما كان يقصد مدينة شنترة Cintra بالبرتغال فهو يقول : « وقال ابن اليسع عند ذكره مدينة شنترة : ان من خواصها ان القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوما من زراعته،

---

(١) Torres Balbas, Almeria Islamica, PP. 411, 412

(٢) الادريسي ، صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره دي غويه ودوزي ، ليدن ١٨٦٦ ، ص ١٩٨ — المقري ، نفح الطيب ، طبعة محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٣) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، طبعة مصر ، ص ٤٨ .

وان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر »[1] .

ويمتد شمالي المرية مرتفع من الارض يبعد عن ساحل البحر بنحو ٣٥٠ مترا ، ويمتد طولا بحذاء الساحل[2] ، وهو المرتفع الحالي الذي تقوم عليه قصبة المرية في الوقت الحاضر ، ويرتفع بنحو ٦٥ مترا فوق مستوى سطح البحر[3] ، وتكتنفه أجراف شديدة الانحدار . وينحدر من جانبيه المتطرفين الشرقي والغربي واديان صغيران يسميان Ramblas ولعلها مشتقة من كلمة رملة وذلك لانهما واديان رخوان أرضهما رملية ، ويفصل هذا المرتفع عـن الجبل الشمالي[4] الذي يماثله في الارتفاع والامتداد أخدود عميق فسيح كان يعرف باسم خندق بـاب موسى ، وكان خندقا معمورا في القـرن الخامس والنصف الاول مـن القرن السادس الهجري ، فقد ذكره الادريسي بقوله : « والمرية في ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة ، والجبل الثاني منهما فيه ربضها ويسمى جبل لاهم »[5] . وبينما كانت أراضي المرية أراض جدباء لايزرع فيها غير نبات الحلفاء أو على حد قول ابن خاقان اذ يقول : « أكثره منابت شيح ، ومهامه فيح »[6] ، فان المناطق الصالحة للزراعة في اقليم المرية ، والتي تقـع على وادي بجانة كانت تزرع فيها أشجار التوت اللازمة لتربية دود الحرير مثل حصن

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، وقارن ما ذكره توريس بلباس في مقاله Almeria Islamica ، ص ٤١٢ .

(٢) يبلغ طوله نحو ٤٥٠ مترا وعرضه من الوسط ١٠٠ مترا .

(٣) يبلغ اقصى ارتفاع له ٨٥ مترا .

(٤) كان هذا الجبل يسمى في العصر الاسلامي بجبل لاهم (ارجع الى الفصل الثالث الخاص بالعمران) .

(٥) الادريسي ص ١٩٧ .

(٦) ابن خاقان ، القلائد ، ص ٤٨ .

شنش[١] وأشجار الانجوج (في بلدة دلاية)[٢] ، وأشجار الزيتون ، والاعناب[٣] ، والفواكه[٤] ، كما كان يزرع بها القمح ، وان كانت مناطق زراعته محدودة[٥] .

وقد أثر موقع المرية المتطرف ، بين مناطق جبلية وعرة المسالك ، صعبة المواصلات ، وفي أرض قاحلة لا تصلها المياه بانتظام في اتجاه نشاط سكانها الى البحر ، فاعتمدوا على التجارة مع مدن الساحل الافريقي ، ومع الاقطار الاسلامية والاوروبية .

* * *

---

(١) المقري ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٢) انظر البكري ، جغرافية الاندلس واوربا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، دار الارشاد ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٢٤ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ محمد عبدالله عنان ، ج ١ ، ص ١٠٥ ـ المقري ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٣) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس (مجموعة من رسائله) نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، الاسكندرية ١٩٥٨ ص ٤٧ ، ٨٣ .

(٤) الادريسي ص ١٩٧ ـ الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٨٤ ـ المقري ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٥) ابن الخطيب ، مشاهدات ص ٨٤ .

(٢)

تاسيس مدينة بجانة واثره في قيام المرية

لم تكن المرية مدينة قديمة البناء ، أزلية من بنيان الاوائل كمدينة قرطبة وقادس واشبيلية وطليطلة وغيرها من المدن التي افتتحها المسلمون عند دخولهم الاندلس ، واتخذوها حواضر لهم، ولكنها مدينة محدثة[١]، أسسها المسلمون في جملة ما أسسوه من مدن في جزيرة الاندلس ، ولم تكن لها جذور سابقة على الفتح الاسلامي ، ولذلك فهي اسلامية البناء ، وقد أشار ابن حوقل الى حداثتها بقوله : « ومن مشاهير مدنها القديمة (أي مدن الاندلس) جيان وطليطلة ووادي الحجارة ، وجميع مدنها قديمة أزلية لم يحدث بها في الاسلام غير مدينة بجانة وهي المرية »[٢] . ونلاحظ أن حركة انشاء المدن الاسلامية في الاندلس لم تنشط الا بعد قيام دولة بني أمية ، والعصر الاموي هو العصر الذي حرص فيه الامراء والخلفاء على احاطة دولتهم بكل مظاهر الفخامة والترف وابهة الملوك وعظمة الخلفاء ، فاتجهوا الى تشجيع البنيان ، وتعمير المدن[٣] . وأول من قام بانشاء المدن الاسلامية في اسبانيا الامير أبو المطرف عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام (٢٠٦ ــ ٢٣٨ هـ) ، واليه ينسب بنيان مدينة مرسية[٤] . وفي عهد الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط (٢٣٨ ــ

---

(١) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ص ١٨٣ .

(٢) ابن حوقل النصيبي ، صورة الارض ، تحقيق كرامرز ج ١ ليدن ١٩٣٨ ، ص ١١٠ .

(٣) ارجع الى كتابي تاريخ المسلمين وآثارهم بالاندلس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٤٠٤ .

(٤) إبن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ج ١ ص ٤٨ ، القاهرة ١٩٥٣ ــ الحميري ، ص ١٨١ .

٢٧٢ هـ)أسست مدينة بجانة[١] ، وبطليوس[٢] . أما المرية فقد أسست في عصر الخليفة العظيم عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، الذي أمر بنيانها سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م)[٣] . وكان الناصر أكثر خلفاء بني أميه حبا للبناء والتشييد[٤] ، وكان يرى أن البنيان دليل العظمة والسطوة والسلطان ، وينسبون اليه هذه الابيات :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم   ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم قدره   أضحى يدل على عظيم الشان

فعبد الرحمن الناصر هو الذي عدل واجهة المسجد الاعظم بقرطبة ، وبنى منارته المشهورة[٥] ، وهو الذي ابتنى مدينة الزهراء ، وأقام من الحصون حصن فاشتره[٦] Castro ، وحصن طلجيرة[٧] قبالة مدينة ببشتر ، وبرجا بقلعة طريف[٨] ، وزود أشبيلية بقصرها القديم المعروف بدار الامارة ، وحصنه بسور من الحجر والابراج[٩] ، الى غير ذلك من

(١) ابن سعيد ، المرجع السابق ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٢) ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ، نشرة خوليان ريبيرا ، مدريد ١٩٢٦ ص ٩٠ ، ويذكر الحميري ان الذي بناها هو عبد الرحمن بن مروان الجليقي باذن من الامير عبدالله ، ص ٤٦ .

(٣) الحميري ، ص ١٨٣ .

(٤) كان عبد الرحمن الناصر كلفا بالبناء ولذلك أهداه وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد بين ما هاداه به سنة ٣٢٧ هـ كميات هائلة من الصخر للبنيان ، وذكر له في رسالة اليه انه اهداه هذا الصخر لما علمه من نفاذ عزمه في البنيان وكلفه به (المقري ، نفح الطيب ج ١ ، ص ٣٣٧) .

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٣٩١ .

(٦) Una Cronica Anonima de Abd al-Rahman III al-Nasir, Madrid, 1950, P. 65.

(٧) Ibid. P. 74.

(٨) تاريخ المسلمين ص ٤١٣ .

(٩) الحميري ص ٢٠ .

أعمال الانشاء والتعمير التي لا يتسع المجال لذكرها •

واسم المرية مشتق من وظيفتها أو من الغرض الذي أقيمت من أجله ، اذ كانت تتخذ في الاصل مرأى[1] ومحرسا بحريا لمدينة بجانة القريبة منها والتي لا تبعد عنها بأكثر من ستة أميال شمالا[2] ، ولذلك سميت بمرية بجانة ، على نحو ما عرفت به بلدة مرية بلش ، وهي بلدة أخرى من أعمال رية[3] ، وأصبحت مرية بجانة فرضة بجانة[4] ، ثم تحولت الى المرية بعد أن تمصرت •

ويرتبط تاريخ بناء المرية بمدينة بجانة ارتباطا وثيقا ، لأن مدينة المرية كانت في الاصل فرضتها ومحرسها ومريتها • ومدينة بجانة مدينة محدثة أيضا بنيت في عصر دولة بني أمية على أصول قديمة لقرية في نفس موضعها كانت تعرف باسم Fundus Baianus [5] • ولما كان موضع مدينة المرية المستقبلة أرضا صخرية جرداء محرومة من المياه الجارية، لا يساعد على قيام مجتمعات انسانية ، فقد استلزم الامر اختيار موضع منبسط لتأسيس مدينة بجانة الرومانية ، في الطريق ما بين قسطلونة (Castulo) Cazlona ، ومالقة Malaga (Malaca) • وعرفت هذه المدينة الرومانية القديمة التي أقيمت بجانة الاسلامية على موضعها باسم Urci وهو اسم ذكره بطليموس • ويذكر المؤرخ الروماني بومبونيو ميلا Pomponio Mela أن أورسي كانت تقع على خليج

---

(١) الحميري ص ١٨٣ •

(٢) الادريسي ص ٢٠٠ •

(٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الخامس ط بيروت ص ١٢٠ – مذكرات الامير عبدالله الزيري ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٩١ – ابن الخطيب ، مشاهدات ، ص ٨٦ • ونلاحظ ان اسم المرية مشتق من المرئية ثم حذفت الهمزة فأصبح المرية (ارجع الى ياقوت ، المعجم ص ١١٩) •

(٤) ابن حوقل النصيبي ، ص ١١٦ •

(٥) Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 416.

أورجيتانوس Sinus Urgitanus أي في موضع المرية الحاضرة[1] . أما بلنيوس وكان معاصرا لميلا ، فيجعل هذا الموضع على الساحل[2] ، وعلى هذا الاساس نستنتج أن أرسي أو بجانة القديمة كانت مدينة بحرية ، ولكنها تقوم على مسافة تبعد عن البحر ، ولها ميناء ومرسى مجاور للساحل في موضع المرية . وقد عثر اوبنر Hübner على لوحة وبعض شواهد جنائزية رومانية في حفريات أورسي . وكانت أورسي مقرا أسقفيا قديما ، وأول أساقفتها القديس أنداثيو[3] . ويقول سيمونيه نقلا عن فلوريث صاحب كتاب اسبانيا المقدسة Espana Sagrada : « في سنة ١٠٨٤ (٢٨ مارس) قام القس دون سانشو بنقل رفات الاسقف القديس أنداثيو الى دير سان خوان دي لا بنيا de la Pena ، وكانت هذه الرفات محفوظة في بجانة وهي أورسي القديمة ، حيث أسس القديس الرسولي مقره الاسقفي »[4] .

ونعود مرة ثانية الى العصر الاسلامي ، والى قيام الدولة الاموية بالاندلس ، لمعرفة كيفية قيام بجانة الاسلامية . كان لا بد أن تظهر الدولة الاموية منذ اللحظة الاولى كدولة بحرية بحكم طبيعتها الجغرافية وبحكم عزلتها عن بقية أقطار العالم الاسلامي ، لذلك عمد أمراء بني أمية الى توطين بعض الاسرات العربية في هذا الاقليم لحماية الساحل

---

(١) يقول ميلا : «Sinus Urci, al fondo del golfo llamado Urcitanus»

ارجع الى Anotnio Garcia y Bellido, La España del siglo primero de nuestra Era, segun P. Mela y C. Plinio, Coleccion Austral, Madrid 1947. P. 31, 51.

(٢) يقول بلنيوس : «En la costa se hallan los oppida de Urci y Baria (villaricos)».

ارجع الى المرجع السابق ص ١٣٠ ، ٢٣٠ .

(٣) Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 417

(٤) Francisco Javier Simonet, historia de los Mozarabes de España, Madrid 1897-1903, P. 662, 663.

الجنوبي الشرقي من الاندلس من غارات النورمنديين على السواحل الاندلسية[1] • فأنزلوا جماعة مــن العرب الغسانيين هــم بنو سراج القضاعيون في هذه المنطقة ، ووكلوا اليهم « حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل »[2] ، فعرف هــذا الاقليم باسم أرش اليمن • ويؤكد توريس بلباس أن أرش كلمة معربة من أورسي Urci ، وهي المركز العمراني القديم لمدينة بجانة[3] ، ويؤيد ذلك ما ذكره الحميري في هذا الشأن اذ يقول : « ان دار سكنى ملك أرش اليمن في غابر الدهر كان في موضع مدينة بجانة اليوم »[4] • وفي نظير قيام هؤلاء اليمنيين بحماية الساحل تمتعوا باستقلال جزئي ، كما أصبح لهم الحق في استغلال وادي أندرش الذي كان يعرف في العصر الاسلامي باسم وادي بجانة • وكانت بجانة تتألف من حارات متفرقة[5] ، ونعني بها مجموعة من المجاشر أو الضياع الصغيرة المتفرقة • وآلت رئاسة اقليم بجانة أو أرش اليمن الى عمر بن أسود ، الذي يرجع اليه الفضل في تمصير اقليم بجانة ، فقــد أسس له جامعا يقع بالقرب من بجانة نفسها[6] •

وظل بنو سراج القضاعيون يقومون بحراسة ما يليهم من البحر ، وأقاموا لهذا الغرض برجا للحراسة بالقرب من مصب وادي بجانة ، فوق المرتفع الذي تقوم عليه قصبة المرية في الوقت الحاضر ، باعتبار أن هذا المرتفع هو أصلح المواقع لهذا الغرض ، وسموا هــذا المحرس باسم

---

(١) الحميري ص ١٨٣ •
(٢) نفس المرجع ص ٣٧ •
(٣) Torres Balbas, op. cit. P. 418
(٤) الحميري ص ٣٩ •
(٥) الحميري ص ٣٨ •
(٦) نفس المرجع •

« مرية بجانة » واتخذها العرب رباطا وابتنت فيها محارس للرباط[1] . وتوالي انشاء المحارس بمرية بجانة ، وبالتدريج أخذ الناس ينتجونها ويرابطون فيها[2] ، عندما قام النورمنديون بالاغارة على السواحل الاندلسية والمغربية في عام ٢٤٥ هـ .

ثم حدث في سنة ٢٧١ هـ أن نزل بمرية بجانة جماعة من البحريين الاندلسيين الذين كانوا يترددون بسفنهم ما بين الساحل الجنوبي الشرقي من الاندلس وساحل تنس بافريقية ، وسبب ذلك أن هؤلاء البحريين وعلى رأسهم الكركرني وأبو عايشة والصفر وصهيب أسسوا مدينة تنس الحديثة سنة ٢٦٢ هـ وسكنها فريقان من أهل الاندلس من أهل البيرة وأهل تدمير ، وانتقل الى سكناها بربر هذه المنطقة بعد أن استأذنوا البحريين في ذلك . ويذكر البكري أنه « لما دخل عليهم الربيع اعتلوا واستوبئوا الموضع ، فركب البحريون من أهل الاندلس مراكبهم ، وأظهروا لمن بقي منهم أنهم يمتارون ، فحينئذ نزلوا مرية بجانة ، وتغلبوا عليها »[3] .

ويبدو ان المدينة الرومانية القديمة Urci اجتذبتهم بعيونها وبساتينها وموقعها الذي يبعد بعض الشيء عن الساحل ، بحيث يقل

---

(1) العذري (ابن الدلائي) : ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ ص ٨٦ . ومن بين هذه الاربطة رابطة القبطة وكانت حصنا منيعا يشرف على البحر ، يعيش بداخله عدد من المجاهدين المرابطين ، ورابطة عمرش التي تبعد من المرية بنحو فرسخ (راجع
Gonzalez Palencia, Miscelanea de textos, Apendice a la edicion Codera de la Tecmila, Madrid, 1915, P. 432 — Ibn al-Zubayr, Silat as-Sila ed. Levi-Provençal, Rabat, 1938, P. 24).

ومنها رابطة على حاشية بحر المرية ، ذكر الحميري ان الامام أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف دفن بها في سنة ٤٧٤ هـ .

(2) الحميري ص ١٨٣ .

(3) البكري ، المغرب ص ٦١ — ٦٢ .

تعرضها للغارات البحرية المفاجئة ، فانتقلوا الى سكناها بعد أن اتفقوا في ذلك مع عرب أرش اليمن ، وتباحثوا معهم في اقامة ما يشبه الجمهورية البحرية ، تضم أرش اليمن ومراسيه ومحارسه ، لمواجهة أي اعتداء بحري يقوم به أي عدو من أعداء الدولة الاندلسية • ثم تغلب البحريون بالتدريج وأصبح لهم الامر في بجانة(١) ، ثم حوطوا حاراتها وضياعها بسور • ويبدو أن هذا السور أقيم بعد سنة ٢٧٧ هـ وهي السنة التي قدمت فيها قوات سعيد بن جودي لمهاجمة البحريين فيها ، وكانت بجانة « مدربة لم يضرب بعد عليها سور(٢) » • واهتم البحريون بتمصير بجانة وتعميرها وجعلها مدينة كبيرة ، ويبدو أنهم اتخذوا من قرطبة حاضرة الاندلس أنموذجا احتذوه في تمصير بجانة « فامتثلوا في ذلك ببنية قرطبة وترتيبها ، وجعلوا على أحد أبوابها صورة تشاكل الصورة التي على باب القنطرة »(٣) ، وكان يعلو هذا الباب القرطبي تمثال للعذراء(٤) ، ويستنتج الاستاذ ليفي بروفنسال من ذلك أن بجانة كانت تضم جماعة من البحريين النصارى ، وأنهم أقاموا لهم كنيسة(٥) • ولكن استنتاجه لا يخلو من مبالغة ، فليس من الضروري أن يكون التمثال الذي نصبه البحريون على باب بجانة تمثالا للعذراء مريم ، وليس من الضروري أن يكون ذلك دليلا على أن المدينة المحدثة كانت تضم جماعة من البحريين النصارى وأنهم أقاموا كنيسة لهم • فقد

(١) الحميري ص ٣٨ •

(٢) ابن حيان ، المقتبس في تاريخ رجال الاندلس ، نشره الاب ملشور انطونية ، باريس ١٩٣٧ ص ٨٩ ، والمقصود بمدربة انها كانت تتألف من دروب وحارات غير مسورة •

(٣) الحميري ص ٣٨ •

(٤) يقول ابن عذاري عن هذا التمثال : « وهي العذراء صاحبة قرطبة التي وضع أقدم حكامها صورتها فوق باب مدينتها القبلي وهو باب القنطرة » ، البيان المغرب ج ٣ باريس ١٩٣٠ ، ص ١٤ •

(٥) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. I, Paris-Leiden, 1950, P. 352.

يكون هذا التمثال المنصوب على باب بجانة مجرد تقليد للتمثال المنصوب على باب القنطرة بقرطبة امعانا في تقليد هذه المدينة ، والاستاذ ليفي بروفنسال نفسه أقر بأن تمثال بجانة وضع على أحد أبوابها من قبيل التقليد لباب العذراء أو الصاحبة بقرطبة[1] ، والحميري يؤكد أن ذلك كان امتثالا لبنية قرطبة وترتيبها ، فقرطبة كانت دائما مصدر الالهام لرجال الفن والبناء ، وقد ذكر بعض مؤرخي العرب أن الناصر بعد أن أتقن بناء مدينة الزهراء وأحكم الصنعة فيها نقش صورة الزهراء على بابها[2] ، مبالغة في حبه للزهراء ، وان كنت أعتقد أن هذا التمثال لم يكن قد صنع خصيصا للزهراء ، وأنه لا يعدو أن يكون تمثالا رومانيا قديما نصب على أحد أبواب مدينة الزهراء تقليدا للتمثال المنصوب على باب القنطرة بقرطبة[3] . كذلك كان جامع قرطبة مصدرا لالهام الفنانين والبنائين في سائر أنحاء الاندلس ، فعقوده التي يتناوب فيها اللونان الابيض والاحمر ، وأقواسه المتجاوزة لنصف الدائرة ، وقبابه القائمة علـى تشابك العقود البارزة ، ومساند عقوده ، اتخذت أنموذجا في مساجد طليطلة وتطيلة واشبيلية وغيرها ، بل قلدت في بعض الكنائس المسيحية باسبانيا وفرنسا[4] ، كما أن نظام تخطيطه وبنائه اتخذ أنموذجا لبناء جامع الموحدين باشبيلية ، الذي « قارب به جامع قرطبة في السعة ،

---

(1) Lévi-Provençal, Islam d'Occident, Paris, 1948, P. 50
(وراجع الترجمة العربية لهذا الكتاب بعنوان : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم، والاستاذ محمد صلاح الدين حلمي، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦١)

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين في الاندلس ، ص ٤٠٨ . ونلاحظ أن أهل الاندلس اعتادوا تزيين منشآتهم بالتماثيل القديمة خاصة التي تمثل النساء ، مثل ذلك أن حمام الشطارة باشبيلية كان يزدان بتمثال من المرمر لامراة « كاملة القد ، حسنة الجسم ، جميلة الوجه » (الحميري ، ص ١٢٣) .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، أثر الفن الخلافي بقرطبة في الفن المسيحي باسبانيا وفرنسا ،المجلة ، العدد ١٤ ، ١٩٥٨ .

وليس في الاندلس جامع على قده وسعته وعدد بلاطاته »[1] •

وأغلب الظن أن التمثال الذي كان ينتصب على أحد أبواب بجانة كان تمثالا قديما لامرأة كتمثال مدينة الزهراء ، وأنه وضع في هذا الموضع تقليدا لتمثال العذراء الذي كان يقوم على باب القنطرة من أبواب قرطبة • وليس معنى هذا أنني أنفي وجود بعض البحريين النصارى ببجانة ، أو أنكر وجود كنيسة أو بعض الكنائس بها ، فقد كان العجم أو أهل الذمة يقيمون جنبا الى جنب مع المسلمين في المدن الاندلسية ، ولم تكن أي مدينة بالاندلس تخلو من الطوائف المسيحية واليهودية ، وكان المسلمون يحسنون معاملتهم في العصر الاموي الذي طبقت فيه سياسة التسامح الديني ، كما كانت لهم كنائسهم الخاصة بهم ، يقرعون نواقيسها ، ويمارسون شعائر دينهم في حرية تامة[2] ، بل ان أحد شعراء المرية وهو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن الحداد ، كان قد أحب في صباه فتاة نصرانية من المرية ، « ذهبت بلبه كل مذهب ، وركب اليها أصعب مركب » ، وكتب فيها جزءا كبيرا من أشعاره ، وكان يفصح معها يوم الفصح ويرافقها في الكنائس[3] •

(١) مدونة ابن صاحب الصلاة ، نشرها انطونيا ملشور بعنوان :
Sevilla y sus monumentos arabes, al-Escorial, 1930, P. 134.

(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٣٠ — ١٣٢ •

(٣) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، القسم الاول ، المجلد الثاني ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ • ومن اشعاره في الغزل بها قوله :

قلبي في ذات الاثيلات	رهين لوعات وروعات
فوجها نحوهم انهم	وان بغوا قبلة بغياتي
وعرسا من عقدات اللوى	بالهضبات الزهريات
وعرجا يا فتيي عامر	بالفتيات العيسويات
فان بي للروم رومية	تكنس ما بين الكنيسات
أهيم فيها والهوى ضلة	بين صوامع وبيعات
أفصح وحدي يوم فصح لهم	بين الاريطي والدويحات
وقد أتوا منه الى موعد	واجتمعوا فيه لميقات

ونعتقد أن بجانة كانت تضم جالية من المستعربين أو المعاهدة وهم النصارى الذين خضعوا للمسلمين وللحكم الاسلامي ، بسبب احتفاظ هذه المدينة برفات سان انداثيو • ويؤكد سيمونيت أن بجانة أو أورسي القديمة كانت تضم كنيسة صغيرة في العصر الاسلامي[١] • ويرجح الاستاذ توريس بلباس أن بجانة كان يكثر بها عدد المستعربين بدليل قيام المعارك بين عرب غرناطة وبينهم[٢] ، وهي معارك كانت تعبر عن الصراع بين العصبية العربية وعصبية المستعربين والمولدين • ولكن المؤرخين لم يعللوا قيام المعارك بين عرب غرناطة وبين البحريين في بجانة هذا التعليل ، وانما أرجعوا سبب قيامها الى رغبة عرب إلبيرة في إضعاف نفوذ البحريين بعد أن تغلبوا على بجانة وجعلوها حاضرة زاهرة ، والى أسباب أخرى سنوضحها في موضعها •

اذن ما ذكره كل من الاستاذين ليفي بروفنسال وتوريس بلباس لا يعدو مجرد استنتاج مبالغ فيه ، ومما يؤكد وجهة نظرنا أن ابن حيان والبكري لم يشر أحدهما الى وجود جالية كبيرة من المستعربين ، كما أن ابن حيان والبكري ذكرا أسماء عربية اسلامية لرؤساء هؤلاء البحريين ، ومنهم اسم أميرهم عبد الرزاق بن عيسى •

= بموقف بين يدي أسقف ... ممسك مصباح ومنساه
وكل قس مظهر للتقي ... بآي انصات واخبات
وقد تلوا صحف اناجيلهم ... بحسن الحان واصوات

وقوله :

عساك بحق عيساك ... مريحة قلبي الشاكي
فان الحسن قد ولا ... ك احيائي واهلاكي
وأولعني بصلبان ... ورهبان ونساك
ولم آت الكنائس عن ... هوى فيهن لولاك

(١) Simonet, historia de los Mozarabes, P. 122
(٢) Torres Balbas, op. cit. P. 421.

ازدهرت بجانة بفضل أسطولها الراسي بخليج مريتها ، وأصبحت مدينة كبيرة زاهرة عامرة ، « فأمتها الناس من كل جهة ، وانجفلوا اليها من كل ناحية ، فارين من الفتنة التي كانت اذ ذاك شاملة ، فكانت أمنا لمن قصدها ، وحرما لمن لجأ اليها ، وكانت الميرة تجلب اليها من العدوة ، وضروب المرافق والتجارات ، وكان ذلك أيضا من الاسباب الداعية الى قصدها واستيطانها »[1] ، واتسعت بجانة وأصبحت تضم أرباضا كثيرة.

وكانت بجانة تقع على الضفة اليسرى من نهر أندرش المعروف بوادي بجانة ، وكان يتفرع من هـذا النهر جدولان يشقان المدينة : أحدهما شرقي تسقي مياهه بساتين المدينة كلها ، والآخر يشق الارباض الشمالية ويتجاوزها الـى الارباض القبلية[2] • وكان يتوسط المدينة مسجدها الجامع الذي بناه عمر بن أسود الغساني[3] ، أحـد أعيان البحريين فيها ، وكان بيت الصلاة فيه يشتمل على سبع بلاطات ، يعلو البلاط الاوسط عند أسطوان المحراب قبة نصف كروية قائمة على احدى عشرة حنية ، وهذه الحنايا ترتكز على أربع عشر عمودا ، ويزدان بطن القبة بنقوش رائعة • وتتوزع البلاطات الاخرى شرقي وغربي القبة ، ثلاث من كل جهة ، وذكر الحميري أن البلاطات الغربية تزيد في الاتساع عن البلاطات الشرقية ، وأن عمدها من الحجر • أما الصحن فتتوسطه بئر عذبة لعلها كانت تتخذ للوضوء[4] •

وعمرت بجانة بالاسواق ، وزخرت بالمنشآت المعمارية ، فكان بها أحـد عشر حماما ، وطرز الحرير والحوانيت المختلفة[5] • واتسعت

---

(١) الحميري ، ص ٣٨ •

(٢) نفس المصدر •

(٣) العذري ، ص ٨٧ •

(٤) الحميري ، ص ٣٨ • وذكر العذري ان القبة المذكورة كانت تقوم على اربعة اعمدة (العذري ، ص ٨٧) •

(٥) الحميري ، ص ٣٨ •

اتساعا كبيرا الى الشرق والشمال والجنوب ، وأصبحت على هذا النحو مدينة كبرى شبه مستقلة ، أشبه ما تكون بالدولة الصغيرة ، وتمتعت برعاية الاميرين محمد والمنذر • ولما تولى الامير عبدالله امارة قرطبة سنة ٢٧٥ منح أهلها العرب والبحريين الحق في توسيع رقعة بلدهم ، وذلك بضم القرى المجاورة واقامة نطاق من الحصون حول مدينتهم ، نظير اعترافهم به ، في الوقت الذي خرج عليه عمر بن حفصون في ببشتر وربة وإلبيرة ، ومن هذه الحصون : حصن الحمة ، والخابية وبني طارق في الغرب ، وحصن ناشر في الشرق ، وحصن برشانة المنيع في الشمال ويقع على نهر المنصورة[1] فيما وراء سلسلة جبال سيرا دي لوس فيلابريس (Sierra de los Filabres) المشهورة بمقاطع الرخام • وبذلك أصبحت هذه الحصون تسيطر على الطريق البري الوحيد الموصل ما بين بجانة ووادي آش من جهة الغرب ، ومرسية من جهة الشمال الشرقي[2] • وأقام عليهم الامير عبدالله رجلا منهم اسمه عبد الرزاق بن عيسى ، عرف بحسن السيرة والحزم ، كما عرف بتشدده مع الاشرار ، والمبالغة في عقوبة من ظفر به منهم ، وفي أيامه ساد الامن بجانة حتى كان الرحالة والمسافرون يضعون أمتعتهم ومتاعهم بالاسواق

---

(١) ابن حيان ، المقتبس في تاريخ الاندلس ، نشره الاب ملشور ، باريس ١٩٣٧ ص ٥٣ • ويقول ابن حيان : « وفيها (أي سنة ٢٧٥ هـ) خاطب البحريون الذين اختطوا مدينة بجانة بالساحل القبلي واتخذوها قاعدة لهم وفرضة لاهل العدوة من تلقائهم ، عملوا ذلك آخر ايام الامير محمد والده ، وتزيد عملهم في تمهيدها من بعده ، فكتبوا الى الامير عبدالله عند جلوسه في الخلافة بعد يسالونه اقرار واليهم عليهم واعفائهم من غيره واباحتهم البنيان حوالي تصبتهم بجانة والتوسع في اعراضها لتكاثر الناس عندهم ، فأجابهم الى ما سألوه من ذلك ، فأوسعوا الاختطاط بأرض بجانة صدر خلافة عبدالله حتى اتخذوا بها عشرين حصنا مثل وادي بجانة والحامة والخابية وبرشانة وعالية وبنى طارق ، وحصن ناشر وغيرها ، حموها واوطنوها هم ومن نزل بهم • وجاءهم الناس من كل جانب ، فأمنوا عندهم ، وكثروا ببلدهم » (ابن حيان ، المقتبس ، ص ٥٣) •

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, P. 354

والشوارع ، وتظل هذه الامتعة مطروحة دون حارس فلا يضيع منها شيء . وكان هذا سببا في وفود الناس اليها من الآفاق ، « واغتباطهم بحلولها وسكونهم الى ضبط أميرها عبد الرزاق وحمايته وتحصينه الفروج والاموال ، وسعيه الى توسعة الغارة فيما حول بجانة حتى قامت فيها حصون كثيرة وقرى آهلة في الاسناد وفي نشارة وغيرها ، وحافظ على رعاية من قصد بلده ورغب في مجاورته ، فكثر الناس لديه ، واغتبطوا به وبجواره ، وحسده كثير ممن جاوره على حسن حاله »(1).

الا أن بجانة تعرضت لهجمات سوار بن حمدون المحاربي ، أمير العرب بغرناطة من كورة إلبيرة ، فقد غزا البحريين الذين اختطوا بجانة سنة ٢٧٦ هـ ، وسبب ذلك أنه بلغه حسن حالهم في بجانة ، « واجتماع الناس اليهم ، واستخفافهم بمن جاورهم من العرب الغسانيين ، واستطالتهم عليهم ، وخوفهم منهم على أنفسهم لقلة عددهم »(2) . لذلك تأهب سوار لغزوهم في عرب إلبيرة ، طمعا في اخراجهم من موطنهم بجانة والانتصار لقومه الغسانيين منهم ، فقد كان يحسد أهل بجانة على أميرهم عبد الرزاق بن عيسى بسبب الجهود التي بذلها لتمصيرها ، ورفع شأنها ، واجتذاب الناس اليها . وعندما علم عبد الرزاق بخبر هذه الغزوة ، خاف على مدينته من عرب إلبيرة ، ورهب ما عرف من شدة بأس سوار ، فعمد الى ملاطفته ومداراته ، « فأخرج وجوه البحريين أصحابه الى العرب الغسانيين جيرانهم يستذمون بذمة جيرتهم ويستصفحونهم عن اجرام سفهائهم ، ويستشفعون بهم الى سوار عشيرتهم ، ويسألونهم لقاءه واستلطافه لهم ووعظه فيهم ، وسؤال ألا يدخل بينهم اذ كانوا جيرة ولحمة ، وهم أقدر على اصلاح ما يقع بينهم ،

---

(1) ابن حيان ، المقتبس ، ص ٨٨ .

(2) نفس المصدر .

والرغبة اليه في الانصراف عنهم ومواثقته على اجمال عشيرتهم »[1] .
واستنجاب عرب بجانة الغسانيون الى رجاء الامير ، فأوفدوا منهم وفدا من وجوههم الى سوار ، على رأسه سعيد بن أسود وخشخاش ابنه ، ومحمد بن عمر بن أسود ابن أخيه ، وأبوه الادهم بن مخلد الغساني ، وغيرهم . ونجح هؤلاء في اقناع سوار بالانصراف عن بجانة ، وعاد سوار الى غرناطة .

فلما قتل سوار في سنة ٢٧٧ هـ ، وآلت زعامة عرب إلبيرة الى صاحبه سعيد بن سليمان بن جودي ، عاد البحريون في بجانة الى التمرس بالغسانيين الذين كانوا قد توسطوا بينهم وبين سوار . فأنف عرب بجانة من تسلطهم عليهم ، وكاتبوا ابن جودي يستنهضونه لغزو البحريين ، ولما أبطأ عليهم ، قصده جماعة منهم ليحرضوه على غزو بجانة ، « فخف معهم ، وجاء الى بجانة وهي مدربة لم يضرب بعد عليها سور ، فحاربهم فيها أياما قارشوه فيها ، فلم يظفر بهم بطائل »[2] .

وبينما كان عرب غرناطة يقاتلون البحريين في بجانة ، كان شنير Sunier II قومس أنبورس Ampurias يغير في ١٥ مركبا على ساحل المرية ، فأحرق عددا كبيرا من سفن البحريين ، وقتل في هذه الغارة أحد كبار البحريين وهو خلف بن زهري بالحوض ، وعندئذ تسلل البحريون أثناء الليل من بجانة وقصدوا المرية ، فهابهم القطلانيون وأبدوا رغبتهم في الصلح مع البحريين ، وتم ذلك على يدي عبد الرحمن بن مطرف الحاج ، وانصرف قومس أنبورس مع سفنه عن المرية . وعاد البحريون الى بجانة ، «فظن ابن جودي أن مددا جاءهم ، فرحل عنهم مسرعا»[3] .

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الاب ملشور ، ص ٨٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٨٩ .
(٣) نفس المصدر .

وبذلك اكتسب البحريون شهرة كبيرة في القوة وشدة البأس ، كفت عنهم طمع جيرانهم •

وبعد أن زال هذا الخطر المزدوج استعادت بجانة ازدهارها ، وعمر قطينها ، وكثر أهلها ، واتسعت عمارتها ، وحسنت حال أهلها ، واكتسبوا من التجارة مكاسب هائلة • وفي سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) تمكن عبد الرحمن بن محمد من استنزال أهلها ، فدخلت من جديد في فلك الدولة الاموية ، وانعقد أمانهم ، وولي الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، أحمد بن أبي طالب القضاء ببلدهم[١] • وظلت بجانة محتفظة بعظمتها طوال النصف الاول من القرن العاشر الميلادي ، ولكنها أخذت تفقد بالتدريج أهميتها أمـام فرضتها المرية ، التـي ازدادت أهميتها وارتفعت مكانتها منذ أن أمر الخليفة عبـد الرحمن الناصر ببنائها في سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) • ولم تلبث المرية أن أصبحت من أشهر مراسي الاندلس وأعمرها ، واتسعت رقعتها ، ونما عمرانها ، وأصبحت هـي وبجانة على حد قول ياقوت الحموي « بابي المشرق ، منها يركب التجار ، وفيها تحل مراكب التجار ، وفيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب »[٢] •

الا أن بجانة لم تلبث أن اضمحلت منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي ، وأصبحت مجرد قرية في الوقت الذي ارتفعت فيه المرية الى مصاف الحواضر • ويعبر ابن سعيد عن ذلك ، فيقول عن بجانة « كانت محرس المملكة الى أن ضعفت ، وعظمت المرية فصارت تابعة »[٣] • ثم خربت مدينة بجانة ابان الفتنة التي أعقبت سقوط الخلافة بقرطبة وذهب

---

(١) Una Cronica anonima de Abd al-Rahman III al-Nasir, ed. Lévi-Provençal et Garcia Gomez, Madrid-Granada, 1950, P. 68.

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، طبعة بيروت ، ص ١١٩٠ •

(٣) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ١٩٠ •

باقي عمارتها في سنة ٤٥٩ هـ[١] .

أما المرية فقد تألقت وانتقلت اليها قاعدة الاقليم ، وأقيم بها في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر كثير من المنشآت المعمارية ، ويذكر الحميري أنه بنى عليها سورا من الحجارة حصينا[٢] ، وأقام بهـا هذا الخليفة « القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران »[٣] نسبة الى الفتى خيران العامري الذي ولاه عليها المنصور محمد بن أبي عامر . ومن الابنية التي أقامها عبد الرحمن الناصر دار الصناعة بالمرية التي قامت بانتاج عدد كبير من السفن[٤] .

* * *

(١) العذري ، ص ٨٧ . ولم يبق من بجانة في زمن الادريسي اي في القرن الحادي عشر الميلادي سوى آثار بنيانها ومسجد قائم بذاته (الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٠٠) .

(٢) العذري ، ص ٨٦ — الحميري ، ص ١٨٣ .

(٣) المقري ، ج ١ ص ١٥٣ .

(٤) ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٤ .

(٣)

المرية قاعدة بحرية لاسطول الاندلس

لم يكن للمسلمين منذ افتتاح الاندلس أسطول بحري حربي منظم قبل أن يشرع الامير عبد الرحمن الاوسط في بناء دار الصناعة بإشبيلية في سنة ٢٣٠ هـ بعد غارة النورمان الاولى على سواحل الاندلس الغربية وعلى إشبيلية . فقد شغل أمراء بني أمية في الاندلس منذ قيام دولتهم بالثورات الداخلية وبالحروب مع الممالك المسيحية في الشمال عن العناية بالأساطيل ، كما أنهم اتبعوا سياسة تقوم على التقرب الى الدولة البيزنطية ومصادقتها لاشتراكها مع دولة بني أمية في الاندلس في العداء للدولة العباسية ، ولهذا السبب اطمأن الامويون في الاندلس من جانب البيزنطيين ، ولم يكترث عبد الرحمن الداخل وخلفاؤه من بعده بتكوين قوة بحرية للاندلس ، الى أن فوجئت البلاد بالغارة النورمانية في سنة ٢٢٩ هـ . غير أن انصراف الامويين قبل هذا التاريخ عن العناية بالبحرية لم يمنع من قيام جماعات من البحريين الاندلسيين من الاشتغال بالتجارة فيما تنتجه الاندلس من منتجات زراعية وصناعية أو القيام بغزو السواحل الفرنجية وجزر البحر المتوسط ، وكان المركز الرئيسي لهؤلاء البحريين منطقة تقع على الساحل الشمالي الشرقي من الاندلس بين طرطوشة وبلنسية كان يتزعمها أمير سرقسطة ضد الكارولنجيين[1] ، وقد وجه هؤلاء البحريون غاراتهم على السواحل الكارولنجية بعد أن تفككت

---

(١) أرشبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٤٠ .

قوى الكارولنجيين البحرية منذ منتصف القرن التاسع الميلادي . كذلك كان للبحريين الاندلسيين منطقة أخرى تقع على الساحل الجنوبي الشرقي من الاندلس عند الموضع الذي قامت عليه مرية بجانة . وقد كان البحريون ينزلون مرسى أشكوبرش Escombreras الواقع في خليج قرطاجنة الخلفاء قبل أن ينزلوا بجانة(١) . ويذكر البكري أن هؤلاء البحريين الاندلسيين ومنهم الكركرني وأبو عايشة والصفر وصهيب ، أسسوا مدينة تنس الحديثة بالمغرب الاوسط في سنة ٢٦٢ هـ ، اذ كانوا يشتون هناك اذا ركبوا سفنهم من الاندلس ، فينزلون في مرسى على ساحل البحر ، ولكن معظمهم انتقل عنها بعد ذلك الى مرية بجانة . والى البحريين الاندلسيين أيضا وعلى رأسهم محمد بن أبي عون ومحمد ابن عبدون يرجع الفضل في تأسيس مدينة وهران بالاشتراك مع نفزة وبنى سفن من أزداجة في سنة ٢٩٠ هـ(٢) .

وينبغي أن نذكر هنا الدور الهام الذي قام به البحريون الاندلسيون برئاسة أبي حفص عمر بن شعيب البلوطي في الاستيلاء على الاسكندرية في أوائل القرن الثالث الهجري ، وعلى جزيرة اقريطش في سنة ٢١٢ هـ ، والدور الذي قام به اصبغ بن وكيل الهواري المعروف بفرغلوش هو وأصحابه الغزاة الاندلسيين في مساعدة الاغالبة في فتح جزيرة صقلية سنة ٢١٤ هـ . ولكن ينبغي أن نذكر أيضا أن أعمال هؤلاء الغزاة لم تكن تتم بموافقة رسمية من حكومة قرطبة(٣) . وعلى هذا الاساس نستنتج أن الاندلس كانت تضم سواء لاعمال التبادل

---

(١) البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشره دي سلان ، الجزائر ١٩١١ ، ص ٨١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٠ .

(٣) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, P. 244

التجاري بينها وبين المغرب أو للغزو البحري جماعة من البحريين الذين كانت لهم خبرة كبيرة ودربة متوارثة في شؤون البحر ، وكان معظمهم مولدين ونصارى وأقلهم عرب وبربر(١) •

وكان لغارة النورمان على الاندلس في سنة ٢٢٩ هـ ، ٢٣٠ هـ آثار هامة على الاندلس ، أولها : أنها نبهت الامير عبد الرحمن الاوسط الى ضرورة الاهتمام بتحصين السواحل التي يمكن أن يطرقها النورمان من الغرب والجنوب الغربي ، فأمر بتسوير إشبيلية(٢) باشارة وزيره عبد الملك بن حبيب ، واقامة مراقب ومحارس على طول الساحل الغربي المطل على المحيط وشحنها بالمقاتلة(٣) ، وثانيها أنها حفزت الحكومة الاموية بقرطبة على زيادة الاهتمام بالبحرية عن طريق انشاء دور لصناعة السفن لتزويد البلاد بأعداد وفيرة منها تأهبا لمواجهة أي غارات مستقبلة ، فأمر الامير عبد الرحمن الاوسط « باقامة دار صناعة بإشبيلية ، وأنشأ المراكب ، واستعد برجال البحر من سواحل الاندلس ، فألحقهم ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط »(٤) ولا يسجل هذا الامر ميلاد البحرية الاسلامية في الاندلس ، لان البحرية كانت موجودة بالفعل منذ أيام الحكم الربضي ، ولكنه يسجل تنظيما للبحرية الاسلامية ، وحشدا لطاقات الاندلس في هذا المجال • وأغلب الظن أن الامير عبد الرحمن دعا الى حشد جهود البحريين والغزاة لخدمة البلاد في مقابل أرزاق معلومة ، أي أنه استعان بالبحريين في ادارة أسطول قوى مزودة بالآلات

(١) Lévi-Provençal, op. cit. P. 349.

(٢) ابن القوطية ، ص ٦٣ — ابن حيان ، قطعة من المقتبس من عصر الخليفة الحكم المستنصر ، نشرها الدكتور عبد الرحمن الحجي ، ملحق ، ص ٢٤٤ — ابن سعيد المغربي ، ج ١ ص ٤٩ — الحميري ، ص ٢١ •

(٣) Lévi-Provençal, op. cit. P. 225.

(٤) ابن القوطية ، ص ٦٧ •

التي اختصت بصناعتها جزيرة شلطيش[1] وقرمونة[2] . وكان من أثر ذلك أن أصبح لحكومة قرطبة أسطول ضخم يضم عددا كبيرا من السفن يقدر عددها بأكثر من ثلاثمائة سفينة اذا صدقنا رواية ابن حيان التي أكد فيها اسهام أسطول الاندلس المؤلف من ٣٠٠ مركب في فتح جزيرتي ميورقة ومنورقة[3] . وقد أسهم الاسطول الاندلسي في رد النورمان عن سواحل الاندلس في سنة ٢٤٥ هـ في امارة محمد بن عبد الرحمن الذي واصل توجيه مزيد من العناية بشؤون البحرية .

ومنــذ أن تولى عبد الرحمن بن محمد امارة الاندلس في سنة ٣٠٠ هـ وهــو يعمل على تدعيم البحرية الاندلسية لمواجهــة الاخطار المحيطة بالاندلس من الخارج والنابعة من الثوار في الداخل ، فعمل على انشاء أسطول قوي يضمن للبلاد القضاء على المؤامرات الداخلية ويدفع به عنها الاخطار الخارجية ، ويذكر ابن خلدون أن أسطول الاندلس انتهى في أيامه الى مائتي مركب أو نحوها[4] ، وكان يتولى قيادة هذا الاسطول قائد البحر محمد بن رماحس . ويعتبر عبد الرحمن بن محمد المؤسس الحقيقي للاساطيل الاندلسية ، فقد قام بانشاء دور للانشاء في طركونــة وطرطوشة[5] والجزيــرة الخضراء[6] ومالقــة وميورقــة

(١) الادريسي ، ص ١٧٩ .

(٢) الحميري ، ص ١٥٩ .

(٣) ابن حيان ، قطعة من المقتبس تؤرخ لعصر الامير عبد الرحمن الاوسط ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٢ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٩ (تحقيق د. علي عبد الواحد وافي) .

(٥) ما زالت اللوحة التذكارية التي سجل فيها عبد الرحمن الناصر تاريخ انشاء دار صناعة طرطوشة (سنة ٣٣٣ هـ) موضوعة على الجدار الشمالي من كاتدرائية طرطوشة (راجع Lévi-Provençal, Inscription arabes d'Espagne, Paris 1931) وكانت المراكب الكبار تصنع فيها من خشب جبال طرطوشة الصنوبري الذي يتميز بطوله وغلظه وصفاء بشرته ودسامته بحيث لا يفعل فيه السوس ما يفعله بغيره ، ومنه كانت تتخذ الصواري والقرى (الادريسي ، ص ١٩٠ ــ الحميري ، ص ١٢٤) .

(٦) يؤكد الحميري ان الخليفة عبد الرحمن الناصر هو الذي انشأ دار صناعة الجزيرة وأتقن بناءها وعلّى أسوارها (الحميري ، ص ٧٣) .

ولقنت(١) وشلب(٢) وقصر أبي دانس ودانية(٣) والزهراء(٤) وشنتمرية بالبرتغال(٥) وغيرها ، واستخدم لذلك أخشاب الصنوبر بطرطوشة .

وفي عصر الخلافة ارتفعت مكانة المرية وأصبحت أهـم موانىء الاندلس في القرن الرابع الهجري ، وأشهر مراسيها وأعمرها ، وكان خليجها العميق يضم معظم وحدات الاسطول الاموي في الاندلس(٦) كما كان مرفأها هـو مرفأ الاندلس المحط والاقلاع(٧) ، وكانت دار الصناعة بالمرية تقوم بانتاج أعداد كبيرة من السفن ، وفي هـذه الدار استقرت العدة والآلات اللازمة للسفن وما يقوم به الاسطول(٨) .

ويرجع اهتمام الناصر بانشاء دور الصناعة والاساطيل الى حرصه على مواجهة غارات النورمان والفاطميين على السواء ، وقـد نجح في تطبيق هذه السياسة منـذ اعتلائه دست الامارة ، ففي سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) أمر بانفاذ هـذا الاسطول الاندلسي الى مضيق جبل طارق ليمنع عن ابن حفصون الثائر وصول الامدادات اليه من ساحل افريقية ، اذ كان قد تحالف مع الفاطميين خصوم الامير عبد الرحمن(٩) ، وكان لهذا الاسطول الفضل الاكبر في الاستيلاء علـى طنجة ومليلة في سنة

(١) كانت تنشأ فيها المراكب السفرية والحراريق (الادريسي ، ص ١٩٣) .
(٢) اشتهرت شلب بخشبها الذي تصنع منه السفن (الادريسي ، ص ١٨٠) .
(٣) كانت دانية دار انشاء للسفن وقاعدة حربية للاساطيل (الادريسي ، ص ١٩٢ — الحميري ، ص ٧٦) .
(٤) خصصت هذه الدار لصناعة آلات السلاح للحرب (المقري ، ج ٢ ص ١١٢) .
(٥) كانت السفن تصنع مـن اشجـار الصنوبر التـي تنبت بجزائر تقـع تجاهها (الحميري ، ص ١١٥) .
(٦) السيد عبد العزيز سالم ، المرية قاعدة الاسطول الاندلسي ، مجلة الرابطة ، ص ٧٨
(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٩ .
(٨) ابن غالب ، قطعة من فرحة الانفس ، ص ١٤ .
(٩) احمد مختار العبادي ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ ، ص ٢٠٦ .

٣١٤ هـ (٩٢٧ م) وعلى سبتة في سنة ٣١٨ هـ (٩٣١ م)(١) . كذلك جاز أسطوله بقيادة أحمد بن محمد بن الياس ويونس بن سعيد ، مرسى الجزيرة ، واحتل العدوة في سنة ٣٣٣ هـ . وفي سنة ٣٢٠ هـ استجاب عبد الرحمن الناصر لرغبة موسى بن أبي العافية ، فأمر أهل بجانة وغيرهم من أهل السواحل باقامة خمسة عشر مركبا حربية مجهزة بالرجال والسلاح والازودة والاموال لمحاصرة جزيرة أرشقول التي لجأ اليها الحسن بن عيسى بن أبي العيش ، ولكن الحملة فشلت ، وعادت السفن الاندلسية الى المرية في شهر رمضان من نفس السنة(٢) .

وفي سنة ٣٣٣ هـ غزا محمد بن رماحس على الاسطول الى بني محمد بالعدوة ، وكان عدد السفن الاندلسية ١٥ مركبا حربية وشينيين وفتاش(٣) ، وفي العام التالي غزا محمد بن رماحس قائدا على الاسطول الاندلسي الى افريقية من المرية(٤) . ومنذ ذلك الحين توالت ضربات الاسطول الاندلسي على ممتلكات الفاطميين في المغرب ، فقد أمر عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٤٤ هـ بانشاء مركب كبير لم يصنع مثله في دار الصناعة بالمرية ، وسير فيه أمتعة الى بلاد الشرق ، فلقي مركبا في البحر يحمل رسولا من الحسين بن علي صاحب صقلية الى المعز لدين الله الفاطمي ، فقطع عليه بحريو المركب الاندلسي طريقه واستولوا على ما فيه ، كما استولوا على الكتب التي أرسلها الحسين بن علي الى المعز ، فلما بلغ المعز ذلك عمر أسطولا بقيادة الحسين بن علي وسيره الى الاندلس ، فهاجم الاسطول الفاطمي مدينة المرية في نفس السنة ، ودخل

---

(1) Lévi-Provençal, La politica africana de Abd al-Rahman III, al-Andalus, Vol. XI, fasc. 2, 1946, P. 366 — Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 106.

(٢) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٧٨ .

(٣) العذري ، ص ٨٢ .

(٤) نفس المصدر .

المهاجمون مرسى المرية ، وأحرقوا جميع مـا كان راسيا فيه من سفن الاندلس واستولوا على المركب الكبير ، وكان قد عاد من الاسكندرية مشحونا بأمتعة للخليفة عبد الرحمن وجواري ومغنيات ، ثم دخلوا المدينة وقتلوا ونهبوا ، وعادوا سالمين الى المهدية(1) . وكان رد الفعل الاندلسي على تلك الغارة البحرية أن هاجم الاسطول الاندلسي بقيادة أمير البحر غالب بن عبد الرحمن سواحل افريقية في سنة ٣٤٥ هـ في ستين سفينة ، وكان مرسى الخرز وساحل سوسة هدفا لهذه الغارة الانتقامية(2) .

ولم يكتف عبد الرحمن الناصر بغزو خصومه المسلمين في العدوة وسواحل افريقية بل وجه أساطيله الى قطلونية وافرنجة ، ففي سنة ٣٢٨ خرج محمد بن رماحس في حربيتين برجالهما من أهل مرية بجانة الى طرطوشة ، وركب مـن هناك في عشرة مراكب حربية وأربعة شواني وفتاش بالاضافة الى حربيتي المرية ، وأبحر الى أنبوريش ، فبلغ رأس الصليب على طرف جون أنبوريش ، وبعد أن انتهى من مهمته عاد الى طرطوشة مارا ببرشلونة(3) . وفي سنة ٣٣١ هـ غزا الى افرنجة مع غالب ابن عبد الرحمن وسهل بن أسيد في ثلاثين مركبا حربية وستة شواني ، فخرج من مرية بجانة في ١٣ من شوال ، ولكن سفنه تعرضت لعاصفة عاتية فتفرقت قطع أسطوله ، وتلوم بمرسى القبطة ، أما القائدان غالب وسهيل فقد لجئا الى ساحل منبسط ، فغنما به ثم عادا الى المرية(4) .

وهكذا كان للاسطول الاندلسي دور كبير في المسائل السياسية ، وقد أشار صاحب كتاب « الازهار المنثورة في الاخبار المأثورة » الى

---

(1) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨ ص ١٨٥ — ابو الفداء، المختصر، ج ٣ ص ١٢٧ .

(2) ابن عذاري، البيان، ج ٢ ص ٣١٨ — Lévi-Provençal, Histoire, t. II, P. 108
Torres Balbas, Atarazanas hispanomusulmanas, al-Andalus, Vol. XI, 1946, P. 180.

(3) العذري ، ص ٨١ .

(4) نفس المصدر .

أهمية قائد أسطول المرية في الدولة الاموية ، فذكر أن أكثـر شؤون الخلفاء الامويين أهمية لم يكن يقطع فيها برأي دون استشارة ثلاث شخصيات : أولها قائد جيش سرقسطة حاضرة الثغر الاعلى وذلك لاهمية موقعها ، باعتبارها ثغر الاندلس ومعقلها الاعظم ، وثانيها قاضي قرطبة ، حاضرة الخلافة ومركز العلماء ، وذلك لان الذي يرتفع الى هذه الرتبة كان لا بد أن تتوافر فيه صفات الدقة وصفاء النفس ورسوخ المعارف والحكمة ، وثالثها شخصية قائد أسطول المرية لان هذه المدينة كانت تضم دار الصناعة الرئيسية في الاندلس ، ولانها كانت تقع في موسطة الاندلس . وكان قائد أسطول المرية في العصر الاموي يشارك الخليفة الى حد ما في سلطاته الخلافية ، فبينما كان الخليفة يحكم في البر كان قائد الاسطول يحكم في البحر[1] .

ويصف لنا ابن خلدون ما جرت به العادة في أيام الخليفة الناصر عند خروج الاسطول للغزو مـن المرية فيقول : « ... فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطاني مهم ، عسكرت بمرفئها المعلوم ، وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره ومواليه ، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته ، يرجعون كلهم اليه ، ثم يسرحهم لوجههم ، وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة »[2] .

وتتساءل الآن عن سبب اختيار الناصر لثغر المرية ليكون مرفئا لاساطيل الاندلس . الواقع أن الناصر كان موفقا كل التوفيق في هذا الاختيار ، فالمرية مدينة حصينة ومعقل هام لانها منذ سميت بمرية بجانة كانت كما رأينا محرسا ومرأى لهذه المدينة ، فلما أمـر ببنائها حوطها بسور منيع ، وأقام على أحد جبليها قصبتها التي عرفت بقلعة خيران ،

(1) Lévi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle, P. 85, 86

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٩ .

والى جانب هذه القلعة كانت تتوزع حولها حصون وقلاع تزيد من قدرة الدفاع عنها ، فمن حصونها حصن برجة ويقع الى الجنوب الغربي منها في واد شديد الخصوبة ، ومنها حصن شنش ويقع على مرحلة منها ، ومنها حصن القبطة ويقع الى الجنوب الشرقي من خليجها . كل ذلك ساعد على حصانتها ومناعتها ، والحصانة والمناعة من الشروط التي يجب أن تتوفر للمدن الساحلية ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الامم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو . والسبب في ذلك أن المدينة اذا كانت حاضرة البحر ، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ، ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات ، وسهل طروقها في الاساطيل البحرية على عدوها »[1] . كذلك يشترط ابن خلدون في المدن الساحلية والموانىء أن تكون قريبة من نهر أو أن يكون بازائها عيون عذبة ، « فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء ، وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة »[2] ، والمرية كما نعرف تقع على مصب نهر صغير هو وادي بجانة ، « وكان من أفرج الاودية ، ضفتاه بالرياض كالعذارين حول الثغر »[3] ، وذكر المقري أن « طوله أربعون ميلا في مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وأنهار مطردة وطيور مغردة »[4] ، ويصفه ابن الخطيب بقوله : « النهر السيال ، والغصن المياد الميال ، والافياء والظلال ، المسلك ما فت في جنباته ، والسندس ما حاكته يد جناته ، نعمه واسعة ، ومساجده جامعة ، أزرت بالغوطتين زياتينه وأعنابه ، وسخرت

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٣ ص ٨٣٩ .
(٢) نفس المرجع ص ٨٣٨ .
(٣) المقري ، ج ٤ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
(٤) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

بشعب بوان شعائبه ... »[1] .

والى جانب هذه المزايا التي اختصت بها المرية ، كان خليجها شديد الاتساع والعمق ، يتسع لعدد كبير من السفن ، ويتميز هـذا الخليج بهدوء مياهه وقلة أمواجه ، وقد أشار اليه ابن دراج في قصيدة مدح بها خيران العامري في سنة ٤٠٧ هـ ، أولها :

لك الخير قد أوفى بعهد خيران وبشراك قد آواك عز وسلطان

ثم يصف خليج المرية عندما يتراءى للراكب من بعيد القصر القائم على الجبل فيقول :

متى تلحظوا قصر المرية تنزلوا ببحر ندى يمناه در ومرجان
وتستبدلوا من موج بحر شجاكم بموج لكم منه لجين وعقيان[2]

* * *

كانت قطع الاسطول الاندلسي قد زادت في عهد عبد الرحمن الناصر من ٢٠٠ قطعة الى ثلثمائة[3] ، ثم تضاعف عدد سفن هـذا الاسطول في بداية عصر الحكم المستنصر الى ستمائة جفن بين غزوي وغيره[4] . وكانت معظم وحدات الاسطول ترابط في القاعدة الرئيسية

---

(١) ابن الخطيب ، رسالة خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف ، نشرها الدكتور احمد مختار العبادي مع بعض رسائل اخرى في كتابه « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس » ، الاسكندرية ١٩٥٨ ص ٤٧ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، طبعة بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢١٢ — ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، دمشق ١٩٦١ ، ص ٩١ .

ونلاحظ ان الشاعر يشير بقوله « در ومرجان » الى سخاء خيران من جهة والى المرجان الذي يستخرج بساحل ببرة من عمل المرية من جهة ثانية (انظر المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٣٨) .

(٣) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ محمد عبدالله عنان ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٨٧ .

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٤٢ .

بالمرية لمواجهة الخطر الفاطمي ، في حين كانت إشبيلية مقرا للاسطول المرابط على سواحل المحيط لمواجهة الخطر النورمندي . ولقد عمل الحكم المستنصر منذ توليه الخلافة على تدعيم قاعدة المرية ، ففي سنة ٣٥٣ هـ انتقل بنفسه اليها لتوقعه غزوا فاطميا ، ولمعاينة ما استكمله بها من أعمال التحصينات ومشاهدة رابطة القبطة[1] .

وفي أول رجب سنة ٣٥٥ هـ وردت الاخبار بظهور سفن النورمان في مياه قصر أبي دانس ، واضطراب الساحل الغربي للاندلس كله لذلك، وتأهب المسلمون لتلقي الغزاة عندما وصل هؤلاء الى بسيط أشبونة ، ودارت بين النورمان والمسلمين معركة حامية استشهد فيها جماعة من المسلمين ، وانتهت المعركة بهزيمة نكراء مني بها النورمان ، واشترك أسطول إشبيلية في المعركة ، فاقتحم بحريو الاندلس على النورمان بوادي شلب وحطموا عددا من سفنهم وأطلقوا أسر من كان قد وقع من المسلمين أسيرا في أيديهم[2] . وانصرف النورمان بعد ذلك من ساحل الغرب ، في حين عاد الاسطول الاشبيلي الى قاعدته . ويبدو أن سفن النورمان كانت تمتاز بمزايا خاصة ، كالسرعة في الحركة ، مما دعا الخليفة المستنصر بالله الى اصدار الامر لابن فطيس بانشاء أسطول في إشبيلية على هيئة مراكب النورمان ، اذ كان يتوقع طروقهم من جديد لسواحل الغرب . وقد صح ما توقعه الخليفة ، فلم تكد تمضي خمس سنوات على معركة وادي شلب حتى جاءت الانباء بظهور سفن نورمانية في مياه الاندلس الغربية، ويروي ابن حيان أنه في «صدر رمضان (سنة ٣٦٠ هـ) منها وقع الارجاف بتحرك المجوس الاردمانيين (النورمان) ـ لعنهم الله ـ وظهورهم في البحر الشمالي ، وورمهم سواحل الاندلس الغربية على

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٥٣ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٦ .

عادتهم ، فانزعج السلطان لما سيق اليه خبرهم ، وعهد الى عبد الرحمن ابن رماحس قائد البحر وهو حاضر بقرطبة بالخروج الى المرية ، والتأهب[1] للركوب الى ناحية الغرب[2] . فنفذ لامره يوم الاثنين لست خلون من شهر رمضان المؤرخ . وأحضر الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري وكان حاضرا يومئذ بقرطبة ، فخصه بالتكلم معه فيما طرقه من خبر هذا العدو المرهوب جانبه ، وأهاب به له ، وحول اليه صائفة عامه الآزفة ، وقلده العود لهم ، والتهمم بها برا وبحرا لضلاعته وغنائه ، وعلمه بثقوب نظره ومحمود اكتفائه ، وحد لـه حدودا أمره بالتزامها ، والوقوف عليها ، وبسطه أتم بسط ، وقربه أفضل تقريب ، واستودعه الله عز وجل ، وأمره بالنهوض والاخذ في شأنه ، فودع وانطلق وهو يشيعه بدعائه ويسأل الله له وللمسلمين جميل صنعه وحسن عاقبته »[3] .

ونخرج من هذا النص بالحقائق الآتية :

١ ــ أن عبد الرحمن بن رماحس ورث أباه محمد بن رماحس في تولي الشرطة العليا وقيادة البحر كلها في الاندلس .

٢ ــ أن أساطيل الاندلس العامة كانت لها قاعدتان : واحدة في المرية للدفاع عن السواحل المطلة على البحر المتوسط ، والثانية في إشبيلية لحماية السواحل الغربية المطلة على المحيط الاطلسي .

٣ ــ أنـه كانت للاندلس أجهزة لمخابرة أولي الامـر في قرطبة

---

(١) ذكرها ابن عذارى كما يلي : « والتأهب لركوب الاسطول منها الى اشبيلية وجمع الاساطيل كلها للركوب الى ناحية الغرب » (ابن عذارى ج ٢ ص ٣٦٠) .

(٢) أورد ابن الخطيب رواية مخالفة لرواية ابن حيان ذكر فيها أن الخليفة تحرك الى المرية وقد حصر المجوس حصن القبطة، فأوقع بهم (ابن الخطيب، أعمال الاعلام ، ص ٤١ ، ٤٢) ولا تتفق هذه الرواية مع طبيعة الاحداث ولذلك نعتقد أنها رواية ملفقة .

(٣) ابن حيان ، المقتبس في أخبار بلد الاندلس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص ٢٤ .

وابلاغهم بتحركات النورمان فور دخولهم في مياه البحر الشمالي ، اما عن طريق عيون أو بفضل تحركات عدد من السفن السريعة .

٤ ــ أن غالب بن عبد الرحمن الناصري كان أكبر قواد الاندلس زمن الحكم المستنصر ، وكانت له خبرة بشؤون الحرب في البر والبحر ، ونستدل من نص آخر لابن حيان على أنه كان يقود الاساطيل الثقيلة[١] .

٥ ــ أن الخليفة الحكم المستنصر رسم مع غالب الخطة الحربية لمواجهة الغزوة النورمانية مما يقطع بمقدرة الحكم في التنظيم الحربي .

ويبدو أن النورمان نزلوا بساحل جليقية ، ودخلوا نهر دويرة ، ووصلوا حتى شنتبرية Santaver ، ولكنهم انهزموا وعادوا الى سفنهم[٢] ، فقد وصل الى قرطبة رسول من القومس غندشلب Gonzalo Menendez في ٢٥ رمضان سنة ٣٦٠ هـ بكتاب الى الخليفة يتضمن خبر نزول النورمان بجليقية وانصرافهم مهزومين ، ولعله كان يقصد من ذلك تنبيه الحكم المستنصر الى الخطر النورماني المقبل ، حتى يتأهب المسلمون لتلقي الغزاة ، وبذلك يكون غندشلب قد قدم خدمة جليلة الى الخليفة . والحقيقة أن الحكم كان يعلم مقدما بقدوم النورمان بعد أن ظهرت سفنهم في مياه البحر الشمالي .

ومع ذلك فقد واصل المستنصر استعداده لتلقي النورمان عند اقترابهم من السواحل الغربية للاندلس ، فأنفذ مباركا ومبشرا الفتيين الى كورة رية وشذونة لاشحان الاطعمة منها وارسالها الى الاسطول المجهز بإشبيلية الى ساحل الغرب ، وفي آخر رمضان تحرك عبد الرحمن ابن رماحس قائد أساطيل الاندلس من مرية بجانة ليركب منها الى البحر

---

(١) نفسه ، ص ٥٨ .
(٢) نفسه ، ص ٢٧ .

الشمالي الذي ظهرت فيه سفن النورمان[1] .

وما ان وصل ابن رماحس بأسطول المرية الى إشبيلية حتى بادر بجمع أسطول إشبيلية استعدادا للاقلاع لملاقاة النورمان بمجرد أن تصله الانباء بدخولهم المياه الاسلامية . ولكن الانباء وافته بعودة سفن النورمان الى بلادهم بعد أن تأكد لديهم استعداد المسلمين لحربهم وعزمهم على قصدهم . فاضطر الى الاقلاع من إشبيلية منصرفا بأسطول المرية في ٢٥ من ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ . وفي ذلك يقول ابن حيان : « وفي يوم الاثنين لاربع بقين من ذي القعدة منها وافى الخبر باقلاع صاحب الشرطة العليا قائد البحر عبد الرحمن بن محمد بن رماحس من مدينة إشبيلية بالاسطول منصرفا الى المرية ، عافا عن اجرائه الى جهة المجوس الظاهرين في البحر الشمالي ، اذ وردت الانباء وتوالت بهزيمتهم وهربهم بعد اقدامهم وتلجيجهم في البحر الشمالي ، لا يلوون على شيء بحسن دفاع الله عن المسلمين ، اذ اتصل بهم وصح لديهم صمد الخليفة المستنصر بالله لحربهم ، ونصبه التدبير عليهم ، وتجريده القائد الوزير غالب بن عبد الرحمن مدبر حروبه نحوهم وقصدهم في البر ، ونهوض القواد بالاساطيل الى ناحيتهم ، وتحريكه نحوهم الجنود الحسنة والاساطيل الثقيلة التي لم يجد أعداء الله عند سماعهم بها من نفوسهم معينا على التعرض لملاقاتها والانبساط في السواحل التي أحسوا بهم فيها ، فولوا على أعقابهم ناكصين ، ومما رجوه من انتهاز فرصة من المسلمين خائبين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا »[2] . وكما عاد أسطول المرية الى قاعدته ، عاد الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن من غزاته الى سواحل الغرب الى قرطبة بعد أن أحجم النورمان

---

(١) ابن حيان ، ص ٢٨ .

(٢) نفسه ، ص ٥٨ .

عـن ملاقاة المسلمين فوصل فحص السرادق مـن قرطبـة في ٢ صفر سنة ٣٦١ هـ[١] .

بعد هذه المحاولة النورمانية الفاشلة لغزو سواحل الاندلس ، اهتم المستنصر بالله بالاسطول الاندلسي اهتماما كبيرا ، فوزع وحداته على ثغور الاندلس ، حتى اذا ما أغار العدو على ساحل من سواحلها تصدى له أقرب الاساطيل الى الساحل المذكور ريثما يتم تجمع بقية الاساطيل ، وهي سياسة حكيمة تكشف لنا عن بعد نظر الخليفة وحسن فراسته ، وقد ثبت نجاح هذه السياسة عند هجوم النورمان على السواحل الغربية للاندلس . والواقع أن الاسطول الاندلسي ازداد زيادة كبيرة في أعداد قطعه في عهد الحكم المستنصر ، فارتفع هذا العدد من ثلاثمائة[٢] الى ستمائة جفن بين غزوي وغيره[٣] ، وأصبح من العسير أن تتجمع هذه القطع في ثغر المرية ، ولذلك استلزم الامر توزيعها على سواحل الاندلس لمواجهة أي هجوم مرتقب . وكان قائد البحر في عهد الخليفة الحكم المستنصر هو عبد الرحمن بن رماحس الذي ورد ذكـر اسمه عندما استنفره الخليفة لمواجهة النورمان ، وهو نفس القائد العام للاساطيل الاندلسية . وينتمي هذا القائد الى أسرة الرماحس بن عبـد العزيز الكناني ، وكان واليا على الجزيرة الخضراء في عهد الامير عبد الرحمن الداخل ، ثم ثار عليه ، فأرسل اليه الامير وزيره عبدالله بن خالد على رأس جيش ، فاضطر الى الفرار في مركب ، ولجـأ الى بلاط الخليفة العباسي[٤] . ولقد تدرج عبد الرحمن بن رماحس في مناصب البحرية ،

---

(١) ابن حيان ، ص ٦٦ .

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ص ٤٨٧ . وذكر ابن الخطيب انه شخص بنفسه الى المرية في رجب سنة ٣٥٣ هـ في جيش كثيف ونظر في أسطولها وجدده ، وكانت عدته ثلاثمائة قطعة .

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٤٢ .

(٤) اخبار مجموعة ، مدريد ١٨٦٧ ، ص ١١٢ ـ المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٨ .

وانتهى أمره بولاية كورة إلبيرة ، ثم قضى عليه ابن أبي عامر بأن دس له السم فمات في سنة ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م)[١] .

وفي خلافة هشام المؤيد داوم حاجبه المنصور محمد بن أبي عامر على الاهتمام بالاسطول الاندلسي ، واستخدم بعض وحدات هذا الاسطول في حملاته على ساحل قطلونية وجليقية سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٥ م)[٢] ، ٣٨٧ (٩٩٧ م) . وفي هذه السنة الاخيرة استخدم المنصور الاسطول الذي أنشأه بقصر أبي دانس من ساحل غرب الاندلس ، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين ، في عبور نهر دويرة بالبرتغال والتغلغل في مملكة جليقية[٣] .

وفي وصف الاسطول الذي أنشأه ابن أبي عامر يقول الشاعر ابن دراج القسطلي :

تحمل منه البحر بحرا من القنا	يروع بها أمواجه ويهول
بكل ممالات الشراع كأنها	وقد حملت أسد الحقائق غيل
اذا سابقت شأو الرياح تخيلت	خيولا مدى فرسانهن خيول[٤]

* * *

وبعد أن سقطت الخلافة الاموية اقتسم ملوك الطوائف في بطليوس وإشبيلية والمرية ودانية وبلنسية الاسطول الاندلسي فيما بينهم[٥] . وظلت المرية تحتل المركز الاول بين قواعد الاسطول الاندلسي في عصر

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. III, P. 109.
(٢) Ibid. t. II, P. 238, t. III, P. 108.
(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٦٧ — المقري ، ج ١ ص ٣٩١ .
(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ .
(٥) Henri Pérès, La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle, Paris, 1937, P. 214.

الطوائف ، لكثرة عدد سفنها ونشاط دار صنعتها في الانتاج ، وخاصة في عصر المعتصم بن صمادح ، فقد حرص المعتصم على انشاء أسطول كبير يرابط في خليج حاضرته ، وكان كل غايته العناية بأسطوله[1] . وكان هذا الاسطول يتألف من عدد كبير من الجواري والفلك[2] والاجفان[3] .

وقد وصف الشاعر ابن الحداد أسطول المعتصم بن صمادح فقال :

هام صرف الردى بهام الاعادي	ان سمت نحوهم لها أجياد
وتراءت بشرعها كعيون	دأبها مثل خائفيها سهاد
ذات هدب من المجاذيف حاك	هدب باك لدمعه اسعاد
حمم فوقها من البيض نار	كل من أرسلت عليه رماد
ومن الخط في يدي كل در	ألف خطها على البحر صاد[4]

غير أن هذا الاسطول لم يلبث أن أحرقت معظم قطعه على يدي معز الدولة بن المعتصم ، عندما تغلب المرابطون على المرية . فقد « أمر معز الدولة رجاله بنقب السور خارج باب موسى الى دار الصنعة ، وركب بمن اختص به في قطعة ، وحمل المال والمتاع في ثنتين ، وأحرق باقي الاجفان خشية الاتباع ، فأمن عاديتها »[5] . ثم عبر البحر بأهله وولده الى جزائر بني مزغنا ، ونزل في كنف المنصور بن علناس[6] .

وفي عصر المرابطين اشتهرت المرية كقاعدة بحرية مرابطية في الاندلس ، فقد أولى المرابطون الاساطيل عناية كبيرة ، واصطنعوا

---

(١) ذكر الفتح ان المعتصم « اشتغل بترميق اساطيله » (قلائد العقيان ، ص ٤٨) .
(٢) يقول الفتح بن خاقان انه « لم يرد على مراعاة امر جواريه وفلكه » (ص ٤٨) .
والجواري هي السفن السريعة .
(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٩٢ .
(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٩٨ .
(٥) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
(٦) احمد مختار العبادي ، تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، نصان جديدان ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد ١٣ ، ١٩٦٦ ، ص ١٠٥

البحريين الاندلسيين ، واستعانوا بالخبراء والفنيين في الصناعة البحرية والانشاء ، وبذلك تهيأ المجال أمام المرابطين للسيطرة البحرية في البحر الابيض المتوسط • ولم يكن للمرابطين قبل عبورهم المجاز الى الاندلس أسطول قائم بذاته ، فقد كان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية قد وجه اليهم من حاضرته أسطولا ينقلهم[1] الى ساحل الجزيرة الخضراء • ومنذ ذلك الحين حرص يوسف بن تاشفين على انشاء أسطول مرابطي يليق بدولته• ولم يشرع المرابطون في انشاء أسطولهم الحربي الكبير الا بعد أن سقطت المرية في أيديهم ، فاستخدموا دار صناعتها في بناء السفن • ولما استولى سير بن أبي بكر على إشبيلية حمل المعتمد وأهله في الجواري الاشبيلية الى أغمات • وليس معنى ذلك أن المرابطين لم يكن لهم أسطول خاص بهم قبل دخولهم الاندلس ، فليس من شك في أن دور الصناعة في المغرب أنتجت لهم عددا من السفن ، والواقع أنهم بدأوا يبنون أسطولهم في عهد يوسف بن تاشفين وهو بعد أمير على المغرب ، ويرجح الدكتور حسن محمود أن النواة الاولى لاسطول المرابطين الجديد اشتركت في حصار سبتة[2] وانتزاعها من سقوت البرغواطي ، وأن انتصار يوسف في هذه الموقعة حفزه على مضاعفة الاهتمام بالبحرية •

وكان عيسى بن ميمون أمير البحر في أواخر أيام يوسف بن تاشفين ، وقد ورث أبناؤه وأحفاده هذا المنصب الكبير طوال عصر المرابطين • واستقر منهم أبو عبدالله محمد بن ميمون في مدينة المرية ، وكان صاحب البحر في أواخر عصر المرابطين • وكان محمد بن ميمون متمسكا بدعوة المرابطين ، وظل على ولائه لهم ، فلما دانت المرية للموحدين ، وأقام هؤلاء بها عاملا من قبلهم اسمه ابن مخلوف ، خلع

(١) الحميري ، ص ٨٧ ـ المقري ، ج ٦ ص ٩٢ •

(٢) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣٩٢ •

راجع أيضا : Joaquin Vallvé Bermejo, Suqut al-Bargawati, rey de Centa, al-Andalus, vol. XXVIII, fasc. 1, Madrid, 1963, PP. 171-209.

أهل المرية طاعة الموحدين ، وعرضوا على ابن ميمون الرئاسة ، فرفضها ، وقال : « انما أنا رجل منكم ، ووظيفتي البحر وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيري »[1]، فولوا عليهم أبا يحيى ابن الرميمي[2]. والى محمد بن ميمون يرجع الفضل الاول في قيام بني غانية بميورقة ، فهو الذي ألحق عبدالله ابن غانية على ميورقة[3] . ويبدو أن ابن ميمون دخل في خدمة الموحدين بعد ذلك ، بعد أن رأى عيسى بن ميمون صاحب قادس يعلن ولاءه للموحدين ويصبح بذلك أول من يعترف بهم من أمراء الاندلس . والى ابن ميمون يشير الشقندي في رسالته بقوله : « وفيها (أي في المرية) كان ابن ميمون القائد الذي قهر النصارى في البحر ، وقطع سفرهم ، وضرب على بلاد الرمانية ، فقتل وسبي وملأ صدور أهلها رعبا »[4] .

وفي عصر الموحدين تضخم الاسطول الاندلسي بسفنه المختلفة من طرائد وشواني وأغربة ، وكانت إشبيلية والمرية ومالقة وجبل الفتح القواعد الرئيسية لهذا الاسطول الموحدي ، وبفضل هذا الاسطول الكبير تمكن محمد الناصر بن يعقوب المنصور من غزو جزيرة ميورقة والقضاء على قوات عبدالله بن اسحق بن غانية في سنة ٥٩٩ هـ . وكان هذا الاسطول يتألف من ثلاثمائة جفن : منها سبعون غرابا ، وثلاثون طريدة ، وخمسون مركبا كبارا ، وسائرها قوارب منوعة[5]. وكان قائد

---

(١) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٢١٠ .

(٢) المقري ، ج ٦ ، ص ٢٠٦ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥٦ .

(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ —

al-Saqundi, Elogio del Islam espanol,
trad. de Emilio Garcia Gomez, Madrid, 1934, P. 113.

(٥) الحميري ، ص ١٨٩ .

هذا الاسطول هو أبو العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن[1] .

وظلت دار صناعة الاسطول بالمرية في أتم نشاطها حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي تقريبا على الاقل ، وهو الوقت الذي كتب فيه ابن فضل‌الله العمري ، فقد ذكر أن بالمرية دار صناعة الاسطول الذي يخرج منها الى غزو الفرنج[2] . ويغلب على الظن أنها استمرت في انتاج السفن والاجفان الحربية في عصر دولة بني الاحمر ملوك غرناطة حتى سقوط المرية في يد سان فرناندو سنة ١٤٩٠ م .

ويصف ابن الخطيب ثغر المرية والسفن المتراصة في المرسى في استقبال السلطان أبي الحجاج يوسف بن نصر أثناء زيارته لها في المحرم سنة ٧٤٨ هـ فيقول : « وطلعت في سماء البحر أهلة الشواني ، كأنها حواجب الغواني ، حالكة الاديم ، متسربلة بالليل البهيم ، تتزاحم وفودها على الشط كما تتدخل النونات في الخط »[3] . ويمتدح ابن الخطيب مدينة المرية في رسالته المسماة معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار ، فيذكر أنها حبوة الاسطول ، ومحط التجار ، وأن بحرها مرفأ للسفن الكبار[4] .

وكانت دار صناعة الاسطول بالمرية تقع وفقا لما ذكره أسقف نبيو (١٤٧٠ — ١٥٣٦) بالقرب من باب البحر ، وكانت تتسع لعدد كبير من السفن ، وكانت آثار هذه الدار ما تزال ظاهرة في أيامه . وما زال الشارع الذي كانت تقوم فيه هذه الدار يعرف اليوم باسم شارع دار

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٣١٤ — الحميري ، ص ١٨٩ .

(٢) ابن فضل‌الله العمري ، مسالك الابصار في ممالك الامصار ، ترجمة جودفروا ديمومبين ، باريس ١٩٢٧ ، ص ٢٣٩ .

(٣) ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، رسالة خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف ، ص ٤٤ .

(٤) ابن الخطيب ، نفس المصدر ، رسالة معيار الاختبار ، ص ٨٣ — ٨٤ .

الصناعة ، وكان يحتفظ حتـــى طليعة القرن التاسع عشر ببلاطة طولها يتجاوز مائة متر ، وعرضها ١٥ مترا ، وارتفاعها ثلاثون مترا[1] .

* * *

(1) Torres Balbas, Atarazanas hispanomusulmanas, al-Andalus, Vol. XI, P. 187.

الفصل الثاني

تاريخ المرية في العصر الاسلامي

(١) العصر الذهبي للمرية (عصر الطوائف)

أ ــ المرية في ظل خيران وزهير العامريين

ب ــ المرية في ظل بني صمادح

(٢) مرحلة التبعية (منذ دخول المرابطين الاندلس حتى سقوط المرية في أيد القشتاليين سنة ١٤٩٠ م)

أ ــ نهاية عصر ملوك الطوائف

ب ــ المرية في ظل المرابطين

ج ــ استرجاع الموحدين للمرية

د ــ اضمحلال المرية في عصر دولتي الموحدين وبني نصر

الفصل الثاني

تاريخ المرية في العصر الاسلامي

(١)

العصر الذهبي للمرية (عصر الطوائف)

رأينا فيما سبق كيف نشأت المرية في عصر الخلافة الاموية ، وكيف أصبحت قاعدة الاسطول الاسلامي في الاندلس في هذا العصر ، ورأينا أيضا كيف ازدهر عمرانها وأمها الناس من كل مكان ، إما طلبا للرزق وسعيا للتجارة ، وإما فرارا من الفتن التي شملت الاندلس في العصر السابق على الخلافة الاموية ، وكيف أصبحت على حد قول ابن سعيد المغربي باب الشرق ومفتاح الرزق[١] . الا أن المرية لـم تصبح بحق مدينة من مدن الاندلس الهامة وقاعدة من قواعده الرئيسية الا في القرن الخامس الهجري في ظل خيران وزهير العامريين ، وأصبحت في عهد المعتصم بن صمادح حاضرة كبرى تنافس إشبيلية مقر مملكة المعتمد ابن عباد[٢] .

لقد تفككت الوحدة السياسية في الاندلس على أثر سقوط الدولة العامرية ، وانهيار سلطان الخلافة الاموية ، وكان من نتائج ذلك اشتعال نار الفتنة البربرية وقيام دويلات الطوائف المتنازعة فيما بينها . فبينما كانت الفتنة تجتاح قرطبة حاضرة الخلافة ، وبينما كان النزاع قد بلغ ذروته فيها بين الحموديين والمروانيين للظفر بالخلافة ، كان بعض رؤساء

---

(١) ابن سعيد نقلا عن الرازي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ١٩٣ — ابن غالب ، فرحة الانفس ، ص ١٤ .

(٢) Henri Pérès, op. cit. P. 142.

الاندلس وقادتها يعلنون انفصالهم في مختلف أنحاء البلاد عن السلطة المركزية التي فقدت ظلها على الاقاليم منذ قيام الفتنة • وكان من الطبيعي وقد انهار سلطان الخلافة ، واختل ميزان الامن والنظام في البلاد ، وضاعت هيبة الخلفاء بسبب تهافتهم على الخلافة ، وترامیهم على أعتابها ، وبسبب مؤامراتهم الدنيئة للاطاحة بمن سبقهم في الظفر بها ، واعتمادهم في كل ذلك على الاشرار والفاسدين من أهل قرطبة وسفلة القوم وأراذلهم ، أن ينتهي الامر بالفرقة بعد الجماعة ، وينتزى الرؤساء والقواد والولاة على اختلاف أجناسهم في سائر أنحاء الاندلس ، ويقتسموا خططها ، ويستبد كل منهم بتدبير ما تغلب عليه من النواحي ، وينتحل لنفسه لقبا ملوكيا • فاختص البربر بالجنوب كله ، بينما انفرد الصقالبة العامريون بشرق الاندلس ، أما البلديون من أهل الاندلس سواء كانوا من العرب أم البربر أم من أصول اسبانية تعربت بمرور الزمان ، فقد أقاموا أربع دويلات هي : مملكة سرقسطة ، ومملكة طليطلة ، ومملكة بطليوس ، ومملكة إشبيلية • ويهمنا من ذلك كله أن نبحث في مصير المرية موضوع الدراسة •

أ ــ المرية في ظل خيران وزهير العامريين :

انهارت دعائم الدولة العامرية بعد قيام المروانية بالثورة التي أطاحت بعبد الرحمن شنجول بن المنصور ، وانتهت باسترجاع الحزب الاموي لسلطاته القديمة ، ولكن هذه الثورة كانت شرا وبيلا على الاندلس ، فقد حركت جميع طبقات المجتمع الاندلسي ورؤساء البربر والصقالبة ، وسرعان ما تحولت هذه الثورة الى حرب أهلية عاتية[1] •

---

(1) Mariano Gaspar Remiro, Murcia musulmana, Zaragoza, 1905, P. 90 — Prieto y vives, Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926, P. 14.

وكان انتصار البربر ، وهم القوة التي اعتمد عليها سليمان المستعين في التغلب على غريمه محمد بن هشام الملقب بالمهدي وأنصاره من أهـل الاندلس في سنة ٤٠٣ هـ بداية للفتنة ، « وسببا في تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف »[١] ، وبهذا الانتصار البربري غلب البربر على دولة سليمان المستعين ، مما حمل الفتيان العامريون على تكوين دويلات لهم في شرق الاندلس[٢] .

وكان يلي المرية قبل اشتعال نار الفتنة عدد من الولاة منهم ابن مسلمة، والقاسم بن القاسم بن عبد الرحمن ، وابن حدير ، وابن فرحون ، وابن صاعد ، وعبد الرحمن بن رويش ، وقد تولاها هذا الاخير هي وبجانة وأعمالهما في سنة ٤٠٠ هـ ، ووليها معه أفلح العبد ، ثـم دب الخلاف بينهما ، فتقاتلا ، وتحصن أفلح في قصبة المرية ، بينما امتنع عبد الرحمن في مدينتها . ثم خرج عبد الرحمن من المرية وعاد اليها ومعه قوة من البربر ، وبالرغم من ذلك رجحت كفة أفلح ونجح في القضاء على غريمه ، وخلا الجو له ، فأشرك معه في الولاية ابن حامد الى أن تنازع معه[٣] .

وكان خيرأن العامري أحـد الفتيان العامريين[٤] الذين كانـوا بالحضرة (قرطبة) بعد استيلاء سليمان المستعين عليها . وكان أحد من تخطته المتالف في تلك الآونة ، وأنجاه هروبه من قرطبة ، بينما قتـل

---

(١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، القسم الاول، المجلد الاول، ص ٢٥ .

(٢) خضعت دانية والجزائر الشرقية لمجاهد ، وخضعت شاطبة لنبيل ، وبلنسية لمبارك والمظفر ثم للبيب ، وخضعت مرسية لواصل ثم لخيران ، وطرطوشة للبيب ، والمرية لافلح ثم لخيران ثم لزهير .

(٣) العذري ، ص ٨٦ .

(٤) بلغ عدد كبار الفتيان الصقالبة بعد وفاة عبد الملك ستة وعشرين فتى ، عرفوا بالخلفاء ، من مشاهيرهم واضح وبشير ونظيف ونجاء وشعلة ومظفر ومجاهد وزهير وخيران ونصر ونصير وطرفة وشفيع ويمن وبشرى وبليق وكوثر وخلف وجعفر (ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٠٤) .

أصحابه ممن تمكن البربر من القبض عليهم • واستقر خيران مع أصحابه في قلعة أوريولة من كورة تدمير في سنة ٤٠٤ هـ ، وكانت أوريولة يومئذ مثلا في الحصانة والمنعة[١] ، وأقبل اليه الانتهازيون والطامعون من الصعالكة ، فاشتد بهم ساعده ، وتمكن من الاستيلاء على مرسية ثم على جيان[٢] • وفي غرة المحرم سنة ٤٠٥ هـ تمكن خيران من التغلب على المرية معقل الاندلس[٣] • وكان أفلح الصقلبي كما رأينا قد سبقه في الاستيلاء عليها بعد قيام الفتنة ، وكان أفلح هذا رجلا جلفا « شديد العتو والجهالة ، مفرط النخوة ، لا يحسن التفرد والاستقلال بنفسه ، قد ذهب به العجب كل مذهب ، ورأى لنفسه الفضل على سائر جنسه بالشيخوخة وقديم الملكة ، فاستهان بالناس »[٤] •

نجح خيران في دخول المرية ، وضيق الحصار على أفلح وابنيه بقصبتها ، حتى هدم برج البير ، وتغلب على القصبة ، وقتل أفلح وولديه[٥] ، وغنم ما ظفر به في القصر من مال وعدة ، وأمن أهل المرية ، واتخذ هذه المدينة مقرا له ، بينما ولى أوريولة ومرسية بعض أتباعه ، وقد طبق خيران مع أهل المرية سياسة قوامها العدل والانصاف ، وحسنت سيرته ، وكان الفضل الاول في هذه السياسة يرجع الى وزيره أبي جعفر أحمد بن عباس بن أبي زكرياء ، وكان معروفا برجاحة العقل والدهاء •

وعمل خيران على تحصين المرية ، وسد عوراتها ، فحصن قصبتها التي كان قد أقامها الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فنسبت اليه بعد ذلك ،

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢١١ •

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٤ ص ١٦٢ • ويذكر ابن خلدون انه دخل مرسية في سنة ٤٠٧ هـ ، والثابت انه دخلها في سنة ٤٠٤ هـ •

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢١١ •

(٤) نفس المصدر ، ص ٢١١ •

(٥) العذري ، ص ٨٣ •

ودعم أسوار المرية التي كان قد أنشأها الخليفة المذكور نفسه . وخيران أيضا هو الذي « أوصل اليها الماء وبنى الحمة العجيبة ، وفي أيامه بلغت من العمارة والقوة وفشو الصنائع ما هو مشهور ، وكان مذهبه في الجود قصدا ، لم يشتهر بكرم ولا وسم بلوم »(١) . وينسب الى خيران السور الهابط من جبل ليهم أو جبل لاهم الى البحر ، وهو سور الربض الشرقي والغربي المتصل بسور المدينة(٢) ، وفتح في هذا السور أربعة أبواب وهي : باب في جبل ليهم وباب يخرج منه الى بجانة ، وباب يعرف بباب المرسى ، وباب قرب ضفة البحر يعرف بباب السودان وكان يسمى في زمن العذري بباب الاسد(٣) .

كذلك اهتم خيران بالزيادة في جامع المرية وتوسعته ، فأضاف في قبلته سنة ٤١٦ هـ زيادة اتسع لها الجامع .

وعرف خيران بالدهاء والشجاعة وحسن التدبير ، وقد تجلت هذه الصفات جميعا في حروبه مع جيرانه من المتنزين والثوار ، فقد رأينا كيف فر العامريون الى شرق الاندلس بعد دخول المستعين في قرطبة في شوال سنة ٤٠٣ هـ ، ومحاولته القضاء عليهم ، فامتلأت قلوبهم بكراهية المستعين وأتباعه البربر ، وأضمروا الكيد للبربر ، وعملوا على تكوين جبهة أندلسية لمواجهة البربر الطارئين الذين استبدوا بالبلاد ، وانضم الى هذه الجبهة زعماء العرب والصقالبة والبربر البلديون . وبدأ خيران وفريق العامرية يبحثون عن سلاح يشهرونه في وجه المستعين ، فلم يجدوا أصلح لهذا الغرض من علي بن حمود الذي ينتسب الى الاشراف الادارسة ، فأيدوه وحرضوه على الخروج على سليمان . وكان خيران

(١) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢١٢ .
(٢) العذري ، ص ٨٣ ، ٨٦ .
(٣) نفس المصدر .

في هذه الاثناء يكاتب رؤساء الاندلس الجنوبي ويحرضهم على خلع سليمان والخروج على طاعته ، فأيده في ذلك جماعة ، منهم عامر بن فتوح بمالقة ، وكان وزيرا للمؤيد[1] . فلما تم لخيران تأليب أهل الاندلس على سليمان كتب الى علي بن حمود يطلب منه العبور اليهم . ولم يتردد علي بن حمود في العبور من سبتة ، وتم له ذلك في سنة ٤٠٥ هـ اذ جاز الى مالقة ، فسلمها اليه عامر بن فتوح ، ودعا له بولاية العهد ، وفي نفس الوقت خرج خيران العامري ومن أجابه الى دعوته من المرية الى مالقة ، والتقى مع علي بن حمود وقواته بالمنكب في سنة ٤٠٦ هـ[2] . ثم تأهب الطرفان المتحالفان للسير نحو غرناطة لضم حبوس الصنهاجي اليهم ، ومن غرناطة زحفت قوات علي بن حمود وخيران بعد أن انضم اليها جيش حبوس ، نحو قرطبة . ولم يكن ميزان القوى بين سليمان وخصومه متكافئا بأي حال من الاحوال ، فقد خرج سليمان على رأس جيش من البربر لم تلتق أهدافه ، وكان العدد الاعظم منهم يؤثر عليه عليا بن حمود ، لكونه عربيا متبربرا من سلالة الاشراف ، ثم انه كان قد بلغهم أن المستعين ينوي بهم شرا . واشتبك الفريقان المتخاصمان في معركة حامية دارت في موضع يبعد عن قرطبة بنحو عشرة فراسخ[3] في شهر المحرم سنة ٤٠٧ هـ . فاعصوصب البربر على سليمان وأصحابه من أهل قرطبة[4] ، ودارت الدائرة على سليمان وانهزم هزيمة نكراء ، وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه ، وسيقوا أسارى الى علي بن حمود ، فأمر

---

(١) ابـن الاثير ، الكامل في التاريـخ ، ط. مصر سنة ١٣٥٣ هـ ، ج ٧ ص ٢٨٤ — Mariano Gaspar Remiro, op. cit. P. 93.

(٢) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥ . ويذكر ابن بسام نقلا عن ابن حيان ان عليا اجتمع مع خيران وغيره من الفتيان في مدينة المرية (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ، أ مجلد ١ ص ٢٨) .

(٣) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٥ .

(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٤٠٦ .

بضرب أعناقهم . أما خيران فقد دخل قصر قرطبة في رفقة أصحابه طمعا في أن يجد هشاما المؤيد حيا ، ولكنهم لم يعثروا له على أثر ، وقيل لهم أنه قتل وعرض عليهم قبره ، فأمر خيران بنبشه ، فأخرجت الجثة ، وأجمع بعض الشهود على أنها لهشام المؤيد ، ثم بويع لعلي بن حمود بالاجماع .

أما خيران فقد أظهر الخلاف عليه لاسباب ذكر ابن الاثير منها أنه كان طامعا في أن يجد هشاما حيا ، فلما وجده ميتا ، آثر العودة الى بلده ، ومنها أنه نقل اليه أن عليا بن حمود يسعى الى قتله ، فرحل من قرطبة بعد أن أعلن خروجه على علي بن حمود .

وما كاد يعود الى المرية حتى بدأ يدبر المكائد لابن حمود ، فبايع أحد أعقاب بني أمية ويدعى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بالخلافة ، وتلقب عبد الرحمن المذكور بالمرتضى ، واستخدم خيران دهاءه في اقناع ملوك الطوائف بشرق الاندلس والثغر الاعلى بأحقية المرتضى في الخلافة ، فأصفق على مبايعته منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة والثغر الاعلى ، كما بايعه أهل شاطبة وبلنسية وطرطوشة والبونت[1] . وهنا نلمح اجتماع الحزب الاندلسي أو العصبية الاندلسية على القضاء على العصبية البربرية . وبفضل خيران أيضا تمكن المرتضى من تأليف جيش خرج على رأسه نحو غرناطة لمواجهة زاوي بن زيري الصنهاجي حليف علي بن حمود . ولكن بينما كان علي بن حمود يتأهب للسير نحو جيوش الاندلسيين ، قتله ثلاثة فتيان من صقالبة بني مروان هم: منجح ولبيب وعجيب، في حمامه في غرة ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ ، بعد أن أسخطهم عليه تعصبه لبني قومه . هذا

---

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٥ — ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٣٠ .

الحادث في حد ذاته يدل على تكتل العناصر الاندلسية وتعصبها على العناصر البربرية .

ثم ظفر القاسم بن حمود بالخلافة بعد مصرع أخيه علي ، وعمل على تدعيم قوته الحربية بعناصر جديدة ، فاقتنى عددا كبيرا من السودان أتباعهم ، وقودهم على أعماله ، فأساء بذلك الى زعماء البربر ، فأخذوا ينحرفون عنه ويميلون الى ابن أخيه يحيى بن علي(١) . فأخذ القاسم يكاتب منذر بن يحيى التجيبي في السر يبثه شأنهم ، ويستنهضه لتقويمهم(٢) ، كما كاتب العامريين واستمالهم ، وأقطع زهيرا العامري نائب خيران على مرسية/جيان وقلعة رباح وبياسة ، وكاتب خيران واستعطفه ، فلجأ اليه ، واجتمع به(٣) . ويبدو أن هذه السياسة الجديدة التي اتبعها القاسم حولت خيران والحزب العامري عن تعضيد الحزب المرواني خاصة وأن المرتضى كان قد أظهر الجفاء لمنذر ولخيران ، فندما على تأييدهما له(٤) ، وأضمر الكيد له وخذلانه في معركته المقبلة مع البربر المتغلبين في قرطبة وأعمالها(٥) .

خرج المرتضى على رأس جيش كثيف من الموالي العامريين ، وصحبه في جملة من جاء معه منذر التجيبي وخيران وعدد من فرسان الفرنجة ، فعمد خيران وصاحبه منذر الى استدراج المرتضى الى غرناطة بحجة أنه لا يمكنه غزو قرطبة قبل أن يسبق ذلك بالقضاء على العدو

---

(١) ابن بسام ، قسم أول ، مجلد ٢ ، ص ١٣ ــ المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٥) يعلل ابن بسام سبب غدر خيران ومنذر بالمرتضى بأنهما طلبا منه أن يخرج مبارك صاحب بلنسية معهم في غزو قرطبة ، فلم يجبهما المرتضى الى ذلك ، واقر مبارك على التخلف لجمع الاموال ، فحقد خيران ومنذر عليه ، وتظاهرا على الغدر به (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ مجلد ١ ص ٤٠٠) .

المتربص بهم في غرناطة ، فاقتنع المرتضى بذلك . وكان خيران ومنذر قد اتفقا مع زاوي على الغدر بالمرتضى بعد أن فسدت نيتهما على مناصرته[1] . ويؤكد ذلك ما ذكره ابن بسام اذ قال أنهما « دسا الى زاوي وأسرا عليه بالغدر بالمرتضى »[2] . فلما اشتبك جيش المرتضى مع جيش غرناطة في آخر سنة ٤٠٩ هـ ، تراجع أصحاب المرتضى عند أول لقاء ، وتفرقوا عنه . ولما رأى المرتضى نذر الهزيمة ، فر بنفسه ، فوضع عليه خيران عيونا قبضوا عليه ، وقتلوه قريبا من وادي آش .

ثم تدخل خيران العامري ومجاهد في الاحداث السياسية بقرطبة مرة ثانية ، فقدمت جيوشهما اليها ، وكان يحكمها من قبل يحيى بن حمود عبد الرحمن بن عطاف اليفرني[3] . ولما علم أهل قرطبة بقدومهما ، وكانوا يبغضون البربر ، وجدوا في ذلك فرصتهم المواتية للتخلص من الحكم البربري البغيض ، الذي ورطهم فيه بعض المفسدين منهم ، فوثب أهل قرطبة على من كان في المدينة من البربر في ٢٠ ربيع الاول سنة ٤١٧ هـ ، فقتلوا منهم ما يقرب من ألف رجل ، ودخلت جيوش خيران ومجاهد قرطبة ، وأقام خيران ومجاهد بها ما يقرب من شهر ثم اختلفا فيما بينهما ، وبدأ كل منهما يشك في نية صاحبه نحوه ، فانسحب خيران الى المرية في أواخر ربيع الآخر سنة ٤١٧ هـ . أما مجاهد فقد أقام بقرطبة بعض الوقت ثم غادرها الى عاصمته دانية[4] .

ولم يكن نفوذ خيران العامري قاصرا على قرطبة فحسب ، بل امتد الى شرق الاندلس . ويذكر بعض مؤرخي العرب أن الفتيان العامرية المنتزين بشرق الاندلس قد أسندوا أمرهم الى مشيخة منهم ، وتشاوروا

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٣٠ .
(٢) ابن بسام ، ج ١ مجلد ١ ص ٤٠٠ — المقري ، ج ٢ ، ص ٣٠ .
(٣) ابن الاثير ، ص ٢٨٨ — المراكشي ، المعجب ، ص ٥٢ — المقري ، ج ١ ، ص ٤٠٨
(٤) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٨٨ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٤٥ .

في ارتقاء أمير من أنفسهم يعترفون له ، فاتفقوا على عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول بن المنصور وبايعوه ، وتلقب عبد العزيز بالمنصور لقب جده ابن أبي عامر ، وأطلق عليه مؤرخو العرب اسم المنصور الصغير تمييزا له عن جده[1] ، وتم اختيار العامريين للمنصور في مدينة شاطبة • وحدث أن خيران انتقض على المنصور ، وسار من المرية الى مرسية حيث أعلن فيها قيام حفيد آخر لابن أبي عامر هو أبو عامر محمد بن المظفر عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر ، وذلك عندما نازعه الموفق مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية وضيق عليه ، وعجز خيران عن مقاومته[2] • وكان أبو عامر هذا مقيما يومئذ بقرطبة وقد ضاق بأعمال العنف التي قام بها القاسم بن حمود ، ففر من قصره بقرطبة بأموال كثيرة ، ولجأ الى خيران ، فأقامه على مرسية على نحو ما ذكرناه ، ولقبه بالمعتصم • ثم ان خيران اختلف مع المعتصم ، وخاف على نفسه منه ، ففر الى المرية واحتلها في ١٤ ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ ، ثم خرج من المرية الى مرسية ليخرج عنها المعتصم ، ونجح في ذلك في سنة ٤١٣ هـ ، وفعل خيران في أوريولة ما فعله في مرسية[3] • ولما علم المعتصم أنه لا طاقة له بخيران لحق بمجاهد ، فأقام عنده فترة من الوقت ، ثم انتقل من هناك الى غرب الاندلس ،فاستقر بحصن دارة ، وتوفى به في سنة ٤٢١ هـ •

---

(١) ابن خلدون ، ص ١٦٢ — Mariano Gaspar, op. cit., P. 98

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٩٤ • وذكر ابن حزم أن مجاهد جمع الجيوش والاسطول « ونابذ خيران صاحب المرية وعزم على استئصاله ، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب ، وتحوميت السبل ، واحترس البحر بالاساطيل » (ابن حزم ، كتاب طوق الحمامة ، تحقيق ليون برشيه ، الجزائر ١٩٤٩ ، ص ٢٢٠ — كيليا سارنللي تشركوا ، مجاهد العامري ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٦٤) •

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٩٤ — ابن خلدون ، ص ١٦٢ •

ازدهرت المرية في عهد خيران ازدهارا عظيما ، وأصبحت من أهم مدن الاندلس في ذلك العصر ، وقد أشرنا من قبل الى أعماله العمرانية الكثيرة في المرية ، والى الحمامات المعروفة بالحمة التي أقامها في تلك المدينة . ويرجح الاستاذ بيريس أن الآبار التي عرفت بها المرية والتي ما زالت أطلالها ترى حتى يومنا هـذا ترجع الى أيامه[1] . وكان عصر خيران عصر ارتقاء وازدهار في الحياة الادبية ، فقد قصده بعض أدباء الاندلس المشهورين المبرزين وعلى رأسهم أحمد بـن عباس الكاتب ، فاستوزره خيران ، وكان ابن عباس هذا « غزير الادب ، قوي المعرفة ، شارعا في الفقه ، مشاركا في العلوم ، مقتبسا للشعر من غير طبع فيه ، حاضر الجواب ، ذكي الخاطر ، جامعا للادوات الملوكية ، جميل الوجه ، حسن الخلقة ، كلفا بالادب ، مؤثرا له على سائر لذاته »[2] . كذلك قصده الشاعر الاندلسي الكبير أحمد بن دراج القسطلي ، وأقام في بلاطه فترة من الوقت قبل أن يلقي عصا سيره بسرقسطة قاعدة منذر بن يحيى التجيبي . وقد مدح ابن دراج خيران العامري قبل أن يرحل من المرية الى سرقسطة في سنة ٤٠٧ هـ ، بقصيدة منها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران وبشراك قـد وافاك عـز وسلطان
اليك شحنا الفلك تهوى كأنهـا وقد ذعرت من مغرب الشمس غربان
على لجج خضر اذا هبت الصبا ترامى بنـا فيهـا ثبير وثهلان[3]

ومن مآثر خيران حمايته للقاضي القرطبي الزاهد أبو عمر محمد بن محمد بن عفيف بن مريول صاحب كتاب أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة ،

---

(1) Henri Pérès, op. cit. P. 142

(٢) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ١٧٥ .

(٣) نفس المصدر ، قسم ١ ، مجلد ١ ، ص ٧٤ — ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

وعاش ابن عفيف في المرية ، ثم تولى القضاء بلورقة حتى توفي في سنة ٤٢٠ هـ[١] .

ثم مرض خيران في سنة ٤١٩ ، وطال مرضه شهورا ، وتوفي في ٣ من جمادى الاولى سنة ٤١٩ هـ . وما ان توفي خيران حتى عقد وزيره أحمد بن عباس بن أبي زكريا اجتماعا دعا فيه جلة أهل المرية وأهل العقد والحل ، وأشار عليهم بتقديم زهير العامري ، صاحب خيران ، لعلو همته ، وسداد مذهبه ، ودهائه . وكان خيران قد استقدمه وهو أمير بمرسية من قبله ، ورشحه ليخلفه من بعده . فرضي الناس بامارة زهير ، وتمت ولايته على المرية وما يليها في ٣ من جمادى الاولى سنة ٤١٩ هـ[٢] . وسار زهير على نهج صاحبه خيران ، وكانت له بالمرية آثار جليلة ، فهو الذي أزاد في المسجد الجامع بالمرية زيادته الكبيرة من جهاته الثلاثة : الشمالية والشرقية والغربية ، وهو الذي بنى السور الواقع بساحل ربض المصلي[٣] . وكان زهير ، بالاضافة الى اصلاحاته ، يشاور الفقهاء ويعمل بقولهم ، واتسع ملكه اتساعا كبيرا ، فامتدت مملكة المرية في عهده من المرية الى قرطبة ونواحيها غربا ، ومن المرية الى شاطبة ومرسية في الشمال الشرقي ، ومن المرية الى بياسة الى الفج من أول طليطلة في الشمال الغربي[٤] . كذلك امتد نفوذه الى قرطبة نفسها ، فقد دخلها وسكن قصرها في ٢٥ شعبان سنة ٤٢٥ هـ ، واستطاع أن يوطد سلطانه عليها نحو خمسة عشر شهرا ونصف شهر[٥] في الوقت الذي كان

---

(١) Pons Boigues, Ensayo Bio-bibliografico, Madrid, 1898, P. 113-114
Mariano Gaspar, Murcia musulmana, P. 98.

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢١٦ .

(٣) العذري ، ص ٨٣ .

(٤) ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٦٩ — ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢١٦ ، الاحاطة ، ص ٥٢٦ .

(٥) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢١٦ — الاحاطة ، ص ٥٢٦ .

يقوم فيه أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بأمرها .

وكان من حسن تدبير زهير عندما امتد أمر الحموديين أن دعا الى تجديد بيعة هشام المؤيد المشكوك في موته ، فأحضر رجلا سقاء شديد الشبه بهشام ، فموه به زمنا في سنة ٤٣٦ هـ ، ثم طرده(١) . وقد قلده القاضي أبو القاسم محمد بن عباد في ذلك، فاستقدم رجلا يشبه هشاما كان يشتغل في الحلفاء باحدى قرى إشبيلية، وبايعه بالخلافة(٢) في سنة ٤٢٧هـ، ثم دعا ملوك الاندلس الى الدخول في طاعته ، وكان زهير من بين من امتنع عن مبايعة هشام المزعوم(٣) . ويبدو أن قاضي إشبيلية أبدى نيته في محاربة زهير ، فاضطر هذا الاخير الى التحالف مع حبوس صاحب غرناطة بعد أن رأى نفسه مهددا . وبفضل هذا التحالف أرغم القاضي ابن عباد على العودة الى إشبيلية دون قتال(٤) .

وكان يحيى بن حمود قد قتل في قرمونة ، على يدي اسماعيل بن عباد ، سنة ٤٢٧ هـ ، وتغلب محمد بن عبدالله البرزالي عليها ، فلما بلغ إدريس بن علي بن حمود بسبته خبر مصرع يحيى أخيه ، أسرع الى عبور المجاز الى مالقة ، ودعا لنفسه ، فبايعه حبوس بن ماكسن ، وانضم اليهما زهير الفتى ، فأمر زهير بالخطبة لادريس في المرية استجابة لرغبة حليفه وجاره حبوس(٥) ،ولكن زهير لم يلبث أن اختلف مع حبوس،فقطع علاقته معه وذلك لان زهيرا أعان محمد بن عبدالله البزالي صاحب قرمونة في

---

(١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٩٠ — ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٥٤ ، ١٢٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٠ — ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٥٤ .

(٣) من بين الرؤساء الذين اقروا بخلافته : عبد العزيز بن ابي عامر صاحب بلنسية ، والموفق صاحب دانية والجزائر الشرقية ، وصاحب طرطوشة ، والوزير ابن جهور بقرطبة (ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٩٠) .

(٤) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, t. III, Leyde, 1932, P. 17 — Mariano Gaspar, op. cit. P. 99.

(٥) ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٩١ — ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٤٠ .

حربه لحبوس[1] .

ويرجع السبب في التغير الذي طرأ على سياسة زهير الخارجية الى تأثره برأي وزيره أحمد بن عباس ، فقد غلب هذا الوزير على زهير ، وألقى اليه زهير أزمته ، « فكان لا يحدث أمر الا باشارته وبعد مشاورته ، فأشار هذا الوزير الفاجر بغزو باديس بن حبوس بغرناطة »[2] .

ويعلل دوزي انحراف ابن عباس عن باديس بأنه ساءه أن يرى سيده زهيرا صديقا لرئيس بربري مثل حبوس ، له وزير يهودي ، اذ كان ابن عباس يبغض البربر ويحتقر اليهود[3] . وكان حبوس قد توفى بغرناطة في سنة ٤٢٨ هـ ، وخلفه في الرئاسة ابنه باديس ، فأرسل باديس الى زهير معاتبا ومستدعيا تجديد الحلف القديم الذي كان قائما بين أبيه حبوس وزهير[4] . وبدلا من أن يستجيب زهير لهذا الرجاء ، اتبع مشورة وزيره الذي أشار عليه بغزو باديس بغرناطة ، فسارع زهير وقد أدركه الطمع في غرناطة بعد وفاة حبوس[5] بحشد جيوشه ، وخرج من المرية قاصدا غرناطة في طليعة سنة ٤٢٩ هـ ، وقد « ضيع الحزم ، واغتر

(١) في ذلك يقول ابن حيان : « وكان سبب فساد باديس بن حبوس على جاره القديم الحلف زهير الصقلبي فتى المنصور بن ابي عامر ، موالاته لكاشحه محمد بن عبدالله زعيم زنانة ، ومضى على ذلك حبوس من عداوته ، وخلفها كلمة باقية في عقبه » (ابن بسام ، قسم ١ مجلد ٢ ص ١٦٦ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٦٩) .

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٩٣ . وذكر عبدالله الزيري في مذكراته ان ابن عباس « كان من أشد الناس حماقة واستخفافا ، مثيرا للشر ، مؤرشا بين الملوك ، وكان الغالب على امر زهير اذ لم يكن زهير يصلح لشيء لغباوته وجهله » (مذكرات الامير عبدالله الزيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ص ٣٤) .

(٣) Dozy, op. cit. t. III, PP. 23-24

(٤) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ص ١٦٦ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٦٩ ، ١٩١ — ابن الخطيب ص ٢١٦ .

(٥) مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ٣٤ .

بالعجب ، ووثق بالكثرة ، أشبه شيء بمجيء الامير الضخم الى عامل من عماله »[1] . ولم يراع القواعد والرسوم المتبعة في الزيارات أو عند الالتقاء مما يدل على ما كان يبيته في نفسه نحو باديس ، بل « أقبل ضاربا سوطه حتى تجاوز الحد الذي جرت عادته بالوقوف عنده من عمل باديس دون اذنه ، وصير الاوعار والمضايق خلف ظهره لا يفكر فيها ، واقتحم البلد حتى وصل الى باب غرناطة »[2] .

وكان من الطبيعي أن يستاء باديس وأخوه بلقين من هذا التصرف الاهوج ، فاعتبراه ضربا من العدوان على بلادهما ، وكان لا بد من مقابلة العدوان بما ينبغي عمله في تلك الظروف الحرجة ، فخرج باديس في جملة عساكره بقيادة أخيه بلقين ، للقاء زهير ، وتم اللقاء في قرية البونت الواقعة بالقرب من غرناطة[3] . وعلى الرغم من أنه كان ساخطا على زهير ، منكرا عليه اقتحامه عليه ، فقد طوى ذلك الشعور في نفسه ، وبدأه بالتكريم ، « وأوسع عليه وعلى رجاله في القرى والتعظيم ما مكن اغترارهم ، وثبت طمأنينتهم »[4] . وكان باديس مطمئنا الى حصانة غرناطة التي كان أبوه حبوس قد مدنها وحصن أسوارها ، وبنى

---

(١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٦٩ ـ ابن الخطيب ، ص ٢١٦ .

(٢) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ١٦٧ ـ ابن عذارى ج ٣ ص ١٦٩ ـ ابن الخطيب ص ٢١٦ .

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩١ .

ويذكر ابن عذارى في موضع آخر أن اللقاء تم في موضع يقال له الفونت على أربعة أميال من غرناطة (ص ٢٩٣) ، وهي القرية التي أشار اليها ابن الخطيب (في الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ ص ١٣٦) ، وتقابلها اليوم قرية Daifontes ، الواقعة على بعد نحو ٥ كيلومترات شمالي غرناطة . وقد ذكر الامير عبدالله الزيري هذه القرية عند حديثه عن انتصار باديس على زهير (مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ٣٤) .

(٤) ابن بسام، مجلد ٢ قسم ١ ص ١٦٧ ـ ابن عذارى، ج ٣ ص ١٧٠ ـ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢١٦ .

قصبتها[1] . وما ان اجتمع زهير بباديس حتى دب بينهما النزاع ، فقد دعاه باديس الى الالفة ، فتجاهل زهير هـذه الدعوة ، وأخذ يراوغه ويبدي تعاليه عليه ، « وحمل زهير أمـره كله على التشطط ، وخلط التغرير بالدالة ، والجفاء بالملاطفة ، وزعم في بعض ما يقوله أن الذي جاء به زيارة قبر حليفه وخليله حبوس ، وهو قد بخل بالتعزية على ولده إثر موته ، واتصلت بينهما المناظرة ، والامرار يزداد ، وزهير يأبى ذلك ، ويتهاون كأنه قد اقتدر على خصمه ، ووزيره أحمد بن عباس ، المعجب التياه يفري الفري في تصريح ما يعرض به زهير ، ابعادا للقوم واغلاظا عليهم »[2] وعندئذ عزم باديس على القتال ، ووافقه في ذلك قومه ، فأعد أثناء الليل عدته ونصب كتائبه وكمائنه في الطرق ، وأرصد له الخيل في مضيق ومفترق ، أما زهير فبات ليلته لا يدري شيئا مما أعده له باديس ، « وغاداه باديس صبحتها على تعبئة محكمة ، فلم يرعه الا رجة القوم راجعين اليه »[3] . تظاهر زهير بالثبات ، وأقام خليفته هذيلا الصقلبي قائـدا لعساكره ، واشتبك الجيشان فنكص هذيل ، وانهزم زهـير وأصحابه ، فأخذهم البربر بالسيف ، وأبادوا من فر منهم في شعاب غرناطة ، ولم يعرف مصير زهير[4] وان كان معظم المؤرخين يؤكدون مصرعه[5] في قرية الفنت من خارج غرناطة .

* * *

مـا ان علم أهل المرية بهزيمة زهير ومقتله حتى اجتمع أعيانهم ،

---

(١) الحميري ، ص ٢٣ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ١٦٧ (ملحوظة رقم ٤) .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

(٤) ذكر عبدالله الزيري أ نزهيرا خفي عن العسكر فلم يوجد حيا ولا ميتا ، ويؤكد ابن عذارى انه لم يعثر له على اثر (مذكرات عبدالله الزيري، ص ٣٥ ـ ابن عذارى، ص ١٩١).

(٥) ابن سعيد ، ج ٢ ص ١٠٧ ، ١٩٥ ـ ابن عذارى ، ص ١٦٧ ، ٢٩٣ .

وقرروا اسناد أمرهم الى شيخهم أبي بكر الرميمي ، فقام بشؤون المرية وضبطها أحسن ضبط ، الى أن كاتبوا المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول بن محمد بن أبي عامر ببلنسية . وكانت بلنسية قد آلت اليه بعد أن طرد أهلها لبيب الصقلبي منها لتعاونه مع الفرنج . فقدم عبد العزيز الى المرية ، وأقام الدعوة على منابرها لهشام المؤيد المزعوم[1] ، واستولى على أموال بيت مالها كله من ذهب مضروب ودراهم وجواهر فنقلها الى بلنسية[2] ، وأصبح ملك عبد العزيز يضم على هذا النحو مدينة المرية ومرسية وبلنسية . ثم انصرف عبد العزيز الى بلنسية بعد أن استخلف على المرية صهره ووزيره أبا الاحوص معن بن صمادح التجيبي . ويذكر ابن حيان أن سبب انصرافه الى بلنسية يرجع الى أنه لما « صارت (المرية) لعبد العزيز بن أبي عامر ، واستضافها الى بلده بلنسية ، حسده على ذلك مجاهد صاحب دانية ، وأظلم الافق بينهما ، فخرج مجاهد غازيا الى بلاد عبد العزيز وهو بالمرية مشتغل في تركة زهير ، فخرج مبادرا عنها لاستصلاح مجاهد »[3] ، ويذكر ابن عذارى أن الحرب قامت بين مجاهد وبين قواد المنصور ، « فثارت الحصون على المنصور ، وكان ابن صمادح من المرية ، وقدمه بها على نفسه ، فلما ثارت عليه البلاد لورقة وشاطبة وشودر أخرجه ابن صمادح من المرية فيمن أتبعه في رجب سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة »[4] . والواقع أن المنصور عبد العزيز اضطرته الاحداث الى الرحيل عن المرية ، فقدم على أهلها ابنه عبدالله ، وسماه الناصر واستوزر له ذا الوزارتين أبا الاحوص معن بن محمد بن صمادح ، وخطب في المرية للمؤيد هشام المنصوب بإشبيلية

---

(1) ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٦٧ ، ١٩١ .
(2) العذري ، ص ٨٤ .
(3) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٣٧ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٧٣ .
(4) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٣٠٢ .

سنة ٤٣٠ هـ[١] ، فاستغل معن فرصة غياب المنصور وخلع طاعته ، وطرد ابنه ، ودعا لنفسه، في سنة ٤٣٣ هـ • ثم صالح معن صاحب غرناطة باديس ابن حبوس طمعا في تأمين ملكه ، وبفضل هـذه المحالفة استقامت لـه الامور ، ودانت لـه لورقة وبياسة وجيان وغيرها حتى توفي في سنة ٤٤٣ هـ[٢] •

ب ـ المرية في ظل بني صمادح :

تولى أبو يحيى محمد بن معن الامارة بالمرية بعد وفاة أبيه ، وتلقب بالمعتصم بالله ، الواثق بفضل الله ، في سنة ٤٤٦ هـ[٣] • وذكروا أيضا أنه تلقب بالرشيد[٤] • ويعتبر عصر المعتصم أكثر عصور المرية وضوحا وازدهارا ، فقد تألقت فيها العلم والفنون ، وبلغت حضارة المرية ذروة التقدم والسمو على الرغم من قلة موارده وصغر مملكته ، وفي المعتصم يقول الفتح بن خاقان : « ملك أقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع في انتظام مجالسها واتساقها ، وأوضح رسمها ، وأثبت في جبـين أوانه وسمها ، لم تخل أيامه من مناظرة ، ولا عمرت الا بمذاكرة أو محاضرة ، الا ساعات أوقفها على المدام ، وعطلها من ذلك النظام ، وكانت دولته مشرعا للكرم، ومطلعا للهمم، فلاحت بها شموس، وارتاحت فيها نفوس، ونفقت فيها أقلام الاعلام ، وتدفقت بحار الكلام ، كاجادة ابن عمار وابداعه في قوله ، معتذرا من وداعه (طويل) :

أمعتصما بالله والحرب ترتمي ... بأبطالها والخيل بالخيل تلتقي
دعتني المطايـا للرحيل وانني ... لا فرق من ذكر النوى والتفرق
واني اذا غربت عنـك فانما ... جبينك شمس والمرية مشرقي

---

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ١٩٢ ، ٢٩٣ ، ابن الاثير ج ٧ ص ٢٩٣ .
(٢) ابن الاثير ج ٧ ص ٢٩٣ .
(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ١٦٨ .
(٤) نفس المرجع ص ١٧٤ ـ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ص ١٩٠ .

هذا على انكماش ولايته ، وقلة جبايته ، فان نظره لم يرد على امتداد ناظر ولم يجد الغمام منه على يانع ولا ناضر ، لان أكثره منابت شيح ومهامه فيح ، استغفر الله الا ضفتي نهر بجانة الممتد كالحبل ، المستمد من الطل والوبل ، فان جانبيه كاتساع الشبر ما يفي باتتجاع ورق ولا تبر »[1] . وفيه يقول ابن بسام : « كان رحب الغناء ، جزل العطاء ، حليما عن الدماء والدهماء ، طافت به الآمال ، واتسع في مدحه المقال ، وأعملت الى حضرته الرحال ، ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت كأبي عبدالله ابن الحداد ، وابن عبادة وابن الشهيد وغيرهم ممن لم يعلق بسواه سببا ، ولا شد الى غير ذراه كورا ولا قتبا »[2] .

وفيه قال شاعره أبو عبدالله بن الحداد :

يـا وافدي شرق البـلاد وغربها أكرمتما خيـل الوفادة فاربطا
ورأيتمـا ملـك البريـة قاطبـا ووردتما أرض المرية فاحططا[3]

وقوله من أخرى :

ولولا أبو يحيى ابن معن محمد لما كانت الايام عندي ذخائرا[4]

وقد أحب ابن الحداد مدينة المرية ولزمها ، وآثرها علـى بغداد ومصر وفي ذلك يقول :

وكم خطبتني مصر في نيـل نيلها ورامت بنا بغداد ورد فراتها
ولم أر أرضا غـير مبدأ نشأتي ولو لحت شمسا في سماء ولاتها[5]

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ص ٤٨ .
(٢) ابن بسام القسم ١ ، مجلد ٢ ص ٢٩٣ ـ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٩٠ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٢٠ ـ ويقول ابن عذاری : « كان من اهل الادب والمعارف ، فاضلا عاقلا ، كان لاهل الشعر عنده سوق نافقة ، فقصده جمع منهم » ص ١٦٨ .
(٤) ابن بسام ص ٢٢٥ .
(٥) نفس المرجع ص ٢٢٢ .

ولما بعد عنها ورحل الى سرقسطة ، وأقام في كنف المقتدر بن هود ، حن الى المرية ، وفي ذلك يقول :

أخفي اشتياقي وما أطويه من أسف ... عن المريـة والانفاس تظهره[1]

وعلى الرغم مـن صداقة المعتصم لباديس بـن حبوس فقد كان أندلسيا يكره البربر ويتعصب للاندلسيين ، ودليل ذلك أنه لما بلغه هجاء الشاعر خلف بن فرج السميسر له وللمرية بقوله :

بئس دار المريـة اليـوم دارا ... ليس فيها لساكن مـا يحب
بلـدة لا تمـار الا بريـح ... ربمـا قـد تهب أو لا تهب[2]

وقوله :

قالوا المرية فيهـا ... نظافـة قلت إيـه
كأنها طست تبـر ... ويبصق الدم فيه[3]

فاحتال المعتصم في طلبه حتى وقع بين يديه ، « فقال له : أنشدني ما قلت في ، فقال له : وحق من حصلني في يدك ما قلت شرا فيك ، وانما قلت :

رأيت آدم في نومي فقلت له ... أبا البرية ان الناس قد حكموا
ان البرابر نسل منك ، قال اذن ... حواء طالقة ان كان ما زعموا

فأباح ابن بلقين صاحب غرناطة دمى ، فخرجت الى بلادك هاربا ، فوضع علي من أشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت ، فيدرك ثأره بك ، ويكون الاثم عليك ، فقال : وما قلت فيه خاصة مضافا الى ما قلته في

---

(١) المقري ، ج ٥ ص ١٩١ .
(٢) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ص ٣٧٤ — المقري ج ٤ ص ٣٦٠ .
(٣) ابن بسام ، ص ٣٧٤ .

عامة قومه ؟ فقال : لما رأيته مشغوفا بتشييد قلعته التي يتحصن فيهـا بغرناطة قلت :

يبني على نفسه سفاها ... كـأنـه دودة الحريـر

فقال له المعتصم : لقد أحسنت في الاساءة اليه »[1] .

وهكذا كان عصر ازدهار في جميع مناحي الحياة ، وشهدت المرية مجدا وعظمة لم تشهدها مـن قبل ، وفي أيامه عمرت المدينة بالمنشآت العظيمة في القصبة، فقد أقام فيها آثارا عظيمة أبدع المؤرخون في وصفها، منها القصر الكبير الذي يشرف مـن الجهة الشمالية علـى جبل ليهم (أو لاهم) ، وفي جهته القبلية أقام بستانا عظيما للغاية ، غرست فيـه جميع أشجار الفاكهة وغريبها مع طول مساحته ، وكان يليه من الجهة القبلية أيضا مجلس عظيم على أبواب مفتحة ، ودفف تفوق دفف المشرق في غرابة النقش والاتقان ، وفرش المجلس بالرخام الابيض سطحه وأزره، ثم أقام الى الجهة القبلية منـه دارا كبيرة أتقنت بكل أنواع التذهيب وغرائبه ، ثـم أقام فيما يلي تلك الدار جنوبا مجلسا عظيمـا مقربسا « بالرفوف المزوقة المنقوشة المنزول فيها الذهب الطيب مفروش بالرخام الابيض ، وقد أزر بالرخام المنقوش » ، ويلي صحنه مـن جهة القبلة أبواب عليها شراجب (أي نوافذ) تطل على جميع مدينة المرية وتؤدي الى البحر والمرسى . والى شرق هذا القصر أقام دارا للحكم . ثم أقام المعتصم في رمضان سنة ٤٥٨ هـ سقاية للمياه الى جامع المرية حيث تصب في حوض أقيم لهذا الغرض يقع غربي الجامع . ومن هذه السقاية اتخذ فرعا يصل الى ما وراء القصبة ، وكانت مياه هذا الفرع تجري في سرب جوفي الى البئر الذي أحدث في جوفي القصبة والذي أقام له المعتصم

---

(١) المقري ، ج ٤ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

سواني يسني فيها ، ويصل ماؤها الـى الرياض التي ذكرناها في داره المعروفة بالصمادحية[1] .

ومن الناحية الاقتصادية ازدهرت المرية ونمت تجارتها في عهده مع بلاد الشرق الاسلامي وأوربا ، وان كان السميسر يعني أن مرافقها كانت تجلب اليها ، وأن الميرة كانت تأتيها في البحر من العدوة[2] . والواقع أن المرية أصبحت في عصره على حـد قول ابن سعيد باب الشرق ومفتاح الرزق[3] ، وليس أدل على ذلك مما ذكره الحجاري اذ يروي أن أبا محمد عبدالله بن ابراهيم أعطاه المعتمد بن عباد ما يعيش به من مال ، فاختار من بين مدن الاندلس مدينة المرية ، فانصرف اليها ، ولما سألوه عن سبب ذلك قال : « يعجبني سكناها والتجارة بها ، لكونها مينـا لمراكب التجار من مسلم وكافر ، فتجرت فيها ، فكان ابقاء ماء وجهي على يديه »[4] .

أما من الناحية السياسية فلم يكن المعتصم موفقا في بداية توليه الامارة ، ويذكر ابن الاثير أنه تولى الامارة وهو ابن أربع عشرة سنة ، فكفله عمه أبو عتبة بن محمد الى أن توفى عمه في سنة ٤٤٦ هـ ، فقد المعتصم خلالها قسما كبيرا من أملاكه ، اذ خرج عليه عامل أبيه على لورقة واسمه ابن شبيب وأعلن استقلاله بها عقب وفاة معن . ولما كان ابن شبيب يخشى من احتمال قدوم الوصي أبي عتبة ، فقد طلب مساعدة عبد العزيز ملك بلنسية ومرسية الذي أصبح بطبيعة الحال حليفا له . ولم يجد المعتصم عندئذ بدا من التحالف مع باديس صاحب غرناطة ،

(١) العذري ، ص ٨٥ .
(٢) المقري ، ج ٤ ص ٣٦٠ .
(٣) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ص ١٩٣ .
(٤) المقري ، ج ٥ ص ١١٠ .

وأعد جيشا قويا بقيادة عمه ، ولكنه لم ينجح في استرجاع لورقة ، واضطر الى العودة الى المرية[1] ، وأخذ ملكه ينكمش شيئا فشيئا بعد ذلك حتى لم يبق له غير المرية وما يجاورها[2] . وقد حاول المعتصم أن يسترجع حصنا من عمل تدمير ، واستعان في ذلك مرة أخرى بحليفه باديس ، فسارع باديس الى مساعدته ، « لما كان يعتقده من العصبية البربرية ، ويذهب اليه من ازدراء فرقة الاندلسيين »[3] ، ولكنه لم يوفق فيما سعى اليه .

واذا كان المعتصم قد لجأ الى باديس ، فانما فعل ذلك بدافع من حرصه على أملاكه فحسب ، فقد كان يكره البربر كما رأينا من قبل ، ويذكر ابن عذارى أن أمراء الاندلس انقسموا في سنة ٤٣٥ هـ الى فريقين : الاول فريق الاندلسيين وعلى رأسه سليمان بن هود الجذامي صاحب الثغر الاعلى ، وانضم الى هذا الفريق مقاتل الصقلبي صاحب طرطوشة ، وعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية ، وأمراء الموسطة ، وابن معن صاحب المرية ، وسعيد بن رفيل صاحب شقورة ، والوزير محمد ابن جهور صاحب قرطبة . وكان هؤلاء الاندلسيون يتبعون هدفا واحدا ، اذ كانوا متظاهرين على الفريق الثاني وهو فريق البربر وعلى رأسه باديس بن حبوس ومن تميز له من البربر ومن دعا اليه من ادريس بن يحيى صاحب مالقة . وكان هؤلاء الاندلسيون يدعون لهشام المنصوب بإشبيلية ، بينما كان البربر يدعون لادريس بن يحيى[4] . ولقد ساءت العلاقات الى درجة كبيرة بين باديس بن حبوس وبين المعتصم بن صمادح منذ أن اكتشف باديس أطماع المعتصم في ضم بعض أملاكه اليه ، فقد

---

(١) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٣ .
(٢) ابن بسام قسم ١ ، مجلد ٢ ص ٣٨ ، ابن الخطيب ، ص ١٧٥ .
(٣) ابن الاثير ، ج ٧ ص ٢٩٣ .
(٤) ابن عذارى ج ٣ ص ٢١٩ .

ذكر عبدالله بن بلقين في مذكراته أن ابن نغرالة الوزير اليهودي لباديس كتب الى ابن صمادح يحثه على دخول غرناطة ويلح عليه في الاستيلاء عليها[١] . ولكن المعتصم لم يتجرأ على القيام بغزو غرناطة نفسها وان كان قد تمكن من انتزاع وادي آش من باديس[٢] ، وأغارت بعوثه على غرناطة[٣]، ولكنه لم يلبث أن فقد وادي آش بعد قليل، فقد بعث باديس الى ابن ذي النون صاحب طليطلة يستعين به على اخراج المعتصم من وادي آش ، ويعده نظير ذلك باعطائه ما شاء من بلاده ، ولم يتردد ابن ذي النون في المجيء بجيوشه ، فقد كان في غاية الطمع والجشع ، وتمكن من تخليص وادي آش واستردادها من المعتصم . أما المعتصم فقد اعتذر لباديس ، وترامى عليه يسأله العفو والاغضاء عما نبا من تصرفه ، فقبل باديس اعتذاره[٤] .

ولكن ذلك لم يمنع ابن صمادح من الاستيلاء على مدينة بسطة وحصن شيلش منتهزا فرصة انشغال عبدالله بن بلكين بمواجهة ابن عباد[٥] . ومع ذلك فقد تمكن عبدالله من انتزاع حصن شنت أفلج من معاقل المعتصم عوضا عن شيلش ، وصالحه مهادنة ، واتقاء شره حتى تنتهي أزمته مع ابن عباد . وحدث أن عبدالله ملك غرناطة نفى وزيره سماجة ، فقصد سماجة الى المرية حيث أكرمه المعتصم ، فأخذ سماجة يحقر دولة عبدالله بن بلقين لابن صمادح ويطمعه في الاستيلاء عليها بأمل أن « ينال على يديه فرصة بمداخلة أو ادلال على موضع فائدة »[٦] .

(١) مذكرات الامير عبدالله ، ص ٥٣ — ٥٤ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٥٥، ٥٦ .
(٣) الاحاطة ص ٤٤٨ .
(٤) مذكرات الامير عبدالله ، ص ٥٧ .
(٥) نفس المرجع ص ٧١ ، ٧٢ .
(٦) نفس المرجع ، ص ٨٨ .

ولما علم عبدالله بذلك ، وكان يسعى جاهدا الى الصلح مع المعتصم ونسيان الاحقاد أمام الفونسو العدو المشترك ، عمد الى بنيان حصن المنتوري الواقع بالقرب من بلدة فنيانة ، لصق حدود مملكة المرية ، وشحنه بحامية من العسكر • ولم يكتف عبدالله بذلك بل أمر ببنيان سبعة معاقل أخرى تحصينا لحدوده ، وفي نفس الوقت لتضيق الخناق على المرية ، ولارغام المعتصم على قبول الصلح معه • واستاء المعتصم لذلك ، فوجه جيشه الى هذه الحصون مرة بعد أخرى ، ولكنها كانت تنهزم في كل مرة • وأخيرا تم الصلح بينهما ، وأمر عبدالله بهدم الحصون اثباتا لحسن نيته وصفاء نفسه • وبهدم تلك الحصون فك الحصار عن مملكة المرية ، « ونشرت من كفن »[١] •

وعندما قدمت جيوش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين في سنة ٤٧٨ هـ ، لمسح العار الذي لحق ملوك الطوائف بالاندلس من مذلة الفونسو السادس لهم ، لم يتردد المعتصم عن المساهمة بقواته في معركة الجهاد ضد جيوش اسبانيا المسيحية مجتمعة ، ولكنه اعتذر ليوسف عن عدم شخوصه اليه بنفسه بسبب العدو الملاصق له بحصن لييط من عمل لورقة[٢] ، كما اعتذر بكبر السن مع الضعف[٣] ؛ ولكنه أرسل ابنه وولي عهده معز الدولة • ويرى الاستاذ اويثي ميراندا أنه آثر البقاء ليرى نتيجة المعركة[٤] • ولكن المعتصم اشترك في سنة ٤٨١ هـ مع ملوك

(١) نفس المصدر ، ص ٩٠ •

(٢) الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ ، ص ٣٤ •

(٣) مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٠٤ •

(٤) Huici Miranda, La Invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaca, Hesperis, t. XI, 1953, P. 40.

الطوائف بالاندلس وقوات المرابطين في حصار حصن لبيط[1] ، وهناك أظهر الملوك ما كانوا يخفونه عن ابن تاشفين من منازعات وخلافات ، ووقعت بين المعتمد بن عباد والمعتصم مشاجرات بشأن بعض الحصون ، وانصرفا دون اتفاق بينهما • وكان ذلك نذيرا بنهاية عهد الطوائف ، فقد ضاق ابن تاشفين بخلافات هؤلاء الملوك وعزم على خلعهم عن عروشهم ، واحتلال بلادهم ، وبدأ بغرناطة ، ثم أتبعها بالمرية التي سقطت كل معاقلها في أيدي المرابطين • فقد قدمت عساكرهم بقيادة الامير يحيى بن واسنو الى أبوابها وحاصرتها ، حتى ضاقت بأهلها الاحوال ، وبدأوا يخرجون عنها فرارا من المرابطين ، فمرض المعتصم مرضا لم يمهله طويلا ، وأوصى ولده معز الدولة بأن يتمسك بقصبة المرية ، ما أقام ابن عباد متمسكا بإشبيلية ، فاذا انتهى أمره بالخلع فليعبر المعز البحر بأهله وولده الى جزائر بني مزغنا[2] • وتوفى المعتصم في ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ ، وخلفه ابنه معز الدولة ، فتمسك بوصية أبيه ، ولم يترك المرية الا بعد أن تأكد من سقوط إشبيلية وعزل ابن عباد عن ملكه ، فتخير مركبا شحنه بكل ما استطاع أن يشحنه به من مال وذخائر ، وتظاهر بالخروج لمهادنة يوسف بن تاشفين فسر أهل المرية لذلك ، ولكنه أبحر بسفينته الى الجزائر •

* * *

---

(١) كان قائد هذا الحصن غرسية خيمنث Garcia Jimenez وفرقته التي يبلغ عددها ١٢ الفا من القشتاليين يغيرون يوميا على منطقة مرسية والمرية ، فيخربون العمران ، وينتسفون المزارع ، ويقتلون من يقابلونه من المسلمين ، وبسبب هذه الغارات المتواصلة أصبحت مرسية ولورقة مهددتين بغزو وشيك مما حمل المعتمد على استجداء عون المرابطين من جديد .
(Menéndez Pidal, el Cid Campeador, Coleccion Austral, Buenos Aires, 1950, P. 143).

(٢) مذكرات الامير عبدالله ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ — ابن الخطيب ، ص ١٩١ — ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٦٨ .

(٢)

مرحلة التبعية (منذ دخول المرابطين الاندلس حتى سقوط المرية في أيدي القشتاليين سنة ١٤٩٠ م)

أ ــ نهاية عصر ملوك الطوائف :

رأى الفونسو السادس بعد هزيمته في الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ على أيدي جيوش المرابطين والاندلسيين ، أن يحول ميدان نشاطه الحربي الى شرق الاندلس ، اذ أن غرب الاندلس كانت تقوم فيه مملكتان قويتان هما مملكتا إشبيلية وبطليوس ، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ٣ آلاف مقاتل ، أقامت في إشبيلية تحت تصرف المعتمد بن عباد ، أما الشرق فعلى الضد من ذلك كان ممزقا من الناحية السياسية(١) ، بالاضافة الى أن جيوش المرابطين لم تكن قد وصلت اليه بعد(٢) . فبادر الفونسو السادس بمصالحة السيد الكنبيطور (صاحب الفحص) في طليطلة في ربيع ١٠٨٧ م ، فعفا عنه ، ومنحه اقطاعات واسعة ، منها حصنا غرماج الاموي ودونياس(٣) . وفي العام التالي ، اتجه الكنبيطور الى سرقسطة عند أصحابه بني هود ، ومن هناك بدأ يعمل على تنفيذ الخطة التي رسمها مع سيده الفونسو لضم شرق الاندلس ، وبالذات مدينة بلنسية(٤) ، بينما قام غرسية خيمنث قائد حصن لييط(٥) بشن غاراته

---

(١) كانت تقوم فيه دويلات صغيرة ضعيفة هي : لاردة والسهلة والبونت وبلنسية ودانية ، ومرسية والمرية ، وكانت تتوسطه قلعة منيعة لا ترام لحصانتها هي قلعة لييط .

(٢) Menendez Pidal (R.), El Cid Campeador, P. 133 — Espana del Cid, t. I, P. 350

(٣) Ibid. P. 130

(٤) كان القادر بن ذي النون ملك طليطلة قد تنازل لالفونسو عن طليطلة على أن يملكه بلنسية ، وقد أوفى له الفونسو بهذا الشرط وساعده على دخول بلنسية ، فدخلها قهرا في سنة ٤٧٥ هـ (ابن عذارى ج ٣ ص ٣٠٤) .

(٥) Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides, P. 2.

المدمرة على امارات المرية ومرسية ولورقة، فنشر الخراب في هذه المنطقة، وحول أراضيها الى صحراوات ، ونتج عن هذه الغارات المتواصلة أن أصبحت امارتا مرسية ولورقة مهددتين بغزو قشتالي محتوم[١] ، وافتقد أهالي الاندلس الامن والسلام ، فشكوا الى يوسف ما أصابهم من الكنبيطور ، كما رحل المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين لغرضين : الاول استرجاع نفوذه بمرسية ، والثاني وضع حد لغارات القشتاليين على ممتلكاته في شرق الاندلس ، « وعظم له شأن لييط ، وأنه في قلب البلد ، وأنه لا راحة للمسلمين الا بفقده »[٢] . ولم يجد يوسف بدا من استجابة رغبات أهل الاندلس في مقاتلة القشتاليين ، فعبر الزقاق للمرة الثانية ، وتوافت اليه جيوش الاندلس ممثلة كل دويلات الطوائف . وساهم المعتصم بن صمادح في حصار لييط مع غيره من ملوك الطوائف[٣] ، ولكن هذا الحصار رغم طول أمده انتهى بالفشل ، لقوة مقاومة الحامية القشتالية ، ولاختلاف كلمة المسلمين ، فقد شكا المعتمد ابن رشيق الى يوسف ، وذكر اعتداءه عليه ، كما اختلف ابن صمادح مع ابن عباد ، وأخذ ملوك الطوائف يتراشقون التهم أمام ابن تاشفين ويحكمونه في خلافاتهم ، فضاق بذلك . وكان الحصار قد طال ، وتأهب الفونسو الى الزحف بجيشه لنجدة حامية لييط ، كل هذه الاسباب حملت يوسف على رفع الحصار والعودة الى حاضرته مراكش عن طريق المرية[٤] . وبلغه وهو بمراكش أن الامير عبدالله الزيري صاحب غرناطة اتفق مع البرهانس وكيل الفونسو السادس في جهات غرناطة والمرية ، وتعاقد معه على نصرته نظير ٣٠ ألف دينار ، وكان ابن رشيق قد ثبت

---

(١) Mariano Gaspar Remiro, op. cit. P. 134.

(٢) كتاب التبيين ، مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٠٨ .

(٣) اتى ابن صمادح بفيل (لعله من الخشب) ولكنه احترق اذ اصابه من الحصن قبس نار (مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٠٩) .

(٤) Codera, op. cit. P. 3.

تعاونه مع النصارى أثناء حصار المسلمين لحصن لييط[1] ، لذلك عزم ابن تاشفين على استئصال شأفة ملوك الطوائف والاطاحة بعروشهم ، بحجة أنه لا ينبغي لهم قتال الروم ويتركوا وراءهم الاعداء ممن يواسي عليهم معهم[2] . ثم جاز الى الاندلس للمرة الثالثة في سنة ٤٨٣ ، وهو ينوي هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف وتوحيد كلمة الاندلس ، وتأليف جبهة أندلسية مغربية متحدة لمواجهة خطر النصارى المتزايد . وبدأ يوسف بنكبة عبدالله صاحب غرناطة ، فعزله عن عرشه ونفاه الى مكناسة[3] . ثم أردفه بأخيه تميم صاحب مالقة . وفي سنة ٤٨٤ هـ أرسل أربعة جيوش مرابطية الى الاندلس لمنازلة ملوك الطوائف ، وحصارهم في بلادهم ، فعهد الى ابن عمه الامير سير بن أبي بكر بمحاصرة إشبيلية ودخولها والقبض على المعتمد وحمله أسيرا الى المغرب ، كما عهد اليه أيضا بالاستيلاء على بطليوس واسقاط دولة المتوكل على الله عمر بن المظفر بن الافطس ، وقد نفذ سير أمر يوسف ، فدخل المرابطون إشبيلية، وسيق المعتمد أسيرا الى آغمات حيث توفى سنة ٤٨٨ هـ . أما المتوكل فقد كان مصيره أسوأ ، اذ قتل هو وابناه في أواخر سنة ٤٨٨ هـ .

كذلك عهد يوسف بن تاشفين الى أبي عبدالله بـن الحاج بفتح قرطبة، ، والى أبي زكريا بن واسنو بفتح المرية[4] ، والى حرور الحبشي بفتح رندة ، والى داود بن عائشة بفتح السهلة والبونت ومرسية . ولم يستثن من ملوك الطوائف سوى المستعين بالله أحمد بن هود بسرقسطة ، فقد كان لا ينازعه ما في يده « ولا تطرق لخلعه ، قبولا منـه للعفو ، واقرارا فيما بينه وبين العدو ، كما تجده مضايقته من تصيير ما بيده الى

(١) كان يقويهم ويعينهم خوفا مما قد يحل عليه بفقدهم . (انظر مذكرات الامير عبدالله)
(٢) مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٧٥ .
(٣) الحلل الموشية ، ص ٥١ .
(٤) وقيل انه عهد الى محمد بن عائشة بفتح المرية ومرسية ودانية وشاطبة (ابن الكردبوس ، ص ١٠٧) .

الروم ، فكان يلاطفه ، ووجه اليه ابن هود ولده عبد الملك ، فقام بحقه وصرفه مكرما ، وأصحبه كتابه »[1] وكان ابن هود قد كاتبه قائلا : « نحن بينكم وبين العدو سد ، لا يصل اليكم ضرر ، ومطاعين تطوف ، وقد قنعنا بمسالمتكم »[2] . ولا يستبعد الدكتور عفيف ترك أن يكون المستعين بالله ويوسف بن تاشفين قد اتفقا على تطهير منطقة بلنسية من القشتاليين ، وتحريرها من احتلالهم ، والعمل معا على استرجاع أراضي طرطوشة ولاردة من المنذر التجيبي، وضمها الى مملكة سرقسطة لتكوين جبهة قوية مع المرابطين للوقوف أمام نوايا قطالونية وأرغون التوسعية[3] .

ب ــ المرية في ظل المرابطين :

على الرغم من اشتغال المرابطين منذ دخولهم بلاد الاندلس بمدافعة النصارى[4] الذين كانوا يغيرون على اسبانيا الاسلامية من كل مكان ،

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ص ١٧٣ . كان المستعين بالله أحمد بن هود قد ارسل اليه ولده ابا مروان عبد الملك ، في صحبة وزيريه ابي الاصبغ وأبي عامر .

(٢) الحلل الموشية ، طبعة تونس ص ٥٤ ــ ٥٥ .

(٣) Afif Turk, el Reino de Zaragoza, en el siglo XI, رسالة دكتوراة بجامعة مدريد سنة ١٩٥٦ ، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٥ .

(٤) كانت رسالة المرابطين منذ بداية تدخلهم في شؤون الاندلس هي انقاذ الاسلام في الاندلس ، وقد بذلوا جهودا جبارة في هذا السبيل وقضوا الستين سنة التي دامت فيها دولتهم بالاندلس في جهاد ومثافرة ضد القشتاليين والارغونيين . فقد تمكن القائد ابراهيم ابن اسحق اللمتوني من هزيمة قوات النصارى بقيادة البرهانش في المدور جنوبي الاندلس ، ونجح داود بن عائشة في استرجاع حصن لييط . وكان الكنبيطور قد استولى على بلنسية سنة ٤٨٨ هـ (البيان ج ٣ ص ٣٥٦) كما كان بدرو بن سانشو راميرث (ابن ردمير) ملك ارغون قد استولى على وشقة سنة ٤٩٠ هـ . ولكن القائد المرابطي محمد بن مزدلي نجح في استرداد بلنسية سنة ٤٩٥ هـ بعد وفاة الكنبيطور (البيان ج ٣ ص ٣٠٦ ــ المقري ج ٦ ص ١٩٨) وتبع ذلك استيلاء المرابطين على مربيطر والمندة والسهلة وغيرها من الحصون الموزعة في شرق ووسط الاندلس ، وانتصروا على قوات الفونسو السادس في قنسوجرة وقونكة وملجون سنة ٤٩٤ هـ . وفي عهد علي بن يوسف ، هزم المرابطون بقيادة تميم قوات الفونسو السادس عند اقليش في ١٧ شوال سنة ٥٠١ . وفي هذه الموقعة قتل الامير سانشو بن الفونسو من زايدة المسلمة كنة المعتمد بن عباد (انظر :
Lévi-Provençal, Islam d'Occident, Paris 1948, PP. 137-151

واشتغالهم أيضا بالثورات التي اشتعلت نيرانها في المغرب والاندلس ، فقد كانت المريـــة في عصر المرابطين على حـــد قول الادريسي « مدينة

= والترجمة العربية التي قمت بها بالاشتراك مع الاستاذ صلاح الدين حلمي، بعنوان الاسلام في المغرب والاندلس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٥١ – ١٦٤ . وانظر أيضا الونشريشي ، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مجلة المعهد المصري مدريد ١٩٥٧ ، ص ١٨٩ – ١٩٠) كما قتل عدد كبير من المقاتلين النصارى يبلـغ ٢٣ الفـا ، وسبعة قوامس ، ولذلـك عرفت الموقعـة بموقعـة القوامس السبعـة «Batalla de los Siete Condes» (أنظر Codera, op. cit. P. 9). وقد استولى المرابطون على اثر ذلك على قونكة ووبذة . وفي سنة ٥٠٣ هـ جاز علي بن يوسف الى الاندلس وخرب منطقة طليطلة ؛ واستولى على بعض الحصون ومنها حصن مجريط ووادي الحجارة . وفي ذي القعدة سنة ٥٠٤ غزا الامير سير بن أبي بكر الغرب وتغلب على شنترين وبطليوس وشنترة وبرتقال ويابرة وأشبونة . أما بالنسبة لمملكتي أرغون وقطالونيا ، فقد لقي المرابطون أشد العناء بسبب غزوات الفونسو المحارب ملك ارغون ، ففي رجب سنة ٥٠٣ هزم ملك أرغون المستعين بن هود وقتله في موقعة بلتيرة واستولى على تطيلة ، ثم استردها منهم المرابطون . وفي سنة ٤١١ هزم الفونسو المحارب قوات المرابطين أمام سرقسطة ، فاضطروا الى الانسحاب منها ، وفي سنة ٤١٢ دخلها الفونسو واتخذها عاصمة له ، وضم بعد ذلك طركونة وقلعة أيوب . وفي سنة ٥١٤ كانت هزيمة المرابطين في كتندة من حيز دروقة ، وتبع ذلك سقوط طرشونة والجون ومدينة سالم ودرقة في أيدي الارغونيين . وفي سنة ٥١٩ كانت حملة الفونسو المحارب الكبرى التي اخترق فيها بلاد المسلمين ، مخربا ومدمرا ما قابله من قرى وحصون ومراكز عمرانية حتى وصل بالقرب من غرناطة ، وانضم اليه المعاهدون من نصارى الاندلس . وفي هذه الغزوة يقول صاحب الحلل الموشية : « وفي هذه السنة خرج الطاغية بن ردمير الى بلاد المسلمين بلاد الاندلس ، فتحركت له ريح الظهور ، وذلك أن النصارى المعاهدين بكورة البيرة خاطبوه من تلك الاقطار ، وتوالت عليه كتبهم ، وتواترت رسلهم ملحة في الاستدعاء ، مطمعة بدخول غرناطة ... فخرج الى سرقسطة ، ومنها الى بلنسية ، وانضم اليه عدد من النصارى المعاهدين الذين يرشدون طريق سيره ، واجتاز الى جزيرة شقر ، ثم الى دانية ، فشاطبة ، فمرسية ، ثم برشانة ثم بسطة ووادي آش ... وما زال في سيره حتى بيانة واستجة وهزم المسلمين في اليسانة ، ثم جاز على وادي متريبل ، وعاد من حيث أتى بعد ان قضى عاما كاملا وثلاثة شهور » (الحلل ، ص ٦٦ – ٦٩) . وفي سنة ٥٢٨ سمت نفس الفونسو المحارب الى الاستيلاء على لاردة وافراغة ولكنه انهزم هزيمة نكراء في افراغة على أيدي المرابطين وقوات ابن غانية وابن مردنيش بقيادة يحيى بن علي (وفقا لرواية الحميري ، ص ٢٤) ، وفيها قتل أكثر رجاله . وتتفق الروايات على ان الفونسو المحارب لقي حتفه في هذه الموقعة (ارجع الى ابن الخطيب، أعمال الاعلام ص ٢٥٩ – يوسف أشباخ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٦٥) .

الاسلام »[1] ، لما وصلت اليه من شهرة في ميدان الصناعة والتجارة ، وباعتبارها الميناء الاول في الاندلس ، الذي كانت تقصده السفن من سائر أقطار البحر الابيض المتوسط . و فيذلك يقول الشريف الادريسي : « وكانت المرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشأم كله ، ولم يكن بالاندلس أيسر من أهلها مالا ، ولا أتجر منهم في الصناعات ، وأصناف التجارات تصريفا وادخارا ... والمدينة في ذاتها كبيرة ، كثيرة التجارات ، والمسافرون اليها كثيرون ، وكان أهلها مياسير ، ولم يكن في بلاد الاندلس أحضر من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا »[2] .

ويبدو أن اتخاذ المرابطين لمدينة غرناطة كقاعدة لهم في الاندلس[3] كان له دخل كبير فيما أصابته المرية في عصر المرابطين من تقدم في المجالين الصناعي والتجاري ، اذ كانت أقرب الموانىء الى مدينة غرناطة ، يضاف الى ذلك أنه كانت تربطها ببلاد المغرب صلات بحرية وثيقة ، فكانت السفن تتردد بين ثغر المرية وبين ثغور المغرب مثل وهران وبجاية وجزائر بني مزغنا ، وتنس ، وسبتة ، وتونس .

وقد اهتم أمراء المرابطين بمدينة المرية، فوليها بين من وليها منهم الامير تاشفين بن علي[4]،قبل أن يبايع بامارة المسلمين بعد وفاة أبيه سنة ٥٣٧هـ (١١٤٣ م) ، وقد ضمت اليه ولاية غرناطة وقرطبة الى جانب المرية ، كما وليها الامير عمر بن ذمام بن المعتز الصنهاجي في بداية القرن السادس[5]

---

(١) الادريسي ، ص ١٩٧ — الحميري ، ص ١٨٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٩٦ وما يليها .

(٣) اتخذها الامير ابو الطاهر تميم بن يوسف مقرا لسكناه ، وسيتخذها كذلك ابن اخيه تاشفين بن علي .

(٤) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ عبدالله عنان ، ج ١ القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٥٤ .

(٥) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٢٦٩ .

وقد اهتم ولاة المرابطين بصفة خاصة بالنواحي الاقتصاديه في المدينه ، ونعني بذلك دور الطراز ودور الصناعة ، والمرافق التجاريه الهامة من فنادق ، وأسواق ، الى غير ذلك • فقد بلغ عدد دور الطراز بالمرية في أيـام المرابطين ثمانمائة طراز[1] لصنع المنسوجات الحريرية والديباج والحلـل الشرقية (السقلاطون والاصبهاني والجرجاني والعتابي) • كذلك تقدمت صناعة آلات النحاس والحديد والرصاص والسفن بجميع أنواعها وذلك في دار الصناعة بالمرية • أما من ناحية التجارة فقد كانت المرية مركزا للسفن القادمة من شرق البحر الابيض المتوسط ، ومحطا لمراكب النصارى ونعني بهم الجنويين والبيزيين والبنادقة والقطلانيين والارغونيين ، واليها كانت تقصد سفنهم تحمل متاجرهم لتورع من المرية الى سائر أنحاء الاندلس ، ثم تشحن بالبضائع والمتاجر الاندلسية الى سائر بلاد حوض البحر الابيض المتوسط • وكان بالمرية قسم كبير من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبي عبدالله محمد بن ميمون ، وكان هذا الاسطول على أهبة الاستعداد لتلبية أوامر أمير المسلمين ، فقد طلب تاشفين بـن علي بـن يوسف عندمـا حاصره الموحدون بوهـران (٥٣٧ ــ ٥٤٠) من أبي عبدالله محمد بن ميمون قائد أسطول المرية أن يجهز له عشر أجفان غزوية تحت تصرفه بوهران[2] ، على أمل أن يركب منها البحر الى الاندلس اذا ما غلبه الموحدون ، ولكن الحصار اشتد عليه ، « فخرج راكبا فرسا شهباء عليـه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك »[3] •

وكانت المرية من المراسي الهامة في ذلك العصر كما كانت في العصور

---

(١) الادريسي ، ص ١٩٧ •
(٢) الحلل الموشية ، ص ٩٩ •
(٣) المراكشي ، ص ٢٠٢ •

السابقة ، فقد كان يبحر منها من أراد السفر في البحر الى مصر والشام وغيرهما من بلاد المشرق الاسلامي ، وكان يصلها بالاسكندرية خط ملاحي منتظم ، ومنها سافر المهدي بن تومرت الى الشام[1] ، ومنها انتقل عبدالله بن غانية الى جزيرة ميورقة •

* * *

ثم ضعفت دولة المرابطين في أواخر أيام علي بن يوسف ضعفا ظاهرا بسبب الضربات العنيفة التي سددها اليها نصارى قطالونيا وأرغون وقشتالة والبرتغال ، وبسبب قيام المهدي بن تومرت بالثورة في بلاد المغرب على المرابطين ، مما اضطر الامير علي بن يوسف الى صرف جزء كبير من اهتمامه للقضاء عليها • والواقع ان المعارك المتواصلة التي خاضها المرابطون في شبه الجزيرة ، وبالذات في شرق الاندلس والثغر الاعلى ، هي التي استنزفت قوى المرابطين ، وقضت على كل مواردهم ، فلما طالبوا أهل الاندلس بمعونتهم لهم تنكر هؤلاء لهم وتحولوا عنهم ، وطردوا في نهاية الامر ولاتهم عليهم ، ودعوا الموحدين الى دخول الاندلس • وقد بدت نذر الضعف الذي طرأ على دولة المرابطين في أواخر أيام يوسف بن تاشفين نفسه ، ويكفي دليلا على ذلك ما رواه المقري من أن يوسف كتب الى أهل المرية يطالبهم بالمعونة ، فرد عليه قاضيها أبو عبدالله بن الفراء بكتاب رفض فيه أن يمده بالمال ، وطلب منه أن يدخل الجامع بمراكش فيقسم أمام الملأ بأنه ليس عنده درهم ولا في بيت مال المسلمين ، أسوة بما فعله الرسول صلعم والخليفة عمر بن الخطاب ، ثم وعده في النهاية بالنظر في معاونته اذا أثبت ذلك[2] • وقد اضطر

(١) الحلل الموشية ، ص ٧٥ •

(٢) المقري ، ج ٤ ص ٣٥٧ •

المرابطون الى فرض ضريبة على أهل المرية وغيرها من مدن الاندلس الهامة تعرف بالتعتيب أو التعطيب يخصص دخلها لاقامة أسوار جديدة وترميم الاسوار القديمة[1] وذلك عندما تعرضت الاندلس لغزوة الفونسو الاول المحارب سنة ٥١٩ التي اخترق فيها كل بلاد الاندلس حتى غرناطة وشواطىء البحر المتوسط •

ولقد صرف علي بن يوسف الجزء الاعظم من جهوده في متابعة شؤون الاندلس ومراعاة أحوالها ، فقدم بنفسه اليها أربع مرات ليتفقد بنفسه أحوالها ، ويسد خللها ، وشغل المرابطون في الاندلس بمقاتلة النصارى والحد من نشاطهم في التوسع على حساب دولة المسلمين بالاندلس • وجندوا في سبيل ذلك كل طاقاتهم ، وسخروا جميع امكانياتهم ، الا أن العدو المتربص كان يشن هجومه من كل مكان في الاندلس ، فتعددت جبهات القتال ، وتوزعت قوى المسلمين في هذه الجبهات ، وبالرغم من كل هذه الجهود العظيمة التي بذلها المرابطون في الجهاد ونصرة الاسلام في الاندلس ، فقد تكسرت هذه الجهود أمام تخاذل أهل الاندلس عن مساعدتهم وتراخيهم في المساهمة في مدافعة النصارى ، بل كنا نراهم أكثر من ذلك يتحالفون مع النصارى ضد

---

(١) الادريسي، ص ٢٠٠ ــ الحميري، ص ٢٢٣ من الترجمة الفرنسية ملحوظة ١ • انظر ايضا Torres Balbas, el arte de Al-Andalus bajo los Almoravides, P. 413, al-Andalus, XVII, 1952, Torres Balbas, Almeria Islamica, Al-Andalus, Vol. XXII, 1957, P. 444.

ومما يدل ايضا على فراغ خزينة المرابطين واستهتار اهل الاندلس بامر الدفاع عن مدنهم ، ان سور اشبيلية في عهد المرابطين كان محتاجا الى ترميم بعد سيل اتى على جانب منه ولم يكن باشبيلية وقتئذ مال متوفر ، ففرض القاضي ابو بكر بن عربي على الناس جلود ضحاياهم في عيد الاضحى ، فاحضروها كارهين ، ثم اجتمعت العامة العمياء وثارت عليه ونهبت داره ، فاضطر الى اقامة السور من ماله الخاص (انظر المقري ، ج ٢ ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥) وهذا النص الذي اورده المقري يثبت بصفة قاطعة ان سور اشبيلية اقيم في عصر المرابطين •

المرابطين(١) ، ويثورون عليهم للتخلص من تبعيتهم لهم(٢) . أما تعليل المراكشي لحالة الضعف والاختلال التي أصابت المرابطين في آخر دولة علي بن يوسف ، بتخاذلهم وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وايثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، واشتغال علي بن يوسف بقيام ابن تومرت عن مراعاة أحوال الجزيرة(٣) ، فقالة ظالمة ، وافتراء واضح ، وتجاهل لحقيقة الاوضاع السياسية في الاندلس ، يبرره تحيـز المراكشي للمصامدة الموحدين ، وميله الى قضيتهم ، فقد ولد في مراكش سنة ٥٨١ في بداية عهد أبي يوسف يعقوب المنصور، وعاصر أحداث المغرب والاندلس طوال عهدي محمد الناصر وأبي يعقوب يوسف الثاني .

ولما توفى علي بن يوسف في سنة ٥٣٣هـ وخلفه ابنه تاشفين، توالت عليه الهزائم في المغرب على أيدي الموحدين ، واستغل أهل الاندلس هذه الفرصة(٤) ، وأعلنوا ثوراتهم في الاندلس ، وتمزقت البلاد من جديد بعد وفاته في سنة ٥٣٩ هـ الى دويلات للطوائف . واستعان هؤلاء الثوار على المرابطين بجيوش قشتالية وبرتغالية ، من هؤلاء الثوار ابن وزير

---

(١) من أمثلة ذلك انحياز عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود الى جانب ملك قشتالة وتسببه في ضياع سرقسطة نهائيا من ايدي المسلمين سنة ٥١٢ ، وتملق ابنه احمد القائم بثغر روطة بأذيال ابن ردمير (ملك أرغون الفونسو الاول المحارب) وتنازله له عن روطة (ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٧٥ — ١٧٦) .

(٢) ثار أهل قرطبة على الامير علي بن يوسف سنة ٥١٥ هـ (انظر الحلل الموشية ، ص ٦٣). وفي أواخر عصر دولة المرابطين قامت الثورات في سائر انحاء الاندلس ضد المرابطين، منها ثورة الصوفية أو المريدين في غرب الاندلس ورائدها ابن قسي بمرتلة ، وثورة ابن حمدين بقرطبة وثورة ابن هود في شرق الاندلس .

(٣) المراكشي ، ص ٢٠٨ .

(٤) كان منبع هذه الثورات ومصدرها جماعة الصوفية والمريدين ورئيسهم الشيخ أبو العباس بن العريف بالمرية واحد أعوانه أبو القاسم بن قسي بشلب ، الذي اشعل نار الثورة ضد المرابطين في غرب الاندلس ، ثم تحول مركز ثورة الغرب الى مرتلة ومنها انتشرت في يابرة وباجة وشلب ولبلة ، وقرطبة وشرق الاندلس .

وأبو محمد سدراي ، ويوسف البطروجي ، ولبيد بن عبدالله بشنترين ، وأبو القمر بن عزوز بشريش ، وابن عياض بشرق الاندلس ، وعلي بن عيسى بن ميمون بقادس ، ومحمد بن علي بن الحجام ببطليوس ، ومحمد ابن المنذر بشلب ، وابن عنان بيابرة ، والقاضي ابن حمدين بقرطبة ، والقاضي أبو الحكم بن حسون بمالقة ، والقاضي أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية ، ثم خلفه عبد الرحمن بن عياض ، فمحمد بن سعد الجذامي المعروف بابن مردنيش الذي ضم اليه مرسية • ومن الثوار أيضا القاضي أبو أمية أحمد بن عاصم بأريولة ، والقاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي بجيان ، وأحمد بن ملحان بوادي آش •

أما المرية فقد ثار أهلها أيضا على المرابطين ، ودخلت في فلك دولة الموحدين ، وتولى على جيوش الموحدين بها عبدالله بن سليمان الذي قتله البحريون رجالة القطائع[1] •وقد أسكن عبد المؤمن المرية قبيلة كومية[2] البربرية • وكان أول ولاة الموحدين عليها من قبل الخليفة عبد المؤمن بن علي وال يقال له يوسف بن مخلوف ، فثار عليه أهل المرية وقتلوه على نحو ما فصلناه في الفصل الاول ، وعرضوا رئاستهم على قائد البحر محمد بن ميمون ، فلم يقبل ، فقدموا على أنفسهم أبا يحيى بن الرميمي[3] ، فضبطها الى أن استولى عليها الفونسو السابع ريموند الملقب عند مؤرخي العرب بالسليطين ملك قشتالة[4] في ٢٠ جمادى

---

(١) انظر (ابو بكر الصنهاجي) البيذق ، كتاب اخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين : تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٢٨ ، ص ١٢٦ •

(٢) نفس المرجع ص ١٢٧ •

(٣) المراكشي ، ص ٢١٠ ــ المقري ، ج ٦ ص ٢٠٦ •

(٤) مجموع رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية ، نشرها ليفي بروفنسال ، الرباط ١٩٤١ ، ص ٧٥ ــ المقري ، ج ٦ ص ٢٠٧ •

الاولى سنة ٥٤٢ هـ (اكتوبر سنة ١١٤٧ م) ، ودخلها عنوة[١] .

ويبدو أن المرية كانت تابعة لابن مردنيش قبل أن يغزوها النصارى ، اذ كان قد أقام عليها أحد أقاربه واسمه محمد بن سعد[٢] ، ويرجح اشباخ أنها كانت امارة مستقلة يحكمها القراصنة ، ويذكر أن السبب في غزو النصارى لها اتخاذ القراصنة من مرساها وكرا لسفنهم يخرجون منه للاغارة على شواطىء اسبانيا المسيحية (جليقية واشتوريش وبرشلونة والبرتغال) وشواطىء فرنسا وايطاليا الجنوبية[٣] . وكان محمد بن سعد أمير بلنسية ومرسية وقت غزو النصارى للمرية مشغولا بمحاربة المرابطين والنصارى في آن واحد ، فلم يتهيأ له الدفاع عنها ، وأحاط النصارى بالمرية من البر والبحر[٤] ، وملأوا فحص المرية الشرقي بجيوشهم الكثيفة ، وضربوا الحصار عليها طوال ثلاثة شهور ، فلما نفذت الاقوات ، وانعدمت الميرة ، اضطر أهل المرية الى تسليم المدينة لالفونسو السابع ، واستشهد عند دخول النصارى المدينة عدد كبير من المسلمين ، نخص بالذكر منهم العالم الجليل الحافظ أبو محمد عبدالله الرشاطي المري[٥] ، كما أسر عدد هائل من أهل المرية آلوا الى الكونت

---

(١) استولت عليها قوات قشتالية وقطلانية ونبرية وجنوية مشتركة (انظر كوديرا ، ص ١٣٥) ويذكر اشباخ أنه اشترك في غزو المرية الكونت ريموند برنجار الرابع صاحب برشلونة وجيوم صاحب منبلييه وملك نبره وعدد كبير من سفن الجنويين والبيزيين . (تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة الاستاذ عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٥) .

(٢) كوديرة ، ص ١٢٧ ــ اشباخ ، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٢٢٣ .

(٣) اشباخ ، المرجع السابق ص ٢٢٤ .

(٤) المراكشي ، ص ٢١١ ــ اشباخ ، ص ٢٢٤ .

(٥) المقري ، ج ٦ ص ٢٠٦ ــ ابن الابار التكملة لكتاب الصلة، مدريد ١٨٨٦ ، ص ٧٥٦ ابن الابار ، المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ، مدريد ١٨٨٥ ، ص ٢١٨ (سنتحدث عن الرشاطي عند معالجة الحياة الفكرية في المرية) ــ ابن بشكوال ، الصلة في تاريخ أئمة الاندلس ، مدريد ١٨٨٣ ، رقم ٦٤٨ .

ريموند[١] ، منهم ١٤ ألفا من الإبكار[٢] .

وكان الموحدون قد دخلوا الاندلس وقتئذ وفرضوا طاعتهم على قادس وإشبيلية وقرطبة ومالقة والجزيرة ، فحاولوا استرجاع المريـة سنة ٥٤٦ هـ[٣] ، وحاصروها ولكنهم لم ينجحوا في تخليصها من العدو بسبب حصانتها ، وان كانوا قد تمكنوا من اقتحام المرسى وحرق السفن والاجفان الراسية والوصول الى المسجد الجامع[٤] .

ج ــ استرجاع الموحدين للمرية :

ولما تغلب الموحدون على غرناطة سنة ٥٤٩ هـ ، واستتب نفوذهم في جنوبي الاندلس ، تلقى والي الجزيرة ومالقة وغرناطة السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن أمر أبيه بمحاصرة المرية برا وبحرا ، فتقدم السيد أبو سعيد عثمان الى المرية للجهاد في صحبة أخيه أبي حفص[٥] ، ويذكر عبد المؤمن بن علي في رسالة من انشاء كاتبه أبي عقيل عطية بن عطية الى الطلبة وأشياخ الموحدين ببجانة ، أنه رأي « أمر المرية ــ حرسها

---

(١) اشباخ ، ص ٢٢٦ .

(٢) المقري ، ج ٦ ص ٢٠٦ .

(٣) المقري ، ج ٦ ص ١١٢ .

(٤) يمكننا أن نقرأ في احدى الرسائل الموحدية من انشاء الكاتب ابي جعفر بن عطية من الخليفة عبد المؤمن الى الطلبة بسبتة وصفا لهذه المحاولة الجريئة . فيذكر الكاتب ان ابا محمد عبدالله بن سليمان وبعض اصحابه ركبوا القطائع نحو المرية ، فلما شاهدهم النصارى تحصنوا بشخاتيرهم (سفنهم) فملؤوها سلاحا ورجالا ، ولكن المغيرين تمكنوا من قطع احبال هذه الشخاتير ففر النصارى الى داخل المدينة ، فاقتفى الموحدون آثارهم ودخلوا المدينة من باب البحر ، واخترقوا المدينة وأشعلوا النيران في منشآتها وما استطاعوا أن يفعلوا واستأصلوا بالقتل كل من ادركوه منهم حتى وصلوا الى المسجد الجامع . ثم عادوا الى قطائعهم ، واجتثوا ما كان راسيا بالمرسى من الغراب والشخاتير فأحرقوا ما لم يمكنهم جلبه معهم وغنموا من الالات الحربية الشيء الكثير ، وعادوا الى سبتة مظفرين (انظر مجموع رسائل موحدية ، ص ١٠ ــ ١٣) .

(٥) المقري ج ٦ ص ٢٠٧ .

الله ــ من أهم الامور وآكدها في هذا الغرض المبرور ، والامل الميسور ، لكونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية ، ورابطة بين البلاد البرية والبحرية»[١]. وكان النصارى قد انتشروا ظاهرها على الربى والبطاح ، فابتدرهم الموحدون بالهجوم وتغلبوا عليهم ، ففر القشتاليون داخل المدينة ، وتبعتهم جيوش الموحدين ، واقتحمت على القشتاليين أبواب المرية[٢]، واستولوا عليها. ولكن النصارى لاذوا بالقصبة وتحصنوا فيها خوفا من سيوف الموحدين ، فحاصر الموحدون القلعة ، وأقامت عساكرهم بظاهرها المرتفع ، وعسكرت على الجبل الذي يطل علـى القصبة[٣] . ويذكر كل من النويري والسلاوي أن أبا سعيد أقام على محلته سوار بين الجبل والبحر، وحفر خندقا حوله بحيث أصبح يحدق بالقصبة والمدينة في آن واحد[٤]، ثم نصب المجانيق على القصبة[٥]، وطال الحصار ، وساءت حال النصارى المحصورين بالقصبة ، فاستصرخوا الملك الفونسو السابع السليطين ، فأقبل الى نصرتهم[٦] ، على رأس جيش يتألف من اثني عشر ألف مقاتل ، وانضم اليه حليفه ابن مردنيش في قوة قوامها ستة آلاف ، « وتضافرت جموعهم البائدة ، وجنودهم الحائدة ، على المرية ــ حرسها الله ــ في أحفل عدد ، وأوفر مدد ، فلم يزد الموحدين ذلك الا شهامة وصرامة ، ولا تعرفوا بنزول الكفرة الا عدة وكرامة »[٧] . ومع ذلك فقد ظل الموحدون يقاتلون النصارى والمسلمين داخلا وخارجا[٨]،واضطر

---

(١) مجموع رسائل موحدية ، ص ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٧٤ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٧٥ .
(٤) النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٢ ص ٢٠٤ ــ السلاوي ، الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى ، ج ١ ص ١٤٩ ــ كوديرا ص ١٣٧ .
(٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، ج ١ ص ٢٧٩ .
(٦) نفس المرجع ص ٢٧٩ .
(٧) مجموع رسائل موحدية ، ص ٧٥ .
(٨) المقري ، ج ٦ ص ٢٠٧ .

السيد أبو سعيد الى استمداد الخليفة عبد المؤمن ، فوجه اليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ، صحبة ابنه الامير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بإشبيلية ، وكان قائدا في جيوش الموحدين من الرجالة ، كما كـان معروفا بتفوقه في الرماية[1] ، فازدادت قوة الموحدين بمقدمه صلابة ، ويبدو أن ابن مردنيش خجل من نفسه ، اذ رأى « العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى ، فارتحل »[2] . وولى جنود الفونسو الادبار خوفا ووجلا ، تاركين حامية القصبة لمصيرها التعس ، ومات الفونسو في طريقه الى بياسة سنة ٥٥٢ هـ ، وخلا الجو للموحدين ، فأخذوا بمخنق المحصورين ، وظن هؤلاء المحصورون بعد رحيل مليكهم وجيشه أن الموحدين جاءهم مدد ، فاصطلحوا معهم ، ودخل الموحدون القصبة ، وقد خربت وضعفت[3] ، وهكذا نجح أبو سعيد في استنزال النصارى من المرية في سنة ٥٥٢ هـ على العهد بعد حصار دام سبعة أشهر[4] بفضل جهود الوزير ابن عطية[5] ، وتحررت المرية بعد احتلال دام عشر سنين .

د ـ اضمحلال المرية في عصر دولتي الموحدين وبني نصر :

استرد الموحدون المرية ، وقد تهدمت أبنيتها ، وتغيرت محاسنها ، وفي ذلك يقول الشريف الادريسي : « والمرية في هذا الوقت الذي ألفنا كتابنا هذا فيه صارت ملكا بأيدي الروم ، قد غيروا محاسنها ، وسبوا أهلها ، وخربوا ديارها ، وهدموا مشيد بنيانها ، ولم يبقوا على شيء

---

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ص ٢٧٣ .

(٢) المقري ، ج ٦ ص ٢٠٧ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ص ٢٧٩ .

(٥) السلاوي ، الاستقصا ، ص ١٤٩ .

منها »[1] .

ويبدو أن المسجد الجامع بالمرية قد أصيب بأضرار فادحة أثناء الاحتلال المسيحي ، فأصلحه الموحدون ورمموه ، بدليل وجود زخارف ذات طابع موحدي تكسو الزخارف القديمة بواجهة المحراب[2] ، ولا نستبعد أن تكون أعمال الترميم الموحدية في المرية قد شملت القصبة والاسوار وربض الحوض ، ولعل الرئيس أبا العباس أحمد بن كمال هو الذي قام بكل هذه الاصلاحات ، اذ يقول المقري : « ودخل الموحدون المدينة وقد خربت وضعفت ، الى أن أحيا رمقها الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال »[3] . وقد مدحه الشاعر الوشاح أبو الحسن علي بن المريني وأشار الى تعميره للمرية بقوله :

سألت محيا الصبح من أين نوره ... فقال سل الشمس المنيرة والبدرا
فأجمع كل أنه نور أحمد ... ولولا نداه لم نر القطر والبحرا
كريم به أحيا الاله بلادنا ... وعمرها من بعدما أصبحت قفرا[4]

وكان السبب في قيامه بامارة المرية ، أن أخته أخذت سبية عندما دخل عبد المؤمن بجاية سنة ٥٤٠ هـ ، فاحتلت بقصره ، واعتنت بأخيها ، فولاه المرية ، « فصلح به حالها ، وكان جوادا ، حسن المحاولة ، كثير الرفق »[5] .

ومع ذلك كله ، فلم تستطع المرية أن تسترجع ازدهارها القديم ، وان كانت قد أصبحت منذ بداية القرن السابع الهجري الميناء التجاري الاول في الاندلس ، الذي يتعامل مع الدول المسيحية ، وكانت تصلها السفن من أرغون والجمهوريات الايطالية ومن أقطار أخرى محملة بالبضائع ، فتنفرغها في المرية وتحمل بضائع أخرى أندلسية[6] ويؤكد

(١) الادريسي ، ص ١٩٨ .
(٢) Torres Balbas, Almeria Islamica ,P. 421.
(٣) المقري ، ج ٦ ص ٢٠٦ . ومن أشهر ولاة المرية في عصر الموحدين في القرن السابع الهجري الامير أبو عمران بن أبي حفص (المقري ، ج ٤ ص ٢٠٦) .
(٤) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ٢١٣ .
(٥) نفس المرجع .
(٦) Torres Balbas, op. cit. P. 445.

ذلك ما ذكره الشقندي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ بقوله : « وبها كان محط مراكب النصارى ، ومجتمع ديوانهم ، ومنها كانت تسفر لسائر البلاد بضائعهم ، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي تصلح لهم ، وقصد بضبط ذلك بها حصر ما يجتمع في أعشارهم ولم يوجد لهذا الشأن مثلها، لكونها متوسطة ،ومتسعة ، قائمة بالوارد والصادر »[1] .

ومما لا شك فيه أن المرية لم تعد تحتل في عصر الموحدين المكانة السامية التي كانت تحتلها في عصر الطوائف وعصر المرابطين ، وبينما أخذت المرية في الذبول بعد أن استردها المسلمون سنة ٥٥٢ هـ ، بدأت إشبيلية تشق طريقها نحو المجد وتتطلع الى العلا ، وأخذت هذه المدينة تلعب دور الطليعة في مدن الاندلس ، ولم نعد نطالع عن المرية في كتب التاريخ الاندلسي الا أخبارا متفرقة ، واشارات عابرة ، بين حوادث الاندلس في القرون الثلاثة الاخيرة السابقة على سقوطها نهائيا في أيدي فرناندو الكاثوليكي .

وكانت الفترة ما بين هزيمة محمد الناصر في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ وخلافة أبي العلاء ادريس سنة ٦٢٥ هـ فترة اضمحلال تام بالنسبة للمرية ، فقد امتلأت هذه الفترة بالاضطرابات العنيفة ، وأخذ رؤساء الاندلس ، بعد أن التاث أمر الموحدين ، ينتزون بنواحي الاندلس ، وقامت الفتنة الثالثة في تاريخ الاندلس ، واشتعلت الثورات في كل مكان ، وكان المحرك الاول لهذه الثورات هو محمد بن يوسف ابن هود الجذامي الثائر بمرسية ، وقد تمكن ابن هود من التغلب على شرق الاندلس كله ، وفرض سلطانه على مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية والجزيرة الخضراء وماردة ، وأيقن أهل الاندلس أن امارته ستكون مخرجا لهم من حالة الفوضى والاضطراب التي شملت

(١) المقري ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

بلادهم في ذلك الحين . ولكن جهود هذا الامير اصطدمت بحركات مضادة من جانب أبي العلاء ادريس من جهة ، والقشتاليين والارغونيين من جهة ثانية ، وبعض خصومه من رؤساء الاندلس من جهة ثالثة ، نخص بالذكر منهم محمد بن يوسف بن نصر صاحب حصن أرجونة ، الذي تمكن من الاستيلاء على جيان وشريش سنة ٦٣٠ هـ ، وعلى إشبيلية سنة ٦٣٢ هـ ، وعلى غرناطة ووادي آش وبسطة سنة ٦٣٥ هـ . وانتهز القشتاليون والارغونيون فرصة قيام الحرب الاهلية بين مسلمي الاندلس واستولوا على بعض مدن الاندلس ، وكان القشتاليون قد اغتصبوا القسم الاعلى من الاندلس حتى أندوجر منذ بداية الفتنة حتى سنة ٦٣٣ هـ ، بينما أتم الليونيون فتح اقليم استرامادورة . فلما اتحدت قشتالة وليون تحت تاج واحد في ظل فرناندو الثالث ، أتيح له الاستيلاء على بياسة وبذة سنة ٦٣٣ هـ وعلى قرطبة حاضرة الاندلس في العصر الاموي سنة ٦٣٦ هـ ، وعلى إشبيلية سنة ٦٤٦ هـ ، وتمكن أخيرا من ضم قادس ولبة وجميع المدن الواقعة بالقرب من مصب الوادي الكبير. أما في شرق الاندلس فكان حظ خايمي الاول ملك أرغون أعظم من حظ فرناندو ، اذ تمكن من الاستيلاء على ميورقة والجزر الشرقية فيما بين عامي ٦٢٧ هـ ، ٦٣٥ هـ ، واستسلمت له بلنسية في سنة ٦٣٦ هـ ، ونجح في سنة ٦٤٥ هـ في الاستيلاء على جزيرة شقر ، وشاطبة ، أما مرسية فقد ضمها اليه فرناندو الثالث ملك قشتالة في سنة ٦٤١ هـ[1] .

وكانت المرية قد دخلت في طاعة ابن هود في سنة ٦٢٥ هـ ، وقام بدعوته فيها أبو عبدالله محمد بن عبد الملك بن أبي يحيى بن الرميمي ، ثم وفد عليه ابن الرميمي بمرسية فاستوزره ابن هود ولقبه بذي

---

(1) Terrasse (H.) Histoire du Maroc, t. I, P. 349 sq.

الوزارتين[1] « وصرف اليه سياسته ، وآل أمره معه الى أن أغراه بأن يحصن قلعة المرية ويجعلها له عدة ، وهو يبغي ذلك عدة لنفسه »[2] ، ثم ولاه ابن هود عمل المرية ، فعاد اليها ابن الرميمي وهو ينوي الخروج على سيده . ويذكر المقري أن ابن هود كان قد ترك بالمرية جارية حسناء تعلق بها ابن الرميمي ، واعتدى عليها ، فبلغ ذلك ابن هود ، فبادر الى المرية معتزما في الظاهر أن ينقل بعض قواته في البحر لانقاذ بلنسية من السقوط في أيـدي الارغونيين ، وكان ينوي في الباطن الايقاع بابن الرميمي ، بينما كان ابن الرميمي يدبر خطة لقتله ، فاستضافه ابـن الرميمي في قصره بالمرية ، ودبر قتله غيلة « وتغدى به قبل أن يتعشى به »[3] . ولا نعرف الطريقة التي قتله بها ابن الرميمي ، ولكن ابـن خلدون يذكر أنه هلك بالحمام ، سنة ٦٣٥ هـ ، كمـا يذكر في نفس الوقت رواية أخرى تقول بقتله[4] . ثم أخرجه ابن الرميمي من قصر المرية وأرسله في تابوت حملته احدى السفن الى مرسية حيث دفن . أما ابن الرميمي فاستبد بملك المرية التي أن استولى عليها الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر في سنة ٦٤٣ هـ . ويبدو أن السبب في استيلاء ابن نصر على المرية يرجع الى أن أحد أبناء ابن الرميمي قـام بالثورة عليه[5] ، واستعان في سبيل ذلك بفرقة من فرسان النصارى للتغلب بواسطتهم على المدينة ، ولكن ابن الرميمي شك في نوايا هؤلاء الفرسان وخشي منهم أن يتغلبوا على المدينة[6] . ولما لم يجد في نفسه القدرة على حماية المدينة من خطر السقوط في أيدي العدو الذي فغر فاه لالتهام ما

---

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٤ ص ١٦٩ .
(٢) المقري ، ج ٦ ص ٢٠٨ .
(٣) المقري ، نفس المرجع .
(٤) ابن خلدون ، ص ١٦٩ .
(٥) المقري ، ج ٦ ص ٢٠٨ . ولعله المؤيد الذي يشير اليه ابن خلدون ص ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٦) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٨٦ .

شاء من بلاد المسلمين ، آثر أن يسلمها لمن هو أجدر بتملكها والدفاع عنها ، فاتصل بالامير الغالب بالله ، وأشار عليه بحصار ابنه ، ولم يتردد ابن نصر في المجيء ، ومحاصرة المدينة فترة من الوقت والاستيلاء عليها . وفي أثناء الحصار ركب ابن الرميمي البحر في مركب بأهله وعياله وأمواله وسار الى تونس[١] ، وسلمت المدينة بعد ذلك لابن نصر . ويبدو أن ابن الرميمي كان يخشى أن يقبض عليه ابن نصر فيعاقبه لقتله ابن هود ، ولعل هذا هو السبب في أنه جاز في مركب أعده لذلك ، وأحرق ما يخاف اتباعه به من الاجفان الراسية بمرسى المرية[٢] . ومما يؤكد ما ذكرناه قول ابن خلدون : « ثم استبد من بعده (أي ابن الرميمي) المؤيد ، واستنزله عنها ابن الاحمر »[٣] وقوله أيضا « ثم تناول المؤيد من محمد ابـن الرميمي ، فخلعه أهـل البلد سنة ثلاث وأربعين وبايعوا لابن الاحمر »[٤] .

اتسعت المرية بمن وفـد اليها من مسلمي الاندلس الذين أنفوا الحياة في بلادهم في ظل الحكم المسيحي[٥] ، وأصبحت في القرنين ١٤ ، ١٥ م أهم ثغور مملكة غرناطة بعد مدينة مالقة[٦] ، فقد تقلص ملـك المسلمين في الاندلس وأصبحت مملكة غرناطة تقتصر على القسم الجنوبي من شبه جزيرة أيبيريا . وتمتد سواحلها من المرية شمالا الى طريف في أقصى الجنوب . وفي سنة ٧٠٩ هـ هاجم خايمي الثامن ملك أرغون ثغري المرية وجبل طارق ، وبذل النصارى جهودا هائلة للاستيلاء على المرية ، ونصبوا على أسوارها الآلات الضخمة ، فلقيهم المسلمون بقيادة أبي

---

(١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن ابي شنب ، الجزائر ١٩٢٠ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) ابن الخطيب اعمال الاعلام ، ص ٢٨٦ — الذخيرة السنية ٦٠ ، ٦١ .

(٣) ابن خلدون ، ص ١٦٩ .

(٤) نفس المرجع ص ١٧٠ .

(٥) المقري ، ج ٦ ص ٢٥٧ .

(٦) لم يبق للمسلمين من الثغور سوى المرية والمنكب ومالقة وطريف والجزيرة الخضراء وجبل طارق .

مدين شعيب وردوهم على أعقابهم بعد أن كبدوهم خسائر فادحة ، ثم اشتبك جيش الاندلس بقيادة شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء المريني وجيش أرغون ، وانتهت معركة المرية بهزيمة النصارى ورفع الحصار عن المدينة[1] ، بعد ستة شهور • أما جبل طارق فلم تطل مقاومته اذ سقط في أيدي النصارى •

وشهدت المرية في عصر دولة بني نصر أحداثا خطيرة ، ففيها قام أبو سعيد فرج بن اسماعيل صاحب مالقة ضد السلطان ، وخلعه في النهاية في سنة ٧١٢ هـ[2] ، وفيها تحصن شيخ الغزاة عثمان أبي العلاء في عهد أبي عبدالله محمد بن أبي الوليد اسماعيل سنة ٧٢٩ هـ[3] ، وفيها نفى الوزير أبو النعيم رضوان سنة ٧٤٠ هـ ، فأقام بها مدة[4] ، واليها فر الاميران أبو عبدالله محمد وأبو الحجاج يوسف ابنا أبي الحسن علي بن سعد النصري سنة ٨٨٧ هـ، خوفا من أن يفتك بهما باشارة حظيته الرومية ثريا، وقد استقرا بعد ذلك بوادي آش وبايعتهما المرية وبسطة وغرناطة ، بينما فر أبوهما الى مالقة[5] •

وأصيبت المرية في منتصف القرن الثامن الهجري بوباء الطاعون[6]،

---

(١) درة الحجال في غرة أسماء الرجال ، مجلة هسبريس ١٩٣٣ ص ١٢٣ ، مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٤٨٥ ، محمد عبدالله عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٨٨ ، ٨٩ • يقول ابن الخطيب في اللمحة البدرية في الدولة النصرية (القاهرة ١٣٤٧ هـ) ص ٦٢ أن صاحب برجلونة نازل مدينة المرية غرة ربيع الاول من سنة ٧٠٩ واخذ بمخنقها ، وتفرقت الظباء على خراش ، ووقعت على جيش المسلمين الناهد اليه وقعة كبيرة واستمرت المطاولة الى آخريات شعبان ، ونفس الله الحصر وفرج الكرب • وفي موضع آخر ذكر أن الذي أغار على المرية هو جايمش بن الفونش (ص ٤٤) وذكر ايضا أن جايمش بن بطره هو الذي نازل على أيامه مدينة المرية وشهد حصارها وهزم جيش المسلمين بخارجها الى تمام أيامه وصدرا من أيام من بعده (ص ٦١) •

(٢) الاحاطة ، ج ١ ص ٢٢٧ •

(٣) محمد عبدالله عنان ، نهاية الاندلس ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٩٣ •

(٤) الاحاطة ، ج ١ •

(٥) المقري ، ج ٦ ص ٢٦٢ •

(٦) وهو الوباء المعروف بالفناء الكبير •

قضى على عدد كبير من سكانها ، ويذكر ابن خاتمة في كتاب « تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد » أن هذا الوباء غزا افريقية ثم انتشر الى مصر وآسيا ثم امتد الى ايطاليا وفرنسا واسبانيا وسبب خسائر فادحة ، وكانت المرية أكثر البلاد اصابة بهذا الوباء ، فتفشى فيها مدة احدى عشر شهرا ، من ربيع الاول سنة ٧٤٩ هـ الى بداية العام التالي[١] .

ولا شك أن هذا الوباء ساعد على اضمحلال المرية ، فيذكر ابن خاتمة أن الجانب الغربي من المدينة كان مهجورا[٢] . وهناك عامل آخر ساعد على زيادة اضمحلالها ذلك أن البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، تدهورت تدهورا ملحوظا بسبب الحروب المتواصلة بين المسلمين أنفسهم[٣] .

وعلى الرغم من كل هذه الكوارث التي أصابت المرية ، فقد ظلت تحتفظ بشهرتها البحرية ، ويشير العمري في مسالك الابصار الى أنها أصبحت تأوي في خليجها قراصنة البحر الذين كان همهم الوثوب على السفن المارة بنواحيها كما اعتادوا الاغارة على السواحل المسيحية لسبي النصارى وبيعهم في سوق النخاسة[٤] .

(١) Pons Boigues, Ensayo, P. 331.

(٢) Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 446.

(٣) يقول ابن خلدون : « ولما هلك ابو يعقوب يوسف المنصور واعتلت دولة الموحدين ، واستولت أمم الجلالقة على الاكثر من بلاد الاندلس ، والجأوا المسلمين الى سيف البحر ، وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريحهم في بسيط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم ، وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم ، كما وقع لعهد السلطان ابي الحسن ملك زناتة بالمغرب ، فان أساطيله كانت عند مرامة الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ، **ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الاساطيل لضعف الدولة** ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية » المقدمة ص ٥٦ .

(٤) Al-Umari, Masalik al-Absar, trad. de Gaudefroy — Demombynes, PP. 237-239 — Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 446.

وأصبحت المرية بعد سقوط مالقة في شعبان سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) والمنكب في أواخر سنة ٨٩٤ هـ (١٤٨٩) المنفذ الوحيد الذي تصل اليه الامدادات والاقوات من المغرب الى الاندلس • وأدرك فرناندو الرابع أهمية الاستيلاء على المرية بالنسبة لهدفه الاكبر وهو الاستيلاء على غرناطة آخر معقل للاسلام في الاندلس • فكرس كل جهوده لتحقيق هذا الهدف ، ففي ١٠ من المحرم سنة ٨٩٥ حاصر مدينة بسطة ودخلها النصارى واستسلمت له مدينة وادي آش والمرية في نفس الوقت[١] • وتبع سقوط المرية خروج عدد كبير من سكانها الى المغرب • ويؤكد الونسو دي بلنثية عند تعرضه لتسليم المرية ، أن المدينة كانت تضم عددا قليلا من السكان ، وأنها كانت في أيام سلاطين بني نصر مدينة عامرة كثيرة السكان[٢] •

وبسقوط المريــة في أيدي الملكين الكاثوليكيين ، طويت صفحة مشرقة من تاريخها الاسلامي ، وبدأ عهد جديد من تاريخها في ظل مملكة قشتالة • وشهدت المرية بعد سقوطها خروج الامير أبو عبدالله محمد بن سعد الملقب بالزغل الى المغرب[٣] ، وخروج ابن أخيه أبي عبدالله محمد ابن أبي الحسن آخر سلاطين بني نصر[٤] الى بر العدوة اذ استحالت عليها الحياة في الاندلس بعد خروجها من أيدي المسلمين •

* * *

(١) المقري ، ج ٦ ص ٢٧٢ •
(٢) Torres Balbas, op. cit. P. 447
(٣) المقري ، ج ٦ ص ٢٧٥ •
(٤) نفس المرجع ص ٢٧٨ •

الفصل الثالث

دراسة التخطيط والعمران واهم الآثار الباقية

(١) تطور عمران المرية في العصر الاسلامي

(٢) المراكز العمرانية الداخلية

أولا : المدينة القديمة

ثانيا : ربضا المصلي والحوض

ثالثا : القصبـــة

(٣) أبواب المرية

١ ــ باب بجانة

٢ ــ باب العقاب

٣ ــ باب موسى

٤ ــ باب الزياتين

٥ ــ باب المرسى

٦ ــ باب البحر

٧ ــ باب مقبرة الحوض ؟ أو باب الرابطة ؟

(٤) ظاهر المدينة

أولا : المقابـــر

ثانيا : المتنزهات

(٥) آثار المرية في العصر الاسلامي

أولا : القصبـــة

ثانيا : أسوار المدينة والربضين

ثالثا : المسجد الجامع بالمرية

رابعا : آثار دار بربض الحوض

الفصل الثالث

دراسة التخطيط والعمران واهم الآثار الباقية

(١)

تطور عمران المرية في العصر الاسلامي

رأينا فيما سبق أن ذكرناه كيف نزل البحريون من أهل الاندلس مرية بجانة في سنة ٢٧١ هـ[١] في أيام الامير الاموي محمد بن عبد الرحمن الاوسط ، وكيف استقروا بها قبل تغلبهم على بجانة ، وكيف أصبحت مرية بجانة فرضتها[٢] وميناءها الذي تصل اليه الميرة والمتاجر من المغرب وثغور الشام ومصر ، كذلك رأينا كيف قامت المرية في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما أمر بتأسيسها واحاطتها بسور حصين ، وكيف تطور المركز العمراني البسيط ، الذي كان يسكنه البحريون ، ببرجه وقلعته ومسجده الجامع الى مدينة صغيرة مسورة .

واذا كانت المصادر العربية قد سكتت عن ذكر ما كانت عليه هذه المدينة عند تأسيسها ، ولم تمدنا بأخبار عن امتداد عمرانها واتساعه في عصر الطوائف عندما اكتملت بربضيها الشرقي والغربي ، فقد توصل مؤرخو اسبانيا في العصر الحاضر الى كشف النقاب عن المدينة الاولى ، بفضل الآثار الباقية من أسوارها ، وبفضل خريطتين قديمتين وصلت

---

(١) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٦٢ .
(٢) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١١٦ .

اليهم، احداهما مؤرخة في سنة ١٦٠٣، والثانية في ١٨٥٥ م[1]، وعلى هذا النحو أمكن تحديد نطاق المدينة الداخلية أو القديمة ، من بين المساحة الكبيرة التي تشغلها المرية الحديثة ، كما أمكن تعيين اتجاهات نموها في العصر الاسلامي شرقا وغربا ، ورسم مخطط لتطور العمران فيها في هذا العصر .

ويسترعى النظر في تخطيط المدينة الاولى ، ظاهرة بارزة ، هي تحكم التضاريس وطبيعة السطح في تخطيطها وانشاء أسوارها المحيطة بها، فالمدينة كانت مستطيلة الشكل[2]، تمتد رقعتها ما بين القلعة المنسوبة الى خيران ، والقائمة بأعلى جبل القصبة شمالا ، وبين ساحل البحر جنوبا ، كما كان يكتنفها من الشرق والغرب واديان ضحلان ، الشرقي منهما ينحدر عموديا تقريبا من الطرف الشرقي للقصبة الى البحر، والثاني ويعرف برملة لا شانكا ، فيتجه من الخندق الفاصل بين جبل الكنيسة والقسم الغربي من جبل القصبة في نفس اتجاه الوادي الشرقي ، ويصل السورين سور قبلي يمتد بحذاء البحر ، وكأنما أراد بناة المدينة أن يفيدوا من المظاهر الطبيعية التي تمتاز بها مرية بجانة في تحصين المدينة المحدثة ، فمن الشمال يرتفع جبل القصبة ، مشرفا على المدينة والمرسى ، ومن الجنوب يؤدي البحر وظيفته الدفاعية كخندق طبيعي ، كما يؤلف الواديان المذكوران حفيرين طبيعيين كذلك .

ولما سقطت الخلافة بقرطبة واشتعلت فيها نيران الفتنة البربرية في بداية القرن الخامس الهجري ، ازداد عدد سكان المرية بمن وفد اليها

---

(١) Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 429

(٢) نفس المرجع ص ٤٣٦ .

من قرطبة بالذات[١] ، مركز الفتنة وبؤرتها ، ومن غيرها من المدن التي اجتاحتها نيرانها ، فقد وجدوا في المرية مجالا أنسب للحياة الهادئة نسبيا ، التي لا تتوفر في غيرها من المدن ، بعيدا عـن الصراع البغيض بـين الطائفتين البربرية والاندلسية ، وهو صراع شمل معظم أنحاء الاندلس بحيث أصبح يطلق على هذا العصر عصر الطوائف لهذا السبب • واكتظت المدينة بهذا السيل المتدفق اليها حتى ضاقت بهم ، وأصبح من الضروري أن يفيض هذا السيل على جانبي المدينة الشرقي والغربي فيمـا وراء أسوارها ، اذ كان من المحال أن يمتـد العمران شمالا لاعتراض جبل القصبة وجنوبا لوجود البحر ، واستلزم الامر أن يتجه العمران الـى الشرق بامتداد فحص المرية الفسيح ، والى الغرب في المنطقة المحصورة بين الوادي المعروف بوادي الرملة ويسمى اليوم « رملة لا شانكا » وبين جبل الكنيسة • وفي هذين الاتجاهين تكون ربضا المدينة : الاول وهو الربض الشرقي ، وأطلق عليه اسم ربض المصلي ، نسبة الى المصلي أو الشريعة القديمة التي كانت تقع خارج الباب الشرقي من المرية الاولى[٢]، والمصلي في المدن الاسلامية فضاء فسيح ، يقع عادة خارج أسوار المدينة كانت تقام فيه صلوات العيدين والاستسقاء أيام الجفاف • وقد عرف مصلي المرية باسم الشريعة القديمة ، لان امتداد العمران خارج نطاق أسوار المرية الاولى استلزم انشاء شريعة جديدة في نفس الاتجاه خارج

---

(١) كان الاديب الفيلسوف أبو محمد بن حزم القرطبي من بين هؤلاء الذين رحلوا من قرطبة الى المرية فرارا من الفتنة الغاشمة ، ويقص هذا الفيلسوف قصة لجوئه الى المرية فيقول : « الى أن ألقت الفتنة جرانها ، وارخت عزاليها ، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي من قرطبة ، ونزولهم فيها ، ... وتقلبت بي الامور الى الخروج من قرطبة وسكني مدينة المرية .. » ابن حزم ، طوق الحمامة في الالفة والالاف ، تحقيق ليون برشيه Léon Bercher الجزائر ١٩٤٩ ، ص ٣٠٤ •

(٢) Torres Balbas; Musalla y Saria, Al-Andalus, Vol. XIII, 1948, P. 175.

أبواب الربض الجديد • أما الثاني فهو ربض الحوض ، وأغلب الظن أنه سمي كذلك بسبب جب كبير كان موجودا في هذه الناحية ، كالجب الموجود اليوم في الربض الشرقي • ويرجح الاستاذ هنري بيريس أن هذا الجب يرجع الى عصر خيران العامري[1] •

ولتأمين هذين الربضين من غارات البربر أو أهل الاندلس في هذا العصر المشحون بالفتن والاضطرابات،كان لا بد من تحويطهما بالاسوار، كما حدث في غيرها من مدن الاندلس في زمن الفتنة ، مثل قرطبة[2] ، وإشبيلية[3] ، وقرمونة[4] ، وغرناطة[5] ، وبلنسية[6] ، وغيرها من مدن الاندلس في زمن الفتنة • ويذكر الحميري أن ربض المصلي بالمرية عليه « سور تراب بناه خيران العامري »[7] ، وكان خيران هذا قد أوصل الى هذا الربض ماء العين المجاورة للمرية[8] ، وأجراه في ساقية الى الربض[9] ، وقد قام المعتصم محمد بن صمادح بعد ذلك بتوصيل هذه

(١) Henri Pérès, La Poésie andalouse, P. 142

(٢) ذكر ابن الاثير أن هشام المؤيد وواضح أقاما سورا وخندقا على قرطبة امام السور الكبير (الكامل ، ج ٧ ص ٢٤٨) كما ذكر ابن الخطيب أن المهدي بن عبد الجبار هو الذي احتفر حول قرطبة خندقها (أعمال الاعلام ، ص ١١٦) الذي يدور حولها من جهاتها الثلاث الشرقية والغربية والشمالية اما الجهة القبلية فكان النهر يقوم بوظيفته كخندق طبيعي (نفس المرجع ص ١٠٣) • وذكر المقري نقلا عن ابن بشكوال ان أرباض قرطبة كانت جميعها بغير سور ، فلما كانت « أيام الفتنة صنع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع » (المقري ، ج ٢ ص ١٤) •

(٣) ذكر الحميري أن سور اشبيلية بني في الفتنة بالتراب (الحميري ، ص ٢١) •

(٤) الحميري ، ص ١٥٩ •

(٥) أقام حبوس بن ماكسن أسوار مدينة غرناطة واسس قصبتها (المقري ، ج ١ ص ١٤٣) ثم حصنها عبدالله بن بلقين بن باديس وشيد بها الحصون خوفا من غزو يوسف بن تاشفين لبلاده بعد عودته من حصار ليبط (أنظر مذكرات الامير عبدالله الزيري ، ص ١٢٠) •

(٦) أقام بها مبارك ومظفر العامريان سورا أحاط بمدينتها (ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٦٠)•

(٧) الحميري ، ص ١٨٤ •

(٨) لعلها عين النطية التي ذكرها ابن سعيد المغربي (أنظر المغرب ، ج ٢ ص ١٩٤) •

(٩) الحميري ، ص ١٨٤ ــ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢١٢ •

المياه الى ساقية عند المسجد الجامع بالمرية داخل المدينة ، ثم رفعها بالدواليب الى أعلى القصبة(١) .

أما السور الدائر بربض الحوض فأغلب الظن أنه كذلك من انشاء خيران ، لان المدينة اتسعت من الجانبين في آن واحد ، فلا بد أن يكون الربضان قد أحيطا بالاسوار في عهد واحد ، وكان نطاق هذا الربض أقل اتساعا من نظيره الشرقي ، والسبب في ذلك يرجع الى ضيق البسيط الواقع بين وادي الرملة الغربي والسفوح المنحدرة للجبل المعروف منذ القرن الثامن الهجري باسم جبل الكنيسة ، وهنا نشهد تحكم طبيعة السطح في تحديد مساحة العمران في هذه الناحية . وقد أشار العمري في الربع الاول من القرن الثامن الهجري الى الفارق الكبير في المساحة بين الربضين(٢) ، كذلك لاحظه ابن خاتمة بعد ذلك بسنوات ، اذ ذكر أن ربض المصلي يزيد في اتساعه عن المدينة وربض الحوض معا(٣) .

وهكذا كانت مدينة المرية منذ الربع الاول من القرن الخامس الهجري تشتمل على أربعة مراكز عمرانية هي : ١ ـ المدينة الوسطى أو الداخلية ، وتعتبر المركز الاساسي الذي تلتف حوله بقية المراكز . ٢ ـ القصبة ، وتقع شمالي المدينة على جبل مرتفع ، يفصله عن الجبل الشمالي الشرقي المسمى بجبل لاهم(٤) خندق يسمى بخندق باب موسى. ٣ ـ ربض المصلي(٥) ويمتد شرقي المدينة ٤ ـ ربض الحوض(٦) ،

---

(١) الحميري ، نفس المرجع .

(٢) Ibn Fadl Allah al-Umari, Masalik al-Absar fi mamalik al-Amsar, I, L'Afrique, moins l'Egypte, trad. Gaudefroy-Demombynes, Paris 1927, P. 246.

راجع ايضا النص الذي نشره الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب لابن فضل الله العمري بعنوان « وصف افريقية والمغرب والاندلس » نشره بتونس ص ٤٦ .

(٣) Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 437.

(٤) الادريسي ، ص ١٩٧ .

(٥) العمري ، ص ٢٣٩ ، الحميري ، ص ١٨٣ .

(٦) الادريسي ، ص ١٩٩ ـ المقري ، ج ١ ص ١٥٤ .

ويقع غربي المدينة الوسطى بين وادي الرملة وجبل الكنيسة .

هذا التقسيم يطابق ما ذكره الشريف الادريسي عند وصفه للمرية اذ يقول : « والمرية في ذاتها جبلان ، وبينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة ، والجبل الثاني منهما فيه ربضها ويسمى جبل لاهم ، والسور يحيط بالمدينة وبالربض ، ولها أبواب عدة ، ولها من الجانب الغربي ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض »[1] .

وكانت مدينة المرية بربضيها الشرقي والغربي في عصر المرابطين مدينة عامرة زاهرة ، كثيرة الخيرات ، مكتظة بالسكان ، وأهلها مياسير لاشتغالهم بالتجارة والصناعة ، ولم يكن في بلاد الاندلس الاخرى أكثر منهم مالا ولا أعظم متاجر وذخائر[2] . وأكثر صناعات المرية شهرة صناعة الحرير والديباج التي فاقت به غيرها من البلاد[3] . وقد بلغ عمران المرية ذروة نموه في هذا العصر ، ويقدر الاستاذ توريس بلباس عدد دور المرية في الفترة ما بين أواخر القرن الخامس الهجري والنصف الاول من القرن السادس حتى سنة ٥٤٢ هـ بنحو ٤٦٠٤ دارا يسكنها أكثر من ٢٧ ألفا من السكان بمعدل ستة أشخاص في كل دار[4] ، وهو أقل تقدير لعدد سكان المدينة في ذلك الوقت .

ولكن استيلاء النصارى على المرية في سنة ٥٤٢ هـ وضع حدا لهذا

---

(١) الادريسي ، ص ١٩٧ .

(٢) يقول الادريسي : « لم يكن بالاندلس أيسر من اهلها مالا ولا أتجر منهم في الصناعات واصناف التجارات تصريفا وادخارا » ويقول في موضع آخر « وكان أهلها مياسير ، ولم يكن في بلاد الاندلس أحضر من اهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا » (انظر : نزهة المشتاق ص ١٩٧ ، ١٩٨) .

(٣) المقري ، ج ١ ص ١٥٣ .

(٤) Torres Balbas, Extension y Demografia de las ciudades hispano-musulmanas, en Studia Islamica, t. III, Paris, 1955, P. 54 — Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 452.

الازدهار ، فأصيب عمرانهـا بنكسة شديدة[١] ، واقتصرت المراكـز المعمورة في المرية حتى بعد أن أحيا الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال رمقها عند استرداد الموحدين للمدينة ، على المدينة وربض المصلي ، بينما هجر ربض الحوض تماما . ويصفه العمري في القرن الثامن الهجري بأنه أصبح لا عمارة به لا يتجول في ممشى أسواره سوى الحراس والسمار الموكلون بمراقبة الاسوار وحراستها[٢] ، ويصفه ابن خاتمة قبل ختام القرن الثامن الهجري بأنه أصبح مجرد سهل خرب لا تقوم فيـه أبنية سوى أسوار الربض نفسها[٣] . وقد وصل الينا هذا الربض في العصر الحاضر مهجورا كذلك .

وباضمحلال المدينة في القرن السادس الهجري قل عدد سكانها ، وقد ساعد على ذلك أيضا الوباء الذي نكبت به المرية في منتصف القرن الثامن الهجري ، ومات به عدد كبير من سكانها . وعلى الرغم من وفود عدد كبير من سكان المدن الاندلسية التي سقطت في أيدي النصارى الى المرية ، واستقرارهم بها منذ أواخر القرن الثامن الهجري ، فـان ألونسو دي بلنسية يؤكد أنه لـم يكن بالمرية عندما تسلمها الملكان الكاثوليكيان سنة ١٤٨٩ الا عدد قليل من السكان ، وقد أشار الرحالة الالماني منتزر الى اضمحلال العمران بالمرية في أيامه وقلة أبنيتها ، فذكر أن عدد دورها لم يعد يصل الى ثمانمائة دار في أيامه بعد أن كان يصل في العصر الاسلامي الى خمسة آلاف دار[٤] .

* * *

(١) يشهد الادريسي بهذا التدهور في العمران ، وينسبه الى النصارى الذين « خربوا ديارها ، وهدموا مشيد بنيانها ، ولم يبقوا على شيء منها » ص ١٩٨ .

(٢) Al-Umari, Masalik al-Absar, P. 246. — وصف افريقية والمغرب والاندلس ص ٤٦ .

(٣) Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 438.

(٤) J. Münzer, Viaje por Espana y Portugal, trad. Lopez Toro, Madrid 1951, P. 30 — Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 452.

(٢)
المراكز العمرانية الداخلية

اولا : المدينة القديمة :

تعتبر المدينة القديمة التي أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بتأسيسها في سنة ٣٤٤ هـ النواة الاساسية المركزية التي تجمعت حولها البؤرات العمرانية الاخرى مؤلفة معها ، مجموع المدينة المسماة منذ منتصف القرن الرابع الهجري بالمرية ، وتتمثل هـــذه المجموعة العمرانية في ربضيها الشرقي والغربي وفي القصبة الجوفية •

وكانت المدينة القديمة المسورة في القرن الرابع الهجري تشمـــل بقعة من الارض على شكل مستطيل مساحته ٥٦٠ × ٣٥٠ مترا مربعا ، بحيث تغطي ما يقرب من ١٩ ١/٢ هكتارا دون احتساب القصبة[١] من مجموع مساحتها بالارباض والقصبة البالغ نحو ٧٩ هكتارا[٢] •

وقد عرفت هذه المدينة القديمة في القرن الثامن الهجري ، باسم المدينة الداخلية[٣] ، وذلك تمييزا لهذه المرية القديمة من بين مجموع مراكزها العمرانية • وكـــان المسجد الجامع يقوم في وسطها ، وكانت الاسواق والحمامات والفنادق تتوزع حول ساحته ، وتقع القيسارية جنوبي المسجد ، أما دار الصناعة فكانت تحتل الركن الجنوبي الشرقي

(١) Torres Balbas, Almeria, P. 430 — ومساحة الهكتار الواحد عشرة آلاف مترا مربعا •

(٢) Torres Balbas, Extension y demografia, P. 54.

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ١١٩ . ويسميها ابن فضل‌الله العمري المدينة القديمة .

من المدينة لصق السور القبلي المحاذي لساحلها ، غير بعيد من سورها الشرقي • وكان سور المدينة الداخلية يتفرع شمالا مـن طرفي القصبة الشرقي والغربي في هذين الاتجاهين ، ثم ينحدر السور الشرقي والغربي في نفس مجرى الواديين الجانبيين ، ويتصلان جنوبا بسور المدينة القبلي الذي أشار اليه ياقوت بقوله : « يضرب ماء البحر سورها »(١) واليه يشير الرازي بقوله : « سورها على ضفة البحر وبها دار الصناعة »(٢). واتخذ عمران المرية بحكم اتصالها البحري بثغور مصر طابعا يجعلها أقرب الشبه الى المدن المصرية ، فوصفها العذري بأنها « متقنة البناء ، مصرية الشكل »(٣) •

ثانيا : ربضا المصلي والحوض :

يقع ربض المصلي أكبر ربضى المرية شرقي المدينة القديمة وقد سمي كذلك بسبب وجود المصلي القديم خارج نطاق المدينة الداخلية وفي داخل رقعته قبل أن يحوطها خيران بالاسوار • ويشرف على هذا الربض من الشمال الطرف الجنوبي من جبل لاهم ، الذي يسميه ابن خاتمة في القرن الثامن الهجري بجبل المدينة (تصغير مدينة)• ويفصل هذا الجبل عن جبل القصبة خندق عميق يعرف اليوم باسم الاخدود La Hoya (٤)• ويخضع تخطيط سور هذا الربض لطبيعة سطح الارض القائم عليها ، اذ أملت على بناة هذا السور ضم مقدمة جبل لاهم التي يسميها ابن خاتمة بالعرقوب ، (وتعرف اليوم باسم « مرتفع سان كريستوبال ») داخل نطاق الربض •

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١١٩ •

(٢) ابن سعيد ، ج ٢ ص ١٩٣ — Lévi-Provençal, La description de l'Espagne d'Ahmad Al-Razi, Al-Andalus 1953, P. 67.

(٣) العذري ، ص ٨٦ •

(٤) Torres Balbas, Almeria, P. 433.

وكان هذا السور في القرن الخامس الهجري وفقا لما وصفه به ابن خاتمة وطبقا لمخطط المدينة في سنة ١٦٠٣ ، يبدأ من منتصف السور الشمالي للقصبة ، ويتجه نحو الشمال الشرقي ، ثم يهبط الى خندق باب موسى ليغلق هذا المدخل الخطير المؤدي الى الربض المحدث ، ثم يصعد بعد ذلك في نفس الاتجاه الى السفح الجنوبي لجبل لاهم ، ثم ينحرف خط سيره الى الشرق ، ويتابع سيره بعد ذلك هابطا مع ميل خفيف نحو الجنوب الشرقي من نفس الموضع الذي تشغله اليوم الدور القائمة على الصف الايسر من شارع أنطونيو فيكو ، الى أن يصل الى باب بجانة (ويسمى اليوم باب برشانة) • وقبل وصوله الى هذا الباب بمسافة قصيرة يغير اتجاهه الى الجنوب ويسير في نفس الموضع الذي تشغله اليوم الدور القائمة على الصف الايمن من شارع الاسقف أوبيرا ، ويتابع سيره على هذا النحو حتى يقابل الطرف الشرقي من السور القبلي للربض حيث كان يبرز في هذه الزاوية برج يعرف في القرن الثامن الهجري بالرجل • وتظهر في مخطط سنة ١٦٠٣ آثار جدار يتجاوز نقطة التقاء السور الشرقي للربض بالسور القبلي ويصل الى البحر • ويعتقد الاستاذ توريس بلباس أن هذا الجدار لا يعدو أن يكون « قورجة » أو سورا خارجيا يقطع الطريق الساحلي على من يهاجم المدينة من هذه الناحية[١] •

أما القسم الشرقي من السور القبلي للربض ، الممتد نحو المدينة ، فيبدو أنه أعيد بناؤه في القرن السادس عشر •

وتحتفظ المنطقة الواقعة غربي ربض المصلي بتخطيط شوارعها في العصر الاسلامي ، وحدود هذه المنطقة ما يلي :

---

(١) Ibid. P. 436.

١ ــ الطريق التي تربط باب بجانة بباب الصورة من أبواب المدينة الداخلية • ٢ ــ السور الغربي لربض المصلي ، ومكانة اليوم يشغله شارع الملكة • ٣ ــ السور المقام في القرن السادس عشر داخل الربض لحماية المدينة من غزو قراصنة البحر ، والممتد من باب بجانة الى الجنوب • ٤ ــ السور الجنوبي ، من التقائه بالسور السابق حتى اتصاله بسور المدينة الداخلية الشرقي •

هذا المربع غير المنتظم هو المنطقة الوحيدة في المرية الحاضرة التي استمرت آهلة بالسكان في فترة الاضمحلال الكبرى التي أصابت المرية خلال القرنين ١٧ ، ١٨ م ، والتي يمكننا أن نبحث فيها عن آثار شوارع يرجع تخطيطها الى العصر الاسلامي • أما المناطق الاخرى من المدينة وهي ربض الحوض الذي هجره سكانه منذ غزو النصارى للمدينة سنة ٥٤٢ هـ ، ووصل الينا اليوم مهجورا كذلك ، والمدينة الداخلية التي هجرها السكان الى الربض الشرقي في القرن السادس عشر وما يليه ، وخندق باب موسى الذي هجر أيضا في طليعة القرن السابع عشر ، وتمثله خريطة سنة ١٦٠٣ خاليا من المباني بينما كان هذا الخندق عامرا أيام الادريسي[١] ، هذه المناطق فقدت تخطيطها الاسلامي بسبب تدهور العمران في المدينة منذ منتصف القرن السادس الهجري ، وبسبب الوباء الذي اجتاح المرية في منتصف القرن الثامن وبسبب هجرة كثير من أهل المرية الى بلاد المغرب والمشرق الاسلامي قبل أن تسقط في أيدي القشتاليين في سنة ٨٩٥ هـ ، وأخيرا بسبب الزلازل المتعاقبة التي دمرت ما بقي من عمران المدينة[٢] •

وعلى أساس التحديد الذي أشرنا اليه وحده يمكننا أن نستدل

---

(١) الادريسي ، ص ١٩٧ •

(٢) Torres Balbas, Almeria, P. 440.

على تخطيط الشوارع الرئيسية في المرية الاسلامية • وأول ما يسترعي نظر الباحث في خريطة المرية ، وعلى الاخص في هذا المربع الغربي من ربض المصلي ، شارع رئيسي يخترق المدينة كلها بربضيها من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، ويربط باب بجانة بوادي الرملة الواقع شرقي ربض الحوض بعد مروره من الباب المسمى اليوم بباب الصورة ثم من ساحة المسجد الجامع • ومن الشوارع التي تحتفظ بتخطيطها الإسلامي شارع يتجه عرضا من الشرق الى الغرب ، ويبدأ مـن باب الصورة المذكور الى باب الشمس الذي ينفتح في السور المقام في القرن السادس عشر ، وشارع يمتد من الجنوب الى الشمال ، ويخرج من باب البحر ويخترق ربض المصلي في هـذا الاتجاه وينتهي أخـيرا ببـاب موسى[1] • والى جانب هذه الشوارع الرئيسية ، كانت المرية تضم شبكة من الدروب والحارات والازقة المتفرعة من الشوارع الرئيسية • ولسوء الحظ لم تصل الينا أي أسماء من هذه الدروب والحارات ، الا أن المرية مـا تزال تحتفظ في المربـع المذكور بدرب يذكرنا بالدروب الاسلامية ويعرف اليوم باسم حـارة بولكا **Callejon de la Polca** ويتفرع من الشارع المسمى بهرقل • وهناك ظاهرة بارزة في شوارع المرية هي اتساعها وانتظام تخطيطها علـى عكس نظائرها في المـدن الاندلسية خاصة والاسلامية عامة ، ويرجع الاستاذ توريس بلباس سبب هذا الاتساع الـى بلوغ النطاق العمراني في منتصف القرن السادس الهجري أقصى اتساع له، قبل مضي ما يقرب من قرن واحد على النكبات التي أصابت المدينة وسببت تدهورها واضمحلالها وقلة عدد سكانها ، الامر الذي أدى الى الاستغناء عن اعادة تخطيط المدينة للافادة من كل

---

(1) Ibid. PP. 440-442.

شبر فيها في اقامة مبان جديدة مرتفعة تتسع لأكبر قدر من السكان[1] ، كما حدث في غرناطة على سبيل المثال عندما ازداد عدد سكانها بهجرة مسلمي المدن الاندلسية التي استولى عليها النصارى . غير أننا نعتقد بالاضافة الى ما ذكره الاستاذ توريس بلباس أن ظاهرة اتساع الشوارع في المرية هي ظاهرة عامة في المدن الساحلية وخاصة الثغور التي يمتد عمرانها بمحاذاة الساحل كالاسكندرية[2] وتونس ، وان كانت الاسكندرية تفضل تونس باتساع شوارعها[3] ، ومثل مدينة رباط الفتح[4] .

أما ربض الحوض ، فللأسف لم يبق من آثار شوارعه شيء يذكرنا بما كانت عليه هذه الشوارع في العصر الاسلامي ، لتخرب عمرانه بعد عام ٥٤٢ هـ ، وخلوه من السكان على نحو ما ذكرناه آنفا[5] . فقد أحصي عدد سكان ربض الحوض في سنة ١٥٢٦ فتبين أنه كان يعيش فيه نحو خمسمائة شخص فقط بينما كان يتسع قبل منتصف القرن السادس الهجري لما يقرب من خمس آلاف شخص[6] .

ثالثا : القصبـــة :

هي القصبة المعروفة بقصبة خيران نسبة الى خيران العامري الذي ولي المرية في عصر المنصور محمد بن أبي عامر[7] ، ولعله هو الذي

---

(١) Torres Balbas, Almeria, P. 443.

(٢) وصف ابن جبير شوارع الاسكندرية فقال : « فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى انا ما شاهدنا بلدا اوسع مسالك منه » (الرحلة ، نشره وليم رايت ، ١٩٠٧ ، ص ٤٠) .

(٣) المقري ، ج ١ ص ١٩٤ .

(٤) المراكشي ، المغرب ، ص ٢٦٦ .

(٥) انظر Torres Balbas, la Medina, los Arrabales y los Barrios al-Andalus Vol. XVIII P. 167.

(٦) Torres Balbas, Almeria, P. 452.

(٧) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ص ١٩٣ ـ المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٥٣ .

حصنها بالاسوار المنيعة التي ما زالت قائمة حتى اليوم . وتمتد القصبة بامتداد الهضبة التي أقيمت عليها ، من الشرق الى الغرب ، وقد لاحظ الحميري هذا الاتجاه فقال : « وقصبتها بجوفيها (أي شمالي المرية) وهو حصن منيع لايرام مديد من المشرق الى المغرب »[١] وكان للقصبة بابان جنوبي وشرقي ، كلاهما يفضي الى المدينة ، الجنوبي منهما يصل القصبة بالمدينة الداخلية عن طريق ممر شديد الانحدار طوله ٢٨٠ ذراعا ، أي يتراوح ما بين ١٣٠ ، ١٤٠ مترا . أما الشرقي فينفتح في بروز بسور القصبة الجنوبي . وكان الدخول الى القصبة من هذا الباب أسهل بكثير من الدخول اليها من الباب الجنوبي[٢] .

وكانت القصبة تضم في داخل نطاقها مسجدا جامعا وقصرا وغير ذلك من المنشآت . أما جامع القصبة فأغلب الظن أنه أقيم في عهد خيران العامري الذي تنسب اليه القصبة ، ثم جدد في أيام الموحدين بعد أن حرروها من الاحتلال القشتالي ، وقد تولى الخطبة في هذا المسجد الفقيه محمد بن أحمد الانصاري[٣]، ثم محمد بن محمد بن مفضل بن حسن اللخمي[٤].

وقصر القصبة من بناء خيران العامري ، ويعرف في كتب التاريخ العربي باسم « بهو خيران »[٥] ، ولكن المعتصم بن صمادح أقام الى

---

(١) الحميري ، ص ١٨٤ .

(٢) يقول الحميري عند ذكره لبابي القصبة : « ولها باب قبلي يفضي الى المدينة مسافة ما بين أول المصعد في الجبل وبينه مائتا ذراع وثمانون ذراعا ، ولها باب شرقي خارج عن اسوار المدينة والربض ، متصل بجبالها ، وهي اسهل مرتقى من الباب القبلي ، وعرض ممشى السور الدائر بالقصبة خمسة اشبار » ص ١٨٤ .

(٣) توفى في سنة ٦٢١ هـ ودفن بمقبرة باب بجانة (انظر ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ط . مدريد ١٨٨٩ ، ص ٣٢٩) .

(٤) توفى في سنة ٦٤٥ هـ (انظر ابن الابار ، التكملة ، ص ٣٦٠) .

(٥) الفتح بن خاقان ، قلائد العقبان ، ص ٤٨ ــ ابن الخطيب ، مشاهدات ابن الخطيب ، مجموعة رسائل نشرها الدكتور مختار العبادي ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٤٥ .

جانب البهو قصر الصمادحية المشهور ، وهو قصر تفنن المهندسون في بنائه ، وكان يضم مجلسا يسمى مجلس الحافة[1] ، أجرى اليه المياه من ساقية ووزعها في بستان القصر في جداول متعرجة محفوفة ضفافها بالازهار والادواح ، وسنقوم بوصف هذا القصر عند دراستنا لآثار المرية في العصر الاسلامي .

ويبدو أن سجن المرية المعروف بالمطبق[2] ، والذي سجن فيه شيخ الغزاة يحيى بن عمر وابنه عثمان في عهد السلطان الغني بالله محمد بن يوسف ٧٦٥هـ، والوزير أبو النعيم رضوان سنة ٧٤٠هـ، في عهد يوسف ابن أبي الوليد اسماعيل[3] ، كان يقع في داخل القصبة ، لمناعتها وعزلتها عن المدينة ، وصعوبة الفرار منها في حالة قيام ثورة بداخل المدينة .

* * *

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٤٨ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٧٥ .

(٣) يقول ابن الخطيب في الاحاطة : « ثم نقل بعد أيام الى قصبة المرية محمولا على الظهر ، فشد بها اعتقاله ورتب الحرس عليه الى اوائل شهر ربيع الثاني من عام أحد وأربعين وسبعمائة » (الاحاطة ، ص ٤١٩) وهذا النص يدل على أن السجن كان بالقصبة .

(٣)
ابـواب المريـة

اختفى سور المرية الاسلامي من الوجود ، ولم يبق منه الا آثار تدل على مكانه ، كما اختفت معه أبواب المدينة ، ولم يبق مـن هذه الابواب سوى بويب أو خوخة مفتوحة في القطاع الشمالي بجبل لاهم ، ويعلو اسطوان الباب قبوة حجرية قليلة التكور ، وفوق الباب عتب ــ قطعة واحدة من الحجارة ــ يعلوه فراغ مستطيل الشكل لعله كان مخصصا للوحة الانشائية •

وعلى الرغم من ضياع معالم أبواب المرية ، فقد أمكننا معرفـة وتحديد الابواب التالية :

١ ــ باب بجانة :(١)

يعتبر أهم أبواب المرية ، اذ كان ينفتح على الطريق المؤدية الى مرسية وغرناطة ، وكان الضغط على اجتيازه شديدا لكثرة الوافدين على المدينة والخارجين منها عن طريق هذا الباب • وكان هذا الباب ينفتح في السور الشرقي للمدينة القديمة ، مكان باب الصورة اليوم ، فلما ضم الربض الشرقي الى المدينة ، فتح باب ثان بالسور الشرقي لربض المصلي في الموضع المعروف اليوم باسم باب برشانة • واسم برشانة هذا اسم

---

(١) ورد ذكر هذا الباب في : ابن الابار ، التكملة ، ج ١ ص ٣٢٩ ؛ المعجم ، ص ١٤٤ ــ ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٤٢٠ ، ٥٠٠ ــ ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ٢٠٩ •

أطلقه القشتاليون على هذا الباب بدلا من بجانة ، ولا نعرف بالضبط متى ابتديء في استعمال هذا الاسم الجديد ولكن الاستاذ توريس بلباس يعتقد أنه لما كان اسم بجانة يشابه في النطق اسم برشانة ، فقد اختلط على القشتاليين الامر عند دخولهم المرية في سنة ٨٩٥ هـ ، وأساءوا ترجمة اسم الباب باسم احدى المدن الهامة وقتئذ وهي برشانة(١) ، اذ أن بجانة كانت قد اندثرت وبادت منذ عصر الطوائف . ولقد جدد بناء هذا الباب في سنة ١٨٢٧ م ، ثم تهدم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر(٢) .

٢ ـ باب العقاب :

يذكر المقري أن من أبواب المرية باب يعرف بباب العقاب « عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر »(٣) . وأغلب الظن أن هذا الباب كان يقع في منتصف السور الشرقي لربض المصلي ، وكان يؤدي الى فحص المرية . والعقاب يرمز للقوة وشدة البأس ، ووضع تمثال العقاب على أحد أبواب المرية رمز لحصانتها ومظهر لمناعة أسوارها ، شأنه في ذلك شأن باب الحنش ببلنسية ، وباب الاسد بغرناطة وباب السبع بفاس(٤) . ومما لا شك فيه أن هذا التمثال من صناعة اسلامية ، فقد برع الفنان الاندلسي في صناعة التماثيل الحيوانية لتزيين القصور ،

---

(١) Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 434 No. 1 . وبرشانة حصن من امنع حصون المرية واوثقها بنيانا (الحميري ، ص ٤٢) وتقع على وادي يعرف بالمنصورة (انظر ، ابن الخطيب ، مشاهدات ابن الخطيب ، ص ٣٦ ، ملحوظة ١ ، ص ٨٦) ويتكون هذا الوادي من مجتمع نهرين (الحميري ، ص ٤٢) .

(٢) Torres Balbas, op. cit. P. 449.

(٣) المقري ، ج ١ ص ١٥٣ .

(٤) Lévi-Provençal, Islam d'Occident, Paris 1948, P. 50.

وكانت دار الصناعة بقرطبة تختص بهذا النوع من التماثيل ، ففيها أقيم لقصر المؤنس من قصور مدينة الزهراء اثني عشر تمثالا من النحاس لحيوانات وطيور منها تمثال أسد وتمثال عقاب وتمثال نسر(١) .

٣ ـ باب موسى :

كان هذا الباب ينفتح في سور الخندق الواقع بين جبل القصبة وجبل لاهم ، ومن هذا الباب خرج معز الدولة بن صمادح الى دار الصناعة حيث أبحر في جفن الى ثغر الجزائر فرارا من جيش المرابطين(٢). والباب مسدود اليوم بالطابية (بلاط متماسك من التراب والنورة أي الجص وقطع الحجارة الصغيرة والجير)ويكتنفه برجان مربعا الشكل(٣).

٤ ـ باب الزياتين :

ورد ذكر هذا الباب في ترجمة محمد بن خليد بن محمد التميمي ، من أهل المرية ، فقد كان له حانوت بباب الزياتين ، يقرأ فيه مقامات الحريري، وكتب الادب، وعنه أخذ ابن الابار في شعبان سنة ٥٥٩ هـ(٤)، أي بعد أن حرر الموحدون المدينة من الاحتلال القشتالي ، واستردها المسلمون . وأغلب الظن أن هذا الباب كان ينفتح في السور الجنوبي من أسوار المدينة ، ولعله كان ينفتح في السور القبلي بالمدينة الداخلية ، فالشأن دائما في معاصر الزيوت أن تكون قريبة من الميناء حتى يسهل نقل الزيت بسهولة الى الميناء لتصديره . ومن المعروف أن وادي بجانة

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٠٤ .
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٩٢ .
(٣) Torres Balbas, Almeria, P. 449.
(٤) ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ص ٢١٤ .

كان مشهورا بزياتينه[١] ، وكانت مدينة طبرنش من شرقيها مشهورة بمعاصر الزيت[٢] . ولقد كان بإشبيلية باب يعرف بباب الزيت[٣] يقع بين باب الكحل وباب القطائع ، ومنه كانت تخرج شحنات الزيوت لتصديرها الى البلاد الاسلامية[٤] .

٥ ـ باب المرسى :

هذا الباب كان ينفتح في منتصف السور القبلي للمدينة الداخلية ، ومنه نفذ الموحدون عندما هاجموا المرية في سنة ٥٤٦ هـ[٥]، ووصلوا الى المسجد الجامع الذي لا يبعد كثيرا عن هذا الباب ، وأحرقوا ما كان بالمرسى من أغربة وشخاتير . ولا شك أن وجود دار الصناعة بالقرب من هذا الباب كان يسهل حملها من الدار الى المرسى . وللأسف لم تصلنا في كتب التاريخ أخبار عن هذا الباب .

٦ ـ باب البحر :

هذا الباب يظهر على خريطة المرية المؤرخة في سنة ١٦٠٣ وما زال يعرف حتى اليوم باسم La puerta del mar أو باب البحر وقد سمي بهذا الاسم لقربه من البحر ، وأعتقد أن تسميته كذلك منذ القرن السابع عشر هي استمرار لاسمه القديم . ومثل هذا الاسم كان يطلق على أحد

---

(١) ابن الخطيب ، مشاهدات ابن الخطيب ، ص ٤٧ ، ٨٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٨٤ .

(٣) Julio Gonzalez, Repartimiento de Sevilla, t. I, Madrid 1951 P. 513, 519, 535.

(٤) يذكر الشقندي أن ما يعصر من زيت زيتون اقليم الشرف باشبيلية يصل حتى الاسكندرية (المقري ، ج ٤ ص ١٩٩) .

(٥) Lévi-Provençal, Un Recueil de lettres almohades, Hésperis, XXVIII, 1941, P. 25, 26. وكتاب مجموع رسائل موحدية ، الرباط ١٩٤١ ، ص ١٢

أبواب أشبونة[1] والاسكندرية[2] .

٧ ـ باب مقبرة الحوض ؟ أو باب الرابطة ؟

أعتقد أن السور القبلي لربض الحوض كان ينفتح فيه باب قبلي يؤدي الى مقبرة الحوض والرابطة ، ولعله كان يعرف بأحد هذين الاسمين أو باسم آخر .

* * *

والى جانب هذه الابواب كان هناك أبواب أخرى ثانوية تظهر على خريطتي سنة ١٦٠٣ ، سنة ١٨٥٥ منها باب يسمى في الخريطة القديمة باب الخروج ويسميه كويبو صاحب خريطة ١٨٥٥ بباب النجدة el socorro [3] ، وكان ينفتح في السور الغربي من المدينة الداخلية قرب البحر . وأغلب الظن أنه كان يستخدم في أوقات الحصار ، فيخرج منه الامير أو الوالي في الوقت الذي يهاجم فيه الاعداء المدينة ، ولعله كان يعرف باسم باب النقبة (كأحد أبواب فاس) وباب الغدر (بسبتة وغرناطة والاسكندرية)[4] . ومنها ثلاثة أبواب قليلة الاهمية مذكورة في خريطة ١٦٠٣ تنفتح في السور الفاصل بين المدينة الداخلية وربض المصلي هي على الترتيب من الشمال الى الجنوب : باب كارميا Carmia وباب الصورة Imagen وباب العجلات de las Carretas [5] .

* * *

(١) الحميري ، ص ١٦ .

(٢) المؤلف ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ١١٤ .

(٣) Torres Balbas, Almeria, P. 450.

(٤) Lévi-Provençal, Islam d'Occident, P. 53, note 78, P. 73. — المؤلف ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٤٢٨ .

(٥) Torres Balbas, op. cit. P. 451

(٤)

ظاهر المدينة

أولا : المقابـــــر :

تقع المقابر الاسلامية في معظم الاحوال خارج الاسوار ، بالقرب من الطرق المؤدية الى الابواب الرئيسية للمدينة ، ولذلك يكثر عـدد المقابر في المدن الكبرى بكثرة عدد أبوابها فمقابر مدينة قرطبة بلـغ عددها في القرنين الخامس والسادس الهجري ١٣ باباً ، ومع ذلك فهناك مقابر صغيرة خاصة بالامراء والخلفاء تقع في داخل المدينة ونعني بهـا الروضات ، كروضة قصر قرطبة وروضة قصر الحمراء وروضة إشبيلية ، وتتخذ الروضات عادة في جنان القصور • وهناك مقابر كانت تقع في بادىء الامر خارج أسوار المدينة ، فلما اتسعت المدينة أصبحت هذه المقابر في داخلها ، مثـل مقبرة الشريعة القديمة بالمرية التي ظلت تقوم بوظيفتها حتى منتصف القرن الخامس الهجري[١] •

وتشير المصادر العربية الى وجود مقبرتين كبيرتين خارج أسوار ربضي المرية ، احداهما مقبرة باب بجانة مـن ظاهر المرية[٢] ، ومقبرة الربض أو الحوض بالمرية[٣] • أما المقبرة الاولى ، مقبرة باب بجانة ،

---

(١) دفن في هذه المقبرة الفقيه الجدالي المعروف بابن زفت صاحب الصلاة والخطبة بجامع المرية والمتوفى سنة ٥٤٤ هـ •

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٤٢٠ ، ٥٠٠ ــ ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ص ٣٢٩ ــ ابن الابار ، المعجم ، ص ١٤٢ ــ ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ٢٠٩ •

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٧٠ ، ٣٣٨ ــ ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس ، ج ١ ص ١٩٢ ــ ابن الابار ، التكملة ، ص ١٦١ •

فتقع شرقي المرية خارج باب بجانة ، في بسيط من الارض تجاه الطريق الذي يسلكه الداخل الى المرية من هذا الباب ، ويرجح الاستاذ توريس بلباس أن المصلي الجديد أقيم بالقرب من هذه المقبرة(١) . ولقد أنشئت مقبرة باب بجانة الجديدة بعد قيام ربض المصلي في أوائل القرن الخامس الهجري ، وتعتبر المقبرة الرئيسية في المرية ، وفيها دفن عدد كبير من كبار شخصيات المرية وردت أسماؤهم في كتب التراجم(٢) ، وفي هذه المقبرة أقيم رباط يعرف برباط الخشني ، دفن فيه المقرىء البلنسي(٣) ، ويغلب على الظن أن هذا الرباط كان يشغل الجزء الشمالي الشرقي من المقبرة بما فيه الموضع الذي تقوم عليه أبراشية سان سباستيان ، ودليل ذلك أنه عثر في شارع ريجوثيخوس Regocijos على شاهد قبر نقشت في وسطه كتابة . كما عثر في أبراشية سان سباستيان أثناء حفر مرحاض على عمق متر ونصف متر على قطعة من الحجر منشورية الشكل ، كانت تؤلف جزءا من التابوت ، وعثر أخيرا على بقايا بشرية في شارع لا فلورا عند التقائه بشارع الفخارين(٤) .

والمقبرة الثانية هي مقبرة الربض أو الحوض ، وتقع في السهل الممتد بين السور القبلي لربض الحوض وساحل البحر ، ويعرف اليوم

---

(١) Torres Balbas, Musalla y Saria, P. 175.

(٢) منهم الفقيه الحافظ محمد بن احمد بن موسى بن وضاح القيسي ، المتوفى سنة ٥٤٠ هـ) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٤٢ (ومنهم القاضي محمد بن خلف بن سعيد بن وهب المعروف بابن المرابط المتوفى سنة ٤٨٥ هـ . وذكر ابن بشكوال أن لقبره رخامة عند رأسه على قارعة الطريق بالقرب من باب بجانة ، مكتوب عليها : « هذا قبر القاضي أبي عبدالله بن المرابط توفى رحمه الله ونضر وجهه يوم الاحد لاربع خلون من شوال سنة ٤٨٥ » (أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٥٠٠) ، ومنهم علي بن ابراهيم بن علي المعروف بابن اللواز المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (الصلة ، ص ٤٢٠) .

(٣) ابن الابار ، التكملة ، تحقيق بن شنب وبل ، الجزائر ١٩٢٠ ، ص ١٠٤ .

(٤) Torres Balbas, Cementerios hispanomusulmanes, Al-Andalus, Vol. XXII, 1957, P. 177, 178.

بـاسم Llano del Cordonero ، وكانت المقبرة تمتد حتى الرابطة التي تقوم اليوم مقامها كنيسة سان روكي San Roque ، وترجع معظم الشواهد التي عثر عليها في المرية الى هذه المقبرة ، وقد اعتقد أوربانيخا أن هذه المقبرة خاصة باليهود[1] ، ولكن الاستاذ توريس بلباس لا يقره على ذلك ، ويكفي لدحض هذا الرأي الشواهد الكثيرة التي اكتشفت في هذه المقبرة ، وكلها تحمل كتابات عربية وكلها خاصة بمسلمين دفنوا في هذه المقبرة[2] .

ومن الشخصيات الهامة التي دفنت في هذه المقبرة الكاتب أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلاي (توفى سنة ٤٧٨ هـ)[3] .

ثانيا : المتنزهات :

عرفت المرية بجفافها ، وشدة حرها ، وقلة أمطارها ، وكثرة جبالها الصخرية الجرداء ، العارية من النباتات ، وهي لذلك كانت تعتمد على المرافق المجلوبة من بر العدوة ، وفيها يقول الشاعر السميسر :

بئس دار المرية دارا ليس فيها لساكن ما يحب
بلدة لا تمار الا بريح ربما قد تهب أو لا تهب[4]

وفيها أيضا قال أحد الشعراء :

قالوا المرية صفها فقلت نـط وشيح
وقيل فيها معاش فقلت ان هب ريح[5]

---

(١) نفس المرجع .

(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, P. 103-128.

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ١٣٩ ، Pons Boigues Ensayo, P. 159

(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ٢٧٤ – المقري ، ج ٤ ص ٣٦٠ .

(٥) الحميري ، ص ١٨٣ .

ويروي المقري أن بعض أهل المرية ركب في وادي إشبيلية ، فمر على طاقة من طاقات شنتبوس من متنزهات إشبيلية ، وغنى قائلا :

خلني من واد ومن قوارب ومن تراها في شنتبوس
غرس الحبق الذي في داري أحب عندي من الفردوس

فأطلت جارية من نافذة دار وقالت له : « من أي بلد أنت يا من غنى ؟ فقال : من المرية . فقالت : وما أعجبك في بلدك حتى تفضله على وادي إشبيلية ، وهو بوجه مالح وقفا أحرش » .

ويعلق المقري على ذلك بقوله : « وهذا من أحسن تعييب ، وذلك أنها أتته بالنقيض من إشبيلية ، فان وجهها النهر العذب ، وقفاها بجبال الرحمة أشجار التين والعنب ، لا تقع العين الا على خضرة في أيام الفرج، وأين إشبيلية من المرية »[١] . وفي جفاف المرية وقلة خيراتها يقول ابن الخطيب : « حرها شديد ، وذكرها طويل مديد ، وأثرها على البلاد جديد، الا أن مغارمها ثقيلة ، وصفحة جوها في المحول صقيلة ، وسماؤها بخيلة ، وبروقها لا تصدق منها مخيلة ، وبلالة العطية منزورة العطية ، وسعرها ليس من الاسعار غير الوطية ، ومعشوق البر بها قليل الوصال ، وحمل البحر صعب النضال »[٢] . ولذلك كانت المرية تعيش على خيرات ما حولها من قرى ومجاشر ، مثل طبرنش وتقع شرقيها ، وكانت مشهورة بزيتونها ، وفيها كان يعصر ويستخرج منه الزيت[٣] ، ومثل حصن شنش ، وكان يقع على مرحلة من المرية وفيه كثير من شجر التوت اللازم لتربية دود الحرير[٤] ، ومدينة برجة المشهورة بجناتها وفواكهها[٥] ،

(١) المقري ، ج ٤ ص ٣٦٠ .
(٢) مشاهدات ابن الخطيب ، ص ٨٤ .
(٣) نفس المرجع .
(٤) ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ص ٢٢٥ .
(٥) تقع برجة جنوب غربي المرية على وادي يعرف بوادي عذراء ، وارضها خصبة بعكس اراضي المرية القاحلة . وكانت برجة تسمى بهجة لبهجة مناظرها (المقري ، ج ١ ص ١٤٤).

ومثل قرية شلوبين التي تلي المرية من جهة الغرب وكان يزرع بها قصب السكر والموز والقسطل[١] ، وغير ذلك من المحاصيل .

وعلى الرغم من جفاف المرية وقلة خيراتها ، فقد كان بظاهرها مواضع كثيرة يقصدها أهل المرية للنزهة والراحة ، ومن هذه المواضع : منى عبدوس ، ومنى غسان ، والنجاد ، وبركة الصفر ، وعين النطية[٢] ، وكلها منيات على وادي المرية الذي يصب في البحر على مسافة تبعد نحو أربعة أميال شرقي المدينة ، وقد ذكره الادريسي بقوله : « وهذا الوادي المنسوب الى بجانة بينه وبين المرية أربعة أميال ، وحوله جنات وبساتين وأرحاء ، وجميع نعمها وفواكهها يجلب الى المرية »[٣] ، وفيه يقول ابن الخطيب : « واستقبلنا وادي بجانة وما أدراك ما هو ، النهر السيال والغصن المياد الميال ، والافياء والظلال ، المسك مافت في جنباته ، والسندس ما حاكته يد جناته ، نعمه واسعة ، ومساجده جامعة ، أزرت بالغوطتين زياتينه وأعنابه ، وسخرت بوان شعائبه ، بحيث لا تبدو للشمس آيات ، ولا تتأتى للحرباء حيات ، والريح تلوي أعطاف غصون البان على أرداف الكثبان ، وتجاذب عرايش الخمائل ... »[٤] . وفيه قال الشقندي : « وواديها المعروف بوادي بجانة من أفرج الاودية ، ضفتاه بالرياض ، كالعذارين حول الثغر »[٥] .

وتعتبر برجة ودلاية من أجمل منتزهات المرية ، وقد كان يقصدهما المعتصم بن صمادح ويقيم فيهما أياما يتمتع بمناظرهما الرائعة من خضرة ومياه تطيب لها النفس ، وفيهما يقول ابن خاقان : « وهما منظران لم

---

(١) ابن فضل‌الله العمري ، وصف افريقية والمغرب والاندلس ، تحقيق الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، ص ٤٦ .
(٢) ابن سعيد ، ج ٢ ص ١٩٤ .
(٣) الادريسي ، ص ١٩٧ .
(٤) مشاهدات ابن الخطيب ، ص ٤٧ .
(٥) المقري ، ج ٤ ص ٢٠٧ .

يجل في مثلهما ناظر ، ولم تدع حسنهما الخدود النواضر ، غصون تثنيها الرياح ، ومياه لها انسياح ، وحدائق تهدي الارج والعرف ، ومنازل تبهج النفس ، وتمتع الطرف ، فأقام فيها أياما يتدرج في مسارحها ، ويتصرف في منازهها ومسايحها ، وكانت نزهة أربت على نزهة هشام بدير الرصافة ، وأنافت عليها أي انافة »[1] • وفي رياض برجة يقول الشاعر أبو الفضل بن شرف القيرواني :

رياض تعشقها سندس ... توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدي ربا ... لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنة ... وكل طريق اليها سفر[2]

وقوله أيضا :

حط الرحال ببرجة ... وارتد لنفسك بهجة
في قلعة كسلاح ... ودوحة مثل لجة
فحصنها لك أمن ... وروضها لك فرجة

والى جانب هذه الجنات والمنيات ، نستطيع أن نستنتج من شعر ابن الحداد الذي عاش معظم عمره في المرية ، مواضع المفرجة ، ومتنزهات حول المرية ، منها دوح البان ، وهو موضع به بانة غيناء وروضة غناء[3] ، ومنها وادي لبيني ، ولعله جدول متفرع من وادي بجانة ، وفيه يقول :

رويدا فذا وادي لبيني وانه ... لورد لباناتي واني لظاميء[4]

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٥٢ ـ المقري ، ج ٢ ص ١٨٧ •

(٢) المقري ، ج ١ ص ١٤٤ •

(٣) في هذا الموضع يقول :

وان تسعدا من اسلم الصبر قلبه ... يعرس بدوح البان من عرصاتها
فبانتها الغيناء مألف بانة ... جنيت الغرام البرح من ثمراتها
وروضتها الغناء مسرح روضة ... تبختر في الموشي من حبراتها

(ارجع الى ابن بسام ، الدخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ٢٢١) •

(٤) ابن بسام ، نفس المرجع ص ٢١٨ •

ومنها موضعان يعرفان بالاريطي والدويحات[1] .

وكان يطيب للمعتصم أن يقصد هذه المتنزهات ويجلس بين الخضرة والماء في أيام القيظ ، وتلطف نسائم هذه الجنات لفحة الرمضاء ، وقد ذكر المقري أنه ، أي المعتصم ، خرج يوما الى بعض متنزهاته ، « فحل بروضة قد سفرت عن وجهها البهيج ، وتنفست عن مسكنها الاريج ، وماست معاطف أغصانها ، وتكللت بلؤلؤ الطل أجياد قضبانها ... » . وذكر أيضا أنه جلس يوما وبين يديه ساقية قد أخمدت ببردها حد الاوار، والتوى ماؤها فيها التواء فضة السوار ، فقال ارتجالا :

انظر الى الماء كيف انحط من صببه كأنه أرقم قد جد في هربه[2]

وكانت المنطقة المجاورة لبجانة أيضا مليئة بالجنات والبساتين والمتنزهات والكروم ، وكان يقصدها الناس أيضا للنزهة لقربها من المرية ، وكثيرا ما كان بعض أهل المرية المياسير يقيمون أبراجا خارج المرية وفي واديها طلبا للراحة ، والتمتع بالهدوء بعيدا عن ضوضاء المدينة، ويذكر المقري أن الوزير أبا جعفر أحمد بن عباس ، وزير زهير الصقلبي كان له برج بنواحي المرية ، يخلو فيه ، فكتب على جداره بعض الادباء :

خلوت بالبرج فما الذي تصنع فيه يا سخيف الزمان

فلما شاهد هذه الكتابة أمر أن يكتب تحتها :

أصنع فيه كل ما أشتهي وحاسدي خارجه في هوان[3]

ويذكر الادريسي أيضا أن المرضى والمعلين كانوا يقصدون حمة المرية طلبا للراحة والشفاء ، وتعرف هذه الحمة اليوم باسم سيرا الحمية

(١) نفس المرجع ، ص ٢١٣ .
(٢) المقري ، ج ٤ ص ٣٠٤ .
(٣) نفس المرجع ، ج ٥ ص ٧٩ .

Alhamilla [1] . والحمة حصن كان قائما على رأس جبل يقع شرقي بجانة ويبعد عنها بنحو ستة أميال . وكان أهل المرية « في أيام الربيع يدخلون الى الحمة مع نسائهم باحتفال في المطاعم والمشارب والتوسع في الانفاق ، وربما بلغ المسكن بها في الشهر ثلاثة دنانير مرابطية وأكثر وأقل »[٢] .

* * *

(1) Torres Balbas, Almeria, P. 414.

(٢) الادريسي ، ص ٢٠٠ .

(٥)

آثار المرية في العصر الاسلامي

أولا : القصبـــــة :

أسسها خيران العامري أثناء ولايته للمرية في عهد المنصور بن أبي عامر ، وقيل أنهـا أقيمت على أساس بـرج فينيقي قديم[1] • وترتفع القصبة نحو ٦٥ مترا فوق مستوى سطح البحر ، وتشرف القصبة على مدينة المرية والبحر من الجهة الجنوبية ، وعلى ربض المصلي وخندق باب موسى من الجهة الشمالية والشمالية الشرقية • وتشرف القصبة على المدينة ولا يرتقى اليها الا بمشقة لوعورتها ومناعتها •

وتمتد القصبة طولا من الشرق الى الغرب مسافة تصل الى ٥٣٠ مترا ، ويتوزع مسطحها الى ثلاثة مرتفعات غير متساوية يفصل بين كل منها سور ، والمرتفع الاعلى يقع غربي القصبة ويؤلف في حد ذاته قلعة قائمة بذاتها مثلثة الشكل ، يتصل رأسه المتطرف بسور المدينة الغربي المحاذي لوادي الرملة المعروف بلا شانكا ، وتعتبر هذه القلعة بأبراجها الاسطوانية والمربعة المبنية بكتـل الحجارة الضخمة معقل القصبـة الحصين ، وقد أعيد بناؤها في عصر الملكين الكاثوليكيين ، ومن بـين أبراجها المربعة بـرج يعرف ببرج التكريم له وجهان عقودهما قوطية

---

(1) Sainz de Robles, Castillos en Espana, Madrid, 1952, P. 295
هذا القول مبالغ فيه ، ولا نوافق عليه ، فكل ما عثر عليه في سلاح جبل القصبة لا يعدو قطعا من الفخار من العصر النيوليتي ان دلت على شيء فعلى ان هذا المرتفع كان ماهولا في عصور قديمة (انظر Torres Balbás, Almeria Islamica, P. 423.) •

ويزدان هـذا البرج بشعار فرناندو وايزابيلا[1] ، ويحيط بهذه القلعة خندق عميق يزيد في مناعتها • والمرتفع المتوسط يكاد يكون مربعا في شكله ، ويمتد من أسوار القلعة الغربية حتى السور الفاصل الذي يقسم القصبة الى قسمين شرقي وغربي، فكانت تشغله فيما مضى قصور القصبة وملحقاتها ، ويتصل سوره الشرقي وهو السور الفاصل شمالا بسور ربض المصلي المتجه الى جبل لاهم • وقد تبقى من القصور الاسلامية آثار جدران وغرف وآثار مسجد وحمام وحوض جوفي • أما المرتفع الشرقي فيمتد طولا ، وتتساوى مساحة أرضه مع مجموع مساحة أرض القلعة والمرتفع الاوسط ، وكانت تشغله بساتين القصر • ويقـوم في الطرف الشمالي الشرقي منـه برج يعرف اليوم باسم بـرج المراقبة la Vela ، وفي هذا القطاع جباب عميقة وناعورة يبلغ عمقها وفقا لما ذكره مادوث نحو ٧٠ قامة[2] ، لعلها الناعورة التي أنشأها المعتصم بن صمادح لسحب المياه من المدينة الى بساتين قصره •

وبناء أسوار القصبة من الطابية[3] باستثناء الاسوار والابراج المسيحية المحيطة بالقلعة الغربية فهي من الحجر • وأبراج المرتفع الثاني والشرقي مربعة الشكل تتجاوز في ارتفاعها ممشى السور ، وبأعلاها

---

(1) Sainz de Robles, op. cit. P. 296.
Carlos Sarthou Carreres, Castillos de Espana, Madrid 1952, P. 30.

(2) Sainz de Robles, op. cit. P. 296.

(3) الطابية هي البناء بالتراب المخلوط بالكلس ، وصانع الطابية يسمى الطواب ، ولبناء السور أو الجدار يتخذ الطواب لوحين من الخشب مقدران طولا وعرضا (في المتوسط أربع أذرع ذراعين) فينصبهما على أساس ويبعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الاساس ، ثم يوصل بينهما بأذرع من الخشب ويثبتها بالحبال ، ويسد الجهتين الباقيتين من الفراغ الموجود بينهما بلوحين آخرين صغيرين ، ثم يصب بينهما التراب مخلوطا بالكلس حتى يمتلىء الفراغ ، ثم يعاد نصب اللوحين ويبنى السور على هذا النحو صفا بعد صف وسطرا بعد سطر حتى « ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة » أنظر ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٠٨ .

غرف غير مقببة ، وتنتهي الابراج والاسوار من أعلى بشرفات ، رؤوسها هرمية الشكل • وباب القصبة الحالي من العصر الاسلامي ، ويمتاز بعقوده المتجاوزة المنكسرة المصنوعة من الآجر[1] •

ولقد تهدمت القصور الاسلامية بالمرتفع الاوسط ، وأصيبت أبراج القصبة على أثر زلزال سنة ١٥٢٢ ، ولكن تبقت بعض آثار هذه القصور، منها أجزاء من جدران مشيدة من الطابية وبعضها مبني من الآجر وقطع الحجارة ، وتحصر هذه الجدران فيها بينها غرفا مربعة •

وفي نهاية الطرف الشمالي من هذا المرتفع الاوسط بناء أشبه ما يكون بشرفة تطل على خندق باب موسى ، ويتألف هذا البناء من طابقين ، وبه عقود ضخمة لقاعات ، أحدها متجاوز من الطراز الخلافي • وقد اكتشف بين أطلال القصر على حمام يتألف من خمس غرف تمتد طولا في محور واحد ، ويحتفظ هذا الحمام ببقايا قبوات نصف أسطوانية ، وعقود من الآجر • وفي الجزء الجنوبي من هذا المرتفع الاوسط حوض جوفي أو خزان مشيد في جوف الارض ، يتألف من ثلاثة أروقة ، وعقوده من الآجر ، وفي الطرف الشرقي من هذا المرتفع أيضا ، لصق السور الفاصل ، أطلال السجن الاسلامي المعروف بالمطبق ، وبالقرب منه آثار مسجد القصبة ، ويتألف من خمسة بلاطات ، سعة الاوسط منها ٢ر٧٠ مترا ، وتبدو بين هذه الآثار بقايا جدران من الطابية، وآثار قبوات نصف أسطوانية ، وعقود نصف دائرية[2] •

ولا نعرف للأسف شيئا عن تاريخ بناء هذه القصور كما أن المصادر العربية لم تزودنا بوصف لقاعاتها ومجالسها ، وكل ما نعرفه عنها

---

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t. III, P. 266-267.

(٢) Gomez Moreno, op. cit. P. 267. (وراجع ترجمتنا لهذا الكتاب) •

لا يعدو أخبارا قليلة الاهمية . ولا نعرف من أسماء المجالس الرائعة التي كانت تضمها القصبة سوى اسمي مجلسين كبيرين ، أحدهما مجلس البهو الذي ينسب الى خيران العامري[1] ، والثاني مجلس شيده المعتصم بن صمادح في قصره المعروف بالصمادحية يسمى مجلس الحافة ، ذكره ابن خاقان عرضا مع مجلس البهو عند حديثه عن المعتصم بن صمادح ، وفيه يقول : « فكثيرا ما كان يعمر أندية اللهو ويداولها من مجلس الحافة الى البهو ، كلاهما سري المنظر خمري المرمر »[2] . ونستنتج من هذا النص أن جدران هذين القصرين أو المجلسين كانت مكسوة بلوحات من المرمر الخمري اللون .

ويروون في بنـــاء قصر الصمادحية المشهور قصـــة طريفة ذكرها المقري ، وملخصها أن بناة هذا القصر اغتصبوا عند بنائهم له جنة لايتام ، وضموا أرضها للقصر ، فشكاهم الوصي على هؤلاء الايتام الى المعتصم، فأمر بأن تعاد اليهم هذه الجنة ، ورد على المهندسين الذين حاولوا اقناعه بأن نقصها من الصمادحية يعيبها في عين الناظر قائلا : « والله ان عيبها في عين الخالق أقبح من عيبها في عين المخلوق » . ولما انتقد بعض أعيان المرية القصر ، بسبب تعوير هذه الجنة لمنظره العام قال لهم : « فوالله ان هذه القطعة طراز هذا المنظر وفخره » .

وكان اذا نظر اليها قال : « أشعرتم أن هذا المكان المعوج في عيني أحسن من سائر ما استقام من الصمادحية » . وقد تمكن وزيره ابن أرقم من شراء قطعة الارض المذكورة برضاء أصحابها بعد أن كافأهم عليها بما اشتهوا من الثمن ، وأدخلها في بناء الصمادحية فاستقام بهـــا

---

(١) ابن الخطيب ، مشاهدات ابن الخطيب ، ص ٤٥ ،
H. Pérès, La poésie andalouse, P. 143.

(٢) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٤٨ .

بناؤها[1] .

وعمل المعتصم على اجراء المياه الى قصره عن طريق ناعورة ترفع المياه الى أعلى القصبة[2]، ثم تجري هذه المياه في طريق ساقية الى قصره، وتتفرع مياهها في جداول ملتوية متعرجة ، تخترق مستراحات القصر ومجالسه فتزيده بهجة وجمالا ، وتكتنفها الاشجار والازهار . وقد ذكرها الفتح بقوله : « حضر مجلسه بالصمادحية في يوم غيم ، وفيه أعيان الوزراء ونبهاء الشعراء ، فقعد على موضع يتداخل الماء فيه ، ويتلوى من نواحيه »[3] . وقصر الصمادحية على هذا النحو يشبه حير الزجالي بقرطبة ، الذي كان يخترق صحنه المرمري جدول كالحية النضناض[4] .

وقد وصف ابن حداد شاعر المعتصم هذا القصر في قصيدة يمدح فيها المعتصم ، فقال :

رأس بظهر النون الا أنه ... سام فقبته بحيث النون
هو جنة الدنيا تبوأ نزلها ... ملك تملكه التقى والدين
فكأنما الرحمن عجلها له ... ليرى بما قد كانما سيكون
وكأن بانيه سنمار فما ... يعدوه تحسين ولا تحصين
وجزاؤه فيه نقيض جزائه ... شتان ما الاحياء والتحيين[5]

(١) المقري ، ج ٤ ص ٣٣٨ .
(٢) يقول الحميري في ذلك : « ثم وصله محمد بن صمادح (اي وصل مياه الربض) الى ساقية عند جامعها داخل المدينة ، واستطرد منه ولا يصب في اسفل القصبة ، ويرفع بالدواليب الى أعلاه » ص ١٨٤ .
(٣) الفتح بن خاقان ، المرجع السابق ص ٥٠ .
(٤) المقري ، ج ٢ ص ١٦١ .
(٥) نفس المرجع ، ج ٥ ص ٢٤٠ .

ثانيا : أسوار المدينة والربضين :

(أ) **القطاع الغربي :** لم يتبق من السور الغربي للمدينة الداخلية الذي أقامه الخليفة عبد الرحمن الناصر ، والذي كان يمتد من الطرف الغربي لقلعة القصبة ، نحـو الجنوب متتبعا خـط سير وادي الرملة (لا شانكا) حتى التقائه بسور المدينة القبلي الا مطلعه الذي يبدأ من البرج الاسطواني الكبير القائم في طرف القصبة الغربي ، وينتهي ببرج مربع الشكل له غرفة عليا[1] ، كما تبقت آثار قليلة من سور لا شانكا وأبراجه ، وكلها مبنية من الطابية ، ولا تختلف بأي حال من الاحوال عن نظام البناء في تحصينات القرن الخامس الهجري ، وان كانت بها أجزاء مجددة في القرنين السابع والثامن الهجري . كذلك تبقى مـن السور الشمالي لربض الحوض برجان كبيران مربعا القاعدة ولكنهما مهشمان ، ولكل منهما غرفة عليا ، ويبعد الواحد عن الآخر بمسافة قدرها عشرين مترا . وكانت وظيفتهما الدفاع عن المدخل الشمالي لربض الحوض عبر وادي لا شانكا . ومن السور الغربي لربض الحوض تبقت بعض أبراج مربعـة الشكل أصغر حجما ، ولكنهـا متفرقة ومنعزلة بسبب ضياع الستائر التي كانت تربطها فيما بينها ، وكل هذه الابراج من الطابية ، ويسكنها اليوم جماعة من فقراء المرية[2] .

(ب) **القطاع الشرقي :** لم يتبق من أسوار ربض المصلي سوى الستارة الممتدة من السور الشمالي للقصبة الى مرتفع العرقوب أو جبل لاهم المسمى اليوم بمرتفع سان كريستوبال ، وكانت وظيفة هذه الستارة غلق المدخل المؤدي الى ربض المصلي عبر خندق باب موسى ، المسمى اليوم

---

(1) Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 430.

(2) Torres Balbas, op. cit. P. 430.

بالاخدود la hoya ، وتبقت بالآضافة الى هذه الستارة ستارة أخرى تشمل السور القائم على جبل لاهم كله ، والذي كان يمتد الى بـاب بجانة • وطول هاتين الستارتين يبلغ نحو ٤٤٠ مترا[١] • ويصل متوسط ارتفاع السور فيهما الى ما يقرب من خمسة أمتار • وسور القطاع الممتد عبر الخندق مشيد كله بالطابية شأنه في ذلك شأن الابراج المستطيلة التي تحميه ، وهي أبراج متقاربة قليلة البروز عن مستوى السور • ولهذا السور ممشى علوي يتدرج في سيره تلافيـا للتباين في المستويات ، وينتهي هذا السور من أعلى بشرفات هرمية الشكل • ويشبه هذا السور بأبراجه بقايا السور الذي كان يحيط بربض الحوض ، مما يثبت أنهما من عصر واحد •

أما أبراج الستارة الثانية ، التي تقوم بأعلى جبـل لاهم ، فتبدأ ببرج أسطواني يليه برجان نصف دائريان مطولان ، ثم برج مستطيل أكثر بروزا ، وذلك لحماية البويب المجاور له • ويلي هذا البويب أو الخوخة برج نصف أسطواني ، فأربعة أبراج مستطيلة الشكل تنتهي بها الستارة العليا •

وبناء الابراج الاسطوانية من قطع الحجارة ، وتحتوي جميعها على طابق علوي ، أما الابراج المستطيلة فمشيدة بالطابية • وأغلب الظن أن هذه الابراج المستطيلة يرجع تاريخ بنائها الى عصر خيران العامري ، أما الاسطوانية فنعتقد أنها أقيمت في الفترة الواقعة ما بين منتصف القرن الخامس والربع الاخير مـن القرن التاسع الهجري ، وان كنـا نرجح تشييدها في عصر المرابطين ، الذين عنوا بتحصين المرية وأرباضها كما عنوا بتحصين مدن الاندلس الاخرى مثل قرطبة وإشبيلية ، اذ أن هذا

---

(١) Ibid. P. 434.

النوع من الابراج لم يكن معروفا في الاندلس قبل دخول المرابطين هذه البلاد ، وانما عرف بعد ذلك في الاندلس والمغرب[1] . ومما يؤكد هذا القول ما ذكرناه في القسم التاريخي من ضريبة التعتيب التـــي فرضها المرابطون في المرية لبناء الاسوار .

ويبدو أن السور الشمالي لربض المصلي ، القائم بأعلى جبل لاهم كان يتقدمه « حزام براني » أو سور أمامي ، فلقد ظهرت آثار هـــذه الاسوار الامامية في الخريطة المؤرخة سنة ١٨٥٥ ، ويؤكد ذلك ما ذكره ألونسو دي بلنسية من وجود أسوار أمامية بالمرية عندما استولى عليها الملكان الكاثوليكيان[2] .

ثالثا : المسجد الجامع بالمرية :

كانت المرية تضم داخل أسوارها عددا كبيرا من المساجد شأنها في ذلك شأن غيرها من مدن الاندلس ، ولم يصلنا من أسماء هذه المساجد غير ثلاثة هي : ١ ـــ مسجد اللبيبي ، وصاحبه عبد الرحمن بن أبي رجا البلوي ، ويقع في ربض الحوض بالمرية[3] . ٢ ـــ مسجد حبونة[4]

---

(١) فيما يختص بالابراج الاسطوانية في بلاد المغرب ، أنظر الى المراجع التالية :
Henri Terrasse, L'art hispano-mauresque, Paris 1932, P. 225, 226.
———— : La forteresse almoravide d'Amergo, dans, al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, PP. 397-400.
———— : L'art de l'empire almoravide, ses sources et son évolution, dans, Studia Islamica, III, Paris 1955, P. 30.
Marçais (Georges) : L'architecture musulmane d'Occident, Paris 1954, P. 219.

وعن هذه الابراج في الاندلس ارجع الى :
Torres Balbas, Nuevas perspectives sobre et arte de al-Andalus bajo el dominio almoravide, Al-Andalus, Vol. XVII, PP. 420-422.
———— Almeria Islamica, P. 435.

(٢) Torres Balbas, Almeria Islamica, P. 439.

(٣) ابن الابار ، التكملة ، ص ٤٦٣ .

(٤) ابن الابار ، التكملة ، ص ١٣ .

٣ ـ مسجد طرفة[1] .

وبالمرية اليوم عدة كنائس ثبت أنها أقيمت في مواضع كانت تقوم فيها مساجد ونخص بالذكر منها كنيسة سان بدرو وكنيسة سانتياجو اللتين ذكرهما الرحالة الالماني منتزر بعد أن انتهى من وصف المسجد الجامع[2] . وذكر أوربانيخا أن المسجد الذي حول الى كنيسة سان بدرو ظل محتفظا بنظامه المعماري وتخطيطه حتى أعاد الاسقف بورتوكاريرو (١٦٠٣ ــ ١٦٣١) بناءه في صورته الحاضرة . كما أشار الى أن معظم الكنائس الموجودة بالمرية حاليا كانت في الاصل مساجد صغيرة ، ورد ذكرها عند توزيع الملكيات بالمرية في عصر الملكين الكاثوليكيين ، ومن هذه الكنائس التي كانت في الاصل مساجد، كنيسة سان خوان إيفانخيليكا بالقصبة ، وسان جابرييل في الشارع الملكي قرب البحر ، وسانتا لوثيا ، وسان روكي الواقعة خارج أسوار ربض الحوض، وسان لاثارو، وسان أنطون الواقعة داخل المدينة القديمة قريبا من المسجد الجامع ، وسانتا آنة في الشارع الرئيسي المتجه الى باب بجانة[3] ، هذا الى ثلاثة مساجد أخرى كانت تقوم في الموضع الذي يشغله اليوم دير سان فرانشكو ، ومسجد آخر كان يقوم في جانب من دير سانتو دومنجو ، وقد ثبت أيضا أن كنيسة سان روكي الحالية تقوم اليوم في موضع الرابطة كما أن كنيسة سان سباستيان (خارج الاسوار) تشغل مكان رابطة المصلي ، خارج باب بجانة .

أما المسجد الجامع بالمرية الذي نشهد اليوم آثاره في كنيسة سان خوان الواقعة قريبا من دار الصناعة ، فيعتقد الاستاذ توريس بلباس أنه

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ١٠٣ .
(٢) Münzer, Viaje por Espana y Portugal, P. 31.
(٣) Torres Balbas, La mezquita mayor de Almeria, P. 429.

من انشاء الخليفة الحكم المستنصر ، أقامه بعد زيادته في المسجد الجامع بقرطبة بسنوات قليلة[1]. ولكننا نعتقد أنه أقيم في عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر ، الذي أمر بتأسيس المرية واحاطتها بسور من التراب ، اذ ليس من المنطقي أن تبقى المرية منذ انشائها حتى عصر الحكم المستنصر بدون مسجد جامع ، وما دام عبد الرحمن الناصر هو الذي أمر بتأسيس المدينة فمن الطبيعي أن يكون هو نفسه الذي أمر بتشييد مسجدها الجامع ، ونعتقد أنه أمر بتأسيسه بعد سنة ٣٤٦ هـ ، وهو العام الذي بني فيه واجهة بيت الصلاة بجامع قرطبة[2] لتشابه المساند الملفوفة أو الكوابيل التي عثر عليها في أرضية جامع المرية بكوابيل واجهة الصحن التي أقامها الخليفة الناصر في العام المذكور .

كان جامع المرية الاول عند انشائه يتألف من خمسة بلاطات[3] ، تتجه عمودية على جدار القبلة ، وفقا للنظام المتبع في كل مساجد الاندلس[4] ، وكان المحراب مربع في تخطيطه ، طول كل ضلع منه ١٫٩٠ م ، وكانت تعلوه خصة من الحجر مفصصة على شكل قوقعة على النحو الشائع في عصر الخلافة ، ظلت باقية الى يومنا هذا ، ويرجح الاستاذ توريس بلباس، بناء على استنتاج الاستاذ خوان ماتا دي كاريأتو من نقش باحدى اللوحات التي تزين صدر كاتدرائية طليطلة ، أن البلاط

---

(١) Ibid. P. 426.

(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, PP. 8-9.

(٣) أسفرت الابحاث الاثرية التي أجريت في ارضية المسجد من كشف أساس خمس بلاطات ، البلاط الاوسط منها بزيد اتساعه على سائر البلاطات الاخرى ، كالشأن في المساجد الخلافية . ويظهر من الحفريات آثار بلاطين جانبيين أضيفا في عصر متأخر ، اتساع الغربي منهما وهو الذي كشف عنه يزيد على اتساع البلاط الاوسط ، ويفصله أيضا من البلاطات القديمة ركائز خارجية كانت تدعم الجدار الغربي للمسجد القديم (أنظر التفاصيل في مقال توريس بلباس ، ص ٤١٦ ــ ٤١٨) .

(٤) Elie Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, Vol. XIV, P. 283.

الاوسط كانت تعلوه أمام المحراب قبة كما كان الحال في قبة المحراب بمسجد بجانة[1] .

ونظام البناء في جدار المحراب القائم على تعاقب الكتل الحجرية طولا وعرضا يطابق نظام البناء في المسجد الجامع بقرطبة في عهد الخليفة الحكم المستنصر، كما أن المحراب المربع من النوع الشائع في العصر الخلافي، ويوجد نظيره في مسجد الباب المردوم بطليطلة ، ومسجد بورتو دي شنتمرية . ولم يطل الحال كذلك بالمسجد الجامع بالمرية ، فلم يلبث أن أضيف اليه عندما اتسعت المدينة بربضيها ما بين عامي ٤١٩ ، ٤٢٩ أي في عهد زهير العامري ، اذ « زاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة »[2] ، فأضاف زهير الى بلاطاته الخمسة بلاطان أخريان جانبيان أكثر اتساعا من البلاطات الاخرى[3] ، استكمل بهما الجامع سبع بلاطات وهو عدد يماثل عدد بلاطات جامع بجانة ، وجامع قرمونة ، كما أضاف الى الجامع زيادة من الجهة الشمالية تتسع لبلاط عرضي ، فعظم المسجد ، وحبس عليه الفنادق والحوانيت الواقعة في قبالة الجامع وفي شرقيه وفي أماكن كثيرة من الجهة الشمالية ، وبنى السقاية ، وجلب المياه اليها من عين النطية[4] . ويمكننا أن ننسب الى زهير أيضا زخارف المحراب القديمة المختفية تحت طبقة الزخرفة الموحدية التـي نشاهدها اليوم ، وتتمثل الزخارف القديمة في العقود المدببة الصماء التي تزين اللوحات الوسطى،

---

(1) Tores Balbas, La mezquita mayor de Almeria, P. 425, Note 2.

(2) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢١٦ . ويقول ابن الخطيب في الاحاطة « بني المسجد في المرية ، ودار فيه من جهاته الثلاث ، المشرق والمغرب والجوف » الاحاطة ، ج ١ ص ٥٢٦ ، ويبدو أن الاستاذ توريس بلباس خلط بين خيران وزهير ، فنسب هذه الزيادة الى خيران العامري (انظر : Torres Balbas, op. cit. P. 413, 426.) .

(3) العذري ، ص ٨٣ . هذا النظام طبق ايضا في جامع مدينة غرناطة الذي اقيم في القرن الحادي عشر (انظر : E. Lambert, les mosquées de type andalou, p. 283).

(4) العذري ، ص ٨٣ .

وفي المحارات المطبقة على الجوفات ، وفي المساند الملفوفة التي عثر عليها في أرض الجامع ، والتي تشبه في مظهرها مساند واجهة الصحن بجامع قرطبة ، وان كانت تميل من حيث التكوين الى مشابهة نظائرها بالبيرة والمسجد الجامع بتلمسان ، كما أن الافاريز الزخرفية الصغيرة ذات التشابكات القائمة على الخطوط المستقيمة والدوائر تشبه أفاريز قصبة مالقة وقصر الجعفرية بسرقسطة ، ولكنها تختلف عنها من حيث كثافة توريقاتها مما يقطع بأنها متأخرة نوعا ما ، وانها أقرب الى عصر المرابطين[1] . والظاهر أنها ترجع الى عصر المعتصم بن صمادح الذي زود هذا المسجد بالمياه ، وليس من المستبعد أن يكون قد أضاف الى عناصره بعض الزخارف .

ولكن الطبقة العليا من زخارف المحراب تجلو علينا طابعا فنيا آخر أكثر تطورا ويتفق الى حد كبير مع خصائص فن الزخرفة في عصر الموحدين ، فالعقود الصماء الصغيرة القائمة على عمد ، والجوفات المقوسة والمراوح النخيلية الملساء المتصلة فيما بينها عند أطرافها المعقوفة لتكون عقودا ، كل ذلك من الموضوعات الفنية الشائعة في عصر الموحدين ، الامر الذي يقطع بتجديد هذا المحراب في بداية عصر الموحدين ، وأغلب الظن أنه جدد بعد عام ٥٥٢ هـ مباشرة عندما تحررت المرية على أيديهم من الاحتلال القشتالي[2] . وتشبه الزخارف الموحدية بمحراب جامع المرية زخارف محراب آخر من عصر الموحدين عثر عليه في كنيسة نويسترا سنيورا دي لا اسونثيون بمرتلة (في البرتغال) ، وكانت مسجدا أقيم بعد عام ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م)[3] .

(١) Gomez Moremo, Ars Hispaniae, P. 268. (وراجع ترجمتنا لهذا الكتاب).

(٢) انظر التفاصيل في : Torres Balbas, la Mezquita mayor de Almeria, P. 427-428.

(٣) Torres Balbas, Un mihrab almohade en Mertola, al-Andalus, Vol. XX, 1955, P. 188.

أما مئذنة الجامع فلم تكشف الابحاث الاثرية بعد عن أساسها ، وأغلب الظن أنها كانت تقوم في جوفي الجامع ، في منتصف المجنبة الشمالية التي أقامها زهير العامري عند زيادته للجامع من جهاته الثلاثة ، على نحو مئذنة جامع قرطبة وغيره من المساجد التي أقيمت في عصر الخلافة . وقد عثر في المرية على لوحة عليها كتابة تشير الى زيادة ارتفاع المئذنة ، ولا ندري الى أي مسجد تنتمي هذه المئذنة المذكورة في النقش ، ولعلها مئذنة جامع المرية لانه جاء في النص أن الذي حكم بالزيادة في هذه المئذنة ورفعها عما كانت عليه قاضي الجماعة بحضرة قرطبة ، وهو في نفس الوقت صاحب الصلاة بمسجد المرية الجامع . واللوحة المذكورة محفوظة بمتحف بلنثية دي دون خوان بمدريد . ونصها ما يلي : (بسمله... تصلية ... في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . حكم بالزيادة في هذه الصومعة ورفعها عما كانت عليه ، قاضي الجماعة بحضرة المرية ، الفقيه الاجل المشاور الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عطية[1] ، نضر الله وجهه ، وأدام إمامته ، فكان ثبت عنده أن طولها الاول كان ... المدن عن ... الحضرة المذكورة وبالمر ... لاهله ، ويناظر غروب الشمس في بعض فصول السنة ، فأمر وفقه الله بالزيادة) . ويحيط بهذه اللوحة كتابة نصها : (بنظر الفقيه الامين الاجل أبي الفضل الازدي عظم الله أجره وأعزه لتقواه فيها ، فزيد في طولها عشرة أذرع وكمل بذلك بحسن عون الله وتأييده في سنة احدى وثلثين وخمس مائة)[2] .

ولقد وصف منتزر هذا المسجد بعد مضي خمس سنوات من

---

(١) انظر ترجمته في ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٨٢٥ - ابن الابار ، المعجم ، ص ٢٥٩ رقم ٢٤٠ - وابن الزبير ، ص ٢ رقم ٥ .

(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I, P. 124.

سقوط المريـة في أيدي الملكين الكاثوليكيين ، وكان قد تحول الـى كنيسة ، فذكر أنه من أجمل مساجد مملكة غرناطة وأبدعها ، وكانت تضيء في بيت صلاته مئات الثريات[1] • ويذكر منتزر أيضا أن صحن الجامع كان مغروسا بأشجار الليمون وغيرها ، وكان مفروشا بلوحات الرخام ويتوسطه حوض للوضوء • وقد زار منتزر خزانة الجامع التي كان يحفظ فيها زيت الوقود للكؤوس والثريات[2] •

احتفظ المسجد بصورته الاسلامية ما يقرب من ٣٣ سنة ، ثم تهدم جانب منه على أثر زلزال حدث في سنة ١٥٢٢ هـ • ومنذ ذلك التاريخ اتخذ الجامع كنيسة باسم سان خوان، ثم حولت الكنيسة في سنة ١٨٤٥م الى مخزن للمدافع والمهمات ، ثم سلمت الى جماعة الآباء الفرنسسكان ، فحفظوا بقايا الجامع والكنيسة الى اليوم •

رابعا : آثار دار بربض الحوض :

عثر منذ ما يقرب من خمس وعشرين سنة على آثار دار صغيرة بربض الحوض على مقربة من وادي لا شانكا ، أرجع الاستاذ توريس بلباس تاريخ بنائها في مقاله عن هذه الدار الـى القرن الثالث عشر الميلادي (أي في عصر الموحدين)[3] ، ولكن الاستاذ جومث مورينو أرجعه الى عصر الطوائف[4] ، وأخيرا خرج الاستاذ توريس بلباس برأي جديد في تأريخ هذه الدار فأرجعه الى عصر المرابطين[5] ، لتشابه زخارف الازر

---

(١) Münzer, Viaje por Espana y Portugal, P. 30.

(٢) Ibid. P. 31.

(٣) Torres Balbas, Restos de una casa arabe en Alberia, al-Andalus, Vol. X, 1945, PP. 170-177.

(٤) Gomez Moreno, Ars Hispanae, t. III, PP. 268-270.

(٥) Torres Balbas, Nuevas perspectives, P. 428.

السفلي بجدرانها بزخارف قصير-منتقوط بمرسية ، وزخارف بقايا قصر المرابطين في مراكش[1] ، وزخارف احدى دور قصبة مالقة[2] . وتقوم هذه الزخارف على أربعة أنواع متباينة لتكوين هندسي تغلب فيه الوحدة الزخرفية ، ومعظم زخارف هذه الدار تتألف من تشابكات قائمة على تداخل خطوط مستقيمة مع أخرى منحنية لونها أحمر يميل الى الصفرة ، فوق طلاء جيري أبيض[3] .

ولم يتبق من هذه الدار في الوقت الحاضر سوى أسس جدران تزدان أزرها بالزخارف المذكورة ، وتحيط هذه الجدران ببهو كان يتوسطه جب ، والى شمال هذا البهو آثار بائكة من ثلاثة عقود ، تطل عليها قاعة ، وبجوارها مخدع صغير . وقد استخرجت من أرضية هذه الدار قطع من الجص تزدان بتوريقات رائعة ، تشبه الى حد كبير توريقات قبة علي بن يوسف بمراكش ، كما استخرج منها تويجان من الطراز الكورنثي والمركب ، أوراقهما ملساء من نفس طابع بعض تيجان المسجد الجامع بتلمسان[4] .

* * *

---

(١) J. Meunié et H. Terrasse, Recherches archéologiques à Marrakech, Paris 1952. (انظر اللوحات)

(٢) Marçais, L'architecture musulmane d'Occident, P. 213.

(٣) نلاحظ أن قصر مراكش كان يضم بهوا مستطيلا يتقاطع في وسطه ممران على شكل صليب كالشأن في قصير منتقوط وبهو السباع بقصر الحمراء . كذلك تتجلى في فوارة قصبة المرابطين بمراكش زخارف هندسية من تشابكات قائمة على خطوط ومنحنيات مطلية بلون أحمر يميل الى الصفرة كالشأن في دار المرية ، وقصير منتقوط .
(انظر : Terrasse, l'art de l'empire almoravide, PP. 31-32) .

(٤) راجع كتابي : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ .

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية والعلمية

(١) الصناعــات

أولا : صناعة النسيج
ثانيا : فن النحت على الرخام
ثالثا : الصناعات الاخرى

(٢) التجــارة

(٣) الحياة العلمية

أ ــ الحركة الادبية
ب ــ علوم اللغة والدين
ج ــ التاريخ والجغرافيا
د ــ التصوف

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية والعلمية

(١)

الصناعـــات

أولا : صناعة النسيج :

حظيت المرية منذ تأسيسها بشهرة عالميـة في صناعة المنسوجات الحريرية ، فاليها انتقلت صناعة الحرير التـي ازدهرت في بجانة ابان القرنين الثالث والرابع الهجري[١] ، كمـا ورثت أيضا قرطبة حاضرة الخلافة في صناعة الوشي والديباج[٢] ، وذلك بعـد سقوط الخلافة الاموية واضمحلال قرطبة في عصر الفتنة ، فقد ذكر ياقوت فيما يختص بصناعة الوشي والديباج بقرطبة أنه « يعمل بها الوشي والديباج فيجاد عمله ، وكانت أولا تعمل بقرطبة ثـم غلبت عليها المرية ، فلم يثقف في الاندلس من يجيد عمل الديباج اجادة أهل المرية »[٣] .

---

(١) انظر الحميري ، ص ٣٨ .

(٢) اقام فيها عبد الرحمن الاوسط دارا للطراز (ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٠)، وكانت تنسج فيهـا ثياب الخلفاء مـن الحرير المختم المرقوم بالذهب المختلف الالـوان (ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣٨ ـ المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٣٤) . وذكر الرازي أنه من بين المنتجات الصناعية التي تصنع بقرطبة « الاقمشة الناعمة ، والمنسوجات الحريرية السميكة وغير ذلك . » (ارجع الى وصف الرازي للاندلس ، الترجمة الفرنسية للاستاذ ليفي بروفنسال
La Description d'Al-Andalus de Razi, Al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, P. 65
واشتهرت فنيانة بصناعة الديباج (الحميري ، ص ١٤٣) .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الخامس ص ١١٩ .

وفي تقدم هذه الصناعة بالمرية ، وتفوق أهلها على غيرهم من أهل الاندلس يقول الرازي : « المرية مفتاح الرزق والكسب ، وموطن الحذاق من أصحاب الصناعات ... وفيها يصنع أيضا الحلل الموشية النفيسة ... »[1] . وقال ابن سعيد نقلا عن ابن فرج : « حدث فيها من صنعة الوشي والديباج على اختلاف أنواعه ، ومن صنعة الخز ، وجميع ما يعمل من الحرير ما لم يبصر مثله في الشرق ولا في بلاد النصارى »[2] . وفي تعظيم صناعة الحرير بالمرية وتصديره منها الى المشرق الاسلامي يقول الرحالة ابن حوقل : « فأما أرديتهم المعمولة في بجانة ، فتحمل الى مصر ومكة واليمن وغيرها »[3] .

وفي عصر المرابطين تمتعت المرية بالمركز الاول في صناعة المنسوجات الحريرية بالاندلس ، ويحدثنا الادريسي عن شهرة المرية في هذه الصناعة وأنواع منسوجاتها ، وعدد أنوالها أو طرزها فيقول : « ومدينة المرية كانت في أيام الملثم مدينة الاسلام ، وكان بها من طرز الحرير ٨٠٠ طراز يعمل بها الحلل ، والديباج ، والسقلاطون ، والاصبهاني ، والجرجاني ، والستور المكللة، والثياب المعينة، والخمر ، والعتابي، والمعاجر، وصنوف أنواع الحرير »[4] . هذا النص يوضح لنا مدى شهرة المرية في صناعة المنسوجات الحريرية في عصر المرابطين ، ورواج هذه الصناعة وتقدمها في هذا العصر ، كما يدلنا على أن أنوال هذه المصانع الكثيرة المعروفة

---

(1) Description d'al-Andalus de Razi, P. 67.

(٢) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) ابن حوقل النصيبي ، صورة الارض ، تحقيق كرامرز ، ليدن ١٩٣٨، ج ١ ص ١١٤ . ويقصد ببجانة مدينة المرية اذ يقول : « وجميع مدنها قديمة ازلية ، لم يحدث بها في الاسلام غير مدينة بجانة وهي المرية » ص ١١٠ .

(٤) الادريسي ، ص ١٩٧ .

بدور الطراز[1] لم تقتصر على نسج الاصناف المحلية من المنسوجات، وانما كانت تنتج أيضا أنواعا مشرقية ذاعت شهرتها في أنحاء العالم الاسلامي، وأنواعا أخرى اشتهرت بها بلاد اليونان قديما كالسقلاطون . فالحلل[2] نسيج حريري اختصت المرية بصناعته، وكان هذا النسيج يحلى بخيوط ذهبية، ولذلك عرف هذا النوع من النسيج باسم الحلل الموشية . والديباج من المنسوجات الحريرية السميكة، وكان معروفا في المشرق قبل الاسلام، وظلت دور الطراز في الاقطار العربية تنتجه في العصر الاسلامي، وكان يصنع من خيوط الحرير لحمة وسدى، وقد تدخل في نسجه خيوط الذهب . أما السقلاطون[3] أو الاسقلاطون[4] فنسيج من الحرير مطرز بالذهب وكان معروفا في بلاد اليونان ثم انتقلت صناعته الى البلاد العربية، وحذقه الصناع العرب، ويذكر ماركيز دي لوثويا أن السقلاطون كلمة مشتقة من Ciclaton (من Cycle) وهو اسم كان يطلق في كل أوربا على نسيج من الحرير مطرز بالذهب، اختصت بغداد بصناعته، ويرجح أن هذا الاسم طبق على هذا النوع من النسيج بسبب رسومات الدوائر التي تحملها المنسوجات البيزنطية والساسانية

---

(1) ورد في نفح الطيب نص مشابه لنص الادريسي، ولكنه يختلف عنه في بعض التفاصيل، جاء في هذا النص ما يلي: « كان بالمرية لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول، وللحلل النفيسة والديباج الفاخر الف نول، وللاسقلاطون كذلك، وللثياب الجرجانية كذلك، وللاصفهانية مثل ذلك، وللعتابي والمعاجر المدهشة والستور المكللة» (المقري، ج 1 ص 154) وفي هذه الاعداد الهائلة مبالغة كبيرة، وعلى هذا الاساس نعتقد أن المقري نقل هذا النص محرفا من أحد المؤرخين .

(2) جاء بين الالفاظ المغربية التي نشرها الدكتور عبد العزيز الاهواني من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، تحت لفظة حلل ما يلي: « ويقولون لثوب من الوشي حلة، والحلة الرداء والازار معا، ولا يقال حلة حتى يكونا ثوبين » (دكتور عبد العزيز الاهواني الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الثالث 1957، ص 30) .

(3) الادريسي، ص 197 ـ الحميري، ص 184 .

(4) المقري، ج 1 ص 154 .

والعربية[1] ، ولعله المختم المرقوم بالذهب الذي أشرنا اليه .

أما الاصبهاني والجرجاني فنوعان من النسيج ذاعت شهرته في أصبهان وجرجان . والستور المكللة أقمشة من الحرير خفيفة رقيقة ، تزدان بزخارف نباتية وأزهار تشبه الاكاليل . والثياب المعينة نسيج من الكتان أو القطن يزدان بترابيع صغيرة على شكل معينات ، وقيل أنها سميت معينة لانها تشبه العيون ، ونرجح التفسير الاول . والخمر[2] أقمشة حريرية تغطي بها النساء رؤوسهن وتنسدل على الوجه فتغطيه . والعتابي ، نوع من المنسوجات الحريرية اختصت بصناعته بغداد ، ونسب الى محلتها المعروفة باسم العتابية ، فقد ذكر الرحالة ابن جبير أن بالعتابية « تصنع الثياب العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الالوان »[3] . وقد عرف الايطاليون والفرنسيون صناعته في العصور الوسطى عن طريق الاندلس ، وانتقل اليهم اسم هذا النوع من المنسوجات ، فحرف الى Tapis . أما المعاجر فقماش من الحرير شفاف كانت تتخذه النساء لتغطية وجوههن أو لشد رؤوسهن[4] .

ونلاحظ فيما سبق ذكره أن صناعة النسيج في المرية تأثرت الى حد كبير بصناعته في المشرق الاسلامي ، فكانت تصنع بالمرية أقمشة حريرية

---

(1) Marqués de Lozoya, Historia del arte hispanico, t. I, Barcelona, 1931, P. 268.

وكان يعرف في اللغة الفرنسية القديمة باسم Siglaton ، انظر :
Blachère, Extraits des principaux géographes arabes du moyen Age, Paris - Beyrouth, 1932, P. 197-198.

(٢) جمع خمار ، والخمار كل ما خمرت به المراة راسها من شقاق الحرير . (ارجع الى : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي ، ص ٣٠) .

(٣) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ١٩٠٧ ، ص ٢٢٦ .

(٤) يتجلى هذا المعنى في قول السميسر :

واذا تأملت المعا ... جر تحتها دعج المحاجر

(ارجع الى ابن بسام ، القسم الاول ، المجلد الثاني ص ٣٨٥) ومن المعاجر اشتقت كلمة اعتجار أي تلفع (المقري ، ج ٢ ص ٤٤) .

على مثال الاقمشة المصنوعة في بغداد وجرجان وأصبهان مما كان يصل الى الاندلس في العصر الاموي وعصر الطوائف ، فقد ذكر المقري نقلا عن ابن الفرضي عددا من الشقق والملاحف والسرادقات المشرقية التي كانت من بين الهدايا المقدمة من الوزير أحمد بن شهيد الى الخليفة عبد الرحمن الناصر[1] .

ويشير ابن غالب الاندلسي في أواخر القرن السادس الهجري الى ما كان يصنع في المرية من أنواع المنسوجات ، فيذكر أنه « كان فيها من الوشي والسقلاطوني والبغدادي وسائر أجناس الديباج ، وجميع ما يعمل من الحرير ما لم يعمل مثله بصنعاء وعدن ، ومنها كان يسفن الى جميع الآفاق، وكان يعمل فيها الحلل الرفيعة القدر الكثيرة الاثمان»[2]. وفي بداية القرن السابع الهجري حافظت المرية على شهرتها في صناعة المنسوجات الحريرية على الرغم من الموقف السلبي الذي وقفه الموحدون ازاء هذه الصناعة ، فقد تورع الموحدون عن ارتداء الحرير والثياب المذهبة ، وسقطت وظيفة صاحب الطراز من دولتهم ، وان كان المتأخرون منهم استدركوا منها طرفا في آخر عصر الموحدين[3] . ويذكر الشقندي أن المرية ومالقة اختصتا بصناعة الحلل الموشية النفيسة ، « التي تجاوز أثمانها الآلاف ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم »[4] ، كما يؤكد في موضع آخر أن مرسية كانت البلد الثالث بعد المرية ومالقة في صناعة الوشي[5] . وقد أيده ابن سعيد المغربي فيما

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٣٥ . من هذه المنسوجات المهداة الى الخليفة ملاحف بغدادية لزينة الخيل مصنوعة من الحرير والذهب ، وقطع من الخز الجعفري العراقي .

(٢) ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الانفس ، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع ص ١٤ ، ١٥ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٦٧ .

(٤) المقري ، ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٥) نفس المرجع ص ٢٠٧ .

ذهب اليــه بقوله : « اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشي المذهب يتعجب من حسنه أهل المشرق اذا رأوا منه شيئا »[1] .

وهكذا كانت صناعة الوشي أو الحلل الموشية من الصناعات الهامة في المرية ، وكانت لها كما رأينا أسواق عديدة في المشرق الاسلامي وفي أوربا المسيحية . ولقــد وصلت الينا أمثلة عديدة مــن المنسوجات الاسلامية المصنوعة في هذه المدن الثلاث في هذا العصر (عصر الموحدين)، عثر عليها في مقابر المسيحيين في اسبانيا مثــل أكفان دون رودريجو خيمنث دي رادا ، والامير دون فيليب وزوجته ، ومثل أنسجة كاتدرائية لاردة وأغلب الظن أن هذه الامثلة من نسيج صنع بالمرية . وكان أعيان قشتالة وأرغون يجلبون من الاندلس أقمشة لثيابهم . ويعدد العالم الاثري دون مانويل جومث مورينو أمثلــة لذلك[2] . ونلاحظ في زخارف منسوجات هذا العصر ، الاقبال على الزخارف الهندسية والنباتية القائمة على تشابكات ومربعات ووريدات مع كتابات نسخية، والنفور من الصور الحيوانية الموضوعة في دوائر[3] ، والتي كانت من خصائص المنسوجات المصنوعة في المرية .

---

(١) المقري ، ج ١ ص ١٨٧ .

Gomez Moreno, El Pantéon Real de Las Huelgas de Burgos ; Madrid 1946, P. 81 — Marques de Lozoya, Historia del arte hispanico, t. I, P. 269.

(٣) من أمثلة هذه المنسوجات قطعة من النسيج محفوظة في متحف الفنون التطبيقية ببرلين ، وتزدان بصورة فيل واحد داخل دائرة تحف بها زخرفة مضفورة ، ويعلو الفيل شجرة ، وقطعة أخرى محفوظة بمتحف فيش باسبانيا نشاهد فيها التكوين الزخرفي على ارضية قرمزية اللون ، ويتوزع التكوين في صفوف افقية يتناوب فيها موضوعان زخرفيان : احدهما قوامه نسران طويلا العنق متقابلان ، بينهما شجرة ، والآخر يزدان بصورة حيوان خرافي يمثل طائرين متقابلين جسما وراسهما راس أسد ، ويرجح الاستاذ دي لوثويا ان كثيرا من هذه القطع ذات الزخارف الحيوانية المحصورة في دوائر من صناعة المرية (انظر المرجع السابق ص ٢٦٧) . ولا شك أن هذه الاقمشة كانت متأثرة في زخارفها بالموضوعات الشائعة في الفن الساساني والفن الصيني .

وفي عصر بني نصر تقدمت صناعة المنسوجات الحريرية في الاندلس تقدمـا كبيرا بحيث تعددت مراكز صنعها ، فاشتهرت مالقة والمريـة وأندرش وفنيانة ودلاية وغرناطة بهذه الصناعة . ولكن المرية أخذت تتنازل عن مركزها المتفوق لغرناطة في القرنين الثامن والتاسع الهجري . ويشير ابن الخطيب الى تقدم صناعة الحرير بغرناطة فيقول : « وكفى بالحرير الذي فضلت به فخرا وقيتة ، وغلة شريفة ، وفائدة عظيمة ، تمتاره منهـا البلاد ، وتجلبه الرفاق ، وفضيلـة لا يشاركها فيهـا الا البلاد العراقية »[١] ، ووصف ما ترتديه نساء غرناطة في عصر بني نصر بقوله : « وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصبغات والتنفيس بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن في أشكال الحلى الى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر ... »[٢] . ويشير ابن سعيد المغربي الى الملبد المختم ذي الالوان العجيبة الذي يصنع بغرناطة[٣] .

وكانت المنسوجات الاندلسية المصنوعة في المراكز المذكورة في هذا العصر ، مما يهادي به سلاطين غرناطة ملوك مصر[٤] والمغرب[٥] وملوك

---

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ١٠٥ .
(٢) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٤٥ .
(٣) المقري ، ج ١ ص ١٨٧ .
(٤) من بين ما اصطحبه معه سفير مملكة غرناطة الى الظاهر جقمق من هدايا الى السلطان المملوكي ، « شيء من ثياب الخز المنسوجة بها (اي الاندلس) » عبد العزيز الاهواني ، سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، ج ١ مايو ١٩٥٤ ص ١٠٥ .
(٥) أهدى سلطان غرناطة محمد الخامس الى ابي العباس احمد المستنصر المريني قطعا من النسيج الاندلسي ، فوصفها ابن زمرك الشاعر بقوله :

ان الامـام محمـدا ... اهدى الخليفة أحمدا
للباسـه ثوبـا وقـد ... لبس المحامد وارتـدى
وعمامة الشقق التـي ... من فوقها شمس الهدى
وكـان وشى رقومهـا ... بالبرق طرز عسجـدا
وبطـرزه لـون السما ... ء ووجهـه قمـر بـدا
=

المسيحية[1] ، الذين كانوا يعجبون بالمنسوجات الاسلامية الاندلسية

= وقوله أيضا :

أهدى أبا العباس ملك الندى والباس
ثوب السماء لانه بدر بدا للناس
وبطرزه مدح زرى بالمدح في القرطاس

ثم يذكر الاشعار المطرزة على الثوب :

ان كنت في لون السما ء بنسبة وقياس
فلانت يا بدر العلا شرفتني بلباس
أنا منشد (ما في وقو فك ساعة من باس)
لترى رياضا اطلعت زهرا على أجناس
أوراقها توريقها بقضيبها المياس
ومن المديح مدامتي ومن المحابر كاسي
فالله يمتع لابسي بالبشر والايناس

(انظر المقري ، ج ١٠ ص ٨٨ ، ٨٩) . ونلاحظ أن تطريز الاثواب بالاشعار المنسوجة بخيوط الذهب كان من العادات المتبعة في الاندلس عند الملوك والسلاطين ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « من ابهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الابريسم تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب الحاما واسداء بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم ، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه اذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته ، وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة لذلك ، ثم اعتاض ملوك الاسلام غير ذلك بكتب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفال أو السجلات » ارجع الى المقدمة ص ٢٦٦ ، ٢٦٧

وقد حفظ لنا المقري نص بيتين من الشعر كانا مطرزين بالذهب في ثوب لولادة بنت الخليفة المستكفي بالله الاموي ، الطراز الايمن نصه :

أنا والله أصلح للمعالي وامشي مشيتي واتيه تيها

والطراز الايسر نصه :

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

(المقري ، ج ٥ ص ٣٣٦) . ويحتفظ متحف الفنون الزخرفية بباريس بقطعة من الحرير بها شريطان : أحدهما زخرفي والآخر كتابي ، تفصل بينهما منطقة ضيقة من الزخرفية الهندسية المتشابكة وقوام الشريط الزخرفي توريقات نباتية وتشابكات هندسية أما الشريط الكتابي فيتكرر فيه هذا البيت الشعري :

أنا للعز أهل وللعز أنا ومن رآني راى سرورا وهنا

Aleya Ibnrahim, tres telas granadinas, Revista del Instituto egipcio de Estudios Islamicos, Vol. II, 1954, P. 154.

Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, Madrid 1949, P. 198. (1)

ويقدرونها قدرها ، وكانوا من فرط اعجابهم بها يلفون بهـا موتاهم ، ويحفظون بداخلها مخلفاتهم الدينية النفيسة ، وكثيرا ما كانوا يتشبهون في أزيائهم بالمسلمين مثل روي دياث دي روخاس ، قائد أنتقيرة الذي كان يؤثر ارتداء الثياب الاسلامية[1] .

ثانيا : فن النحت على الرخام :

عرفت المرية بثرائها في الرخام الصقيل الملوكي[2] الـذي يصلح لصناعة الاحواض والبيلات ، وصناعـة اللوحات المنشورية الشكل والشواهد اللازمة للمقابر ، كما عرفت أيضا بحصاها الملون الذي يشبه الدر في رونقه[3] ، ويسميها ابن الخطيب « بلد الكتان والرخام »[4] . وتقع مقاطع رخام المرية في جبل سيرا دي لوس فيلابريس الواقع الى الشمال منها[5] ، ومن هذه الجبال كان يقطع وينحت ويعد للاغراض المختلفة ، فمن المرية كان يجلب الرخام الابيض لكسوة جدران قصر الزهراء ، وصناعة الاعمدة ، ونقش تيجانها وقواعدها بهذا القصر[6] .

وكان وجود الرخام بوفرة في جبل المرية المذكور عاملا من عوامل تقدم صناعة الاحواض والتوابيت وشواهد القبور في عصر المرابطين ،

---

(١) عبد العزيز سالم ، صناعة المنسوجات ، مقال بدائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ، ١٩٤٩ ، ص ١٩٣ .

(٢) المقري ، ج ١ ص ١٥٣ – ج ٤ ص ٢٠٧ .

(٣) كان يحمل الى البلاد ويستخدمه الناس لتبريد مياههم فيضعونه في كيزان الماء والبراريد (المقري ، ج ١ ص ١٨٧ ، ج ٤ ص ٢٠٧) .

(٤) ابن الخطيب ، مشاهدات ابن الخطيب ، ص ٨٣ ، الكتان الرفيع اختصت به برجة (انظر ابن غالب ، ص ١٥) .

(٥) تقع هذه الجبال المسماة بـ Sierra de los Filabres شمالي فنيانة وطبرنش ، وجنوبي برشانة .

(٦) المقري ، ج ٢ ص ٦٧ .

وتزدان شواهد القبور بالمرية بنقوش تمثل أشكال محاريب عقودها متجاوزة منكسرة، تحملها عمد على مناكب، ويدور بالعقود طرر مستطيلة الشكل تعلوها أفاريز ، وتحف بهذه الافاريز والطرر نقوش كتابية ، ويغطي المحاريب المنقوشة كتابات جنائزية ، في ذكر المتوفى وتاريخ وفاته وبعض الآيات القرآنية . هذا النوع من الشواهد وصل الى المرية في عصر المرابطين من المشرق الاسلامي ، ومن المرية انتشر في سائر أنحاء الاندلس ، ولذلك سمي هذا النوع باسم الشواهد المرية (Las estelas almerienses) وينسب الى المرية معظم التوابيت التي اكتشفت في مقابر الاندلس ، وتمتاز توابيت المرية بأنها مصنوعة كلها من الرخام الابيض[1] ، كما تمتاز هي والشواهد بأناقة الخط الكوفي المنقوش عليها وجماله . ومن العجيب ألا نعثر في المرية على أثر لشواهد من عصر الموحدين . وكل ما عثر عليه منذ سقوط المدينة في أيدي النصارى في سنة ٥٤٢ حتى استيلاء القشتاليين عليها نهائيا في سنة ٨٩٥هـ شاهد قبر مؤرخ في سنة ٧١٨ هـ ، والسبب في ذلك يرجع الى أن جبال دي فيلابريس المذكورة استغلت مقاطعها الرخامية في عصر الدولة النصرية لبناء قصور الحمراء والفنادق والمساجد والمدارس وغير ذلك من الابنية التي أقيمت في هذا العصر .

وتعبر وفرة هذه الشواهد والآثار الجنائزية المصنوعة من الرخام الابيض في عصر المرابطين عن التقدم الاقتصادي الذي بلغته المرية في هذا العصر وعن الرخاء والثراء الذي تمتع به أهل المرية في ظل المرابطين كما يصوره الادريسي ، وعن ازدهار فن النحت على الرخام في هذا العصر . وانعدام هذه الآثار بعد عام ٥٤٢ يترجم عن بداية اضمحلالها الاقتصادي والفني ، الذي استمر منذ هذا التاريخ حتى سقوط المرية

Torres Balbas, Cementerios, P. 147-149. (1)

في سنة ٨٩٥ هـ[١] .

كذلك تمتعت المرية بشهرة فائقة في صناعة الاحواض الرخامية والفوارات ، فقد كشفت الابحاث الاثرية بأطلال قصر القصبة عن كشف آثار لاحواض مختلفة في الشكل والزخرفة ، منها حوض ناقص القاع من الرخام الابيض عليه نقوش آدمية وحيوانية ونباتية تشبه الرسوم المنقوشة في علب العاج الخلافية[٢] . وقد استمرت شهرة المرية في صناعة الاحواض الرخامية حتى عصر بني نصر ، ولا نستبعد تزويدها قصور الحمراء والمنشآت النصرية بغرناطة بالفوارات الرخامية والاحواض التي تزين حدائقها وتتوسط أبهاءها ، كما لا نستبعد أن يكون الحوض الذي يتوسط قاعة بني سراج والتماثيل الاثنا عشر التي تزين بهو السباع من صناعة المرية . ولكن للأسف ليس هناك دليل تاريخي على ذلك ، ولكننا لا نستبعد حدوثه لقرب المرية من غرناطة من جهة ولان مقطع الرخام الخلافي المسمى بمقطع المناستير بسفح جبل قرطبة[٣] لم يعد من أملاك المسلمين بعد أن سقطت قرطبة في أيدي القشتاليين في سنة ٦٣٦هـ ، ولدينا نص يثبت أن المرية كانت تصدر الاحواض الرخامية الى المغرب في هذا العصر ، ذكره الجزنائي في كتابه « زهرة الآس في بناء مدينة فاس » جاء فيه : « وقد جلب (أبو عثمان سعيد بن خزر) لمولانا أمير المسلمين أبي الحسن المريني رحمه الله من المرية بيلة من الرخام الابيض زنتها مائة قنطار وثلاثة وأربعون قنطارا ، وسيقت من المرية بالاندلس الى بلد العرائش ... الى أن وصلت الى مدرسة الصهريج التي بعدوة الاندلس ، ثم نقلت منها بعد ذلك بأعوام الى

(١) Tores Balbas, Cementerios, P. 182.

(٢) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t. III, P. 272.

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

المدرسة التي أمر ببنائها ازاء القرويين ، وهـي التـي بوسط صحنها الآن »[1] • والمدرسة المذكورة هي المدرسة المصباحية التي أمر ببنائها السلطان أبـو الحسن المريني (٧٣٢ ـ ٧٤٨) بجوار جامع القرويين بفاس سنة ٧٤٧ هـ[2] •

واذا كانت المصادر التاريخية قد أتاحت لنا عـن طريق الصدفة وحدها معرفة هذه الحقيقة بالنسبة للمدرسة المصباحية ، فليس مـن المستبعد أن ينتسب الى مصنع المرية عدد كبير من أحواض الرخام التي تزخر بها مساجد فاس ومدارسها في عصر بني مرين وقصور غرناطة في عصر بني الاحمر •

ثالثا : الصناعات الاخرى :

أشارت المصادر العربية الى صناعات أخرى قامت بالمرية واشتهرت بها هذه المدينة الـى جانب شهرتها السابقة في صناعة الحلل الموشية والتحف الرخامية ، وصناعة السفن وصناعة استخراج الزيوت مـن الزيتون • وفي مقدمة هذه الصناعات الاخرى ، صناعة آلات الحديد والنحاس والزجاج[3] والخزف المزجج والمذهب[4] • فقد كانت تتوفر في المرية المعادن اللازمة لهذه الصناعات ، فمعدن الرصاص كان متوفرا ببرجة[5] ، وكورتها تشتمل على معدني الحديد والرخام[6] ، ثـم

---

(١) الجزنائي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق الفريد بيل ، الجزائر سنة ١٩٢٢ ، ص ٢٧ .

(٢) Marçais, L'architecture musulmane d'Occident, P. 289.

(٣) الادريسي ، ص ١٩٧ ـ الحميري ، ص ١٨٤ ـ المقري ، ج ١ ص ١٥٤ .
وذكر ابن غالب انه «استقرت فيها العدة والآلات للسفن ولما يقوم به الاسطول» (ص ١٤)

(٤) المقري ، ج ١ ص ١٨٧ .

(٥) نفس المرجع ج ١ ص ١٤٣ .

(٦) نفس المرجع ج ١ ص ١٥٣ .

معدن الفضة[1] . وللأسف لم تكشف الحفريات الاثرية التي أجريت في القصبة عن كشف أمثلة من هذه الصناعات ، وكل ما عثر عليه أواني من الخزف المزجج المصنوع في المرية في عصر بني نصر ، بعضها محفوظة في متحف الآثار بمدريد والبعض الآخر في متحف المرية للآثار[2] .

* * *

(١) نفس المرجع ج ١ ص ١٣٨ .

(٢) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, P. 210.

(٢)
التجـــــارة

اكتسبت المرية منذ قيامها كميناء ومرسى شهرة كبرى في التجارة العالمية ، وقد عرفت بأنها باب الشرق ومفتاح التجارة والرزق[١] ، على الرغم من جفافها ، وقلة خيراتها ، واعتمادها في معاشها على ما يجلب اليها من جنات وادي بجانة من نعم وفواكه ، وما يجلب اليها من ساحل العدوة من ميرة وأقوات • والسبب فيما أصابته من شهرة في هذا المجال يرجع الى أنه كانت تصلها السفن من المشرق والاقطار الاوربية للتجارة ، وقد بدأت عظمة المرية كمركز هـام للتجارة البحرية منذ سقوط الخلافة الاموية وانتزاء خيران العامري ومن خلفه من ملوك الطوائف بها ، وليس أدل على ذلك مما ذكره المقري من أنه المعتمد بن عباد أعطى أبا محمد عبدالله بن ابراهيم مبلغا من المال ليتعيش به ، فلم يجد عبدالله أفضل من الانتفاع بهـذا المبلغ في التجارة ، فانصرف الـى المرية اذ كان يعجبه سكناها والتجارة بها ، « لكونها مينا لمراكب التجار من مسلم وكافر » فتاجر فيها بما معه ، ونجح في ذلك نجاحا كبيرا وجنى ثروة كبيرة[٢] • ومن اشتغل بالتجارة في المرية أيضا أحمد بن عميرة الضبي جد أحمد بن يحيى الكاتب (ت ٥٩٩)[٣] •

وقد بلغت حركة التجارة في المرية ذروة نشاطها في عصر المرابطين ،

---

(١) ابن غالب ، ص ١٤ — ابن سعيد ، ج ٢ ص ١٩٣ •
(٢) المقري ، ج ٥ ص ١١٠ •
(٣) الضبي ، ص ٣٣٢ •

ويكفي أن نشير الى ما ذكره الادريسي في هذا الصدد بقوله : « ولم يكن بالاندلس كلها أيسر من أهلها مالا ، ولا أتجر منهم في الصناعات ، وأصناف التجارات تصريفا وادخارا ... والمدينة في ذاتها كبيرة ، كثيرة التجارات ، والمسافرون اليها كثيرون ، ولم يكن في بلاد الاندلس أحضر من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا »[1] . وقد بلغ عدد فنادقها في هذا العصر ، قبل أن يستولي عليها النصارى سنة ٥٤٢ هـ ٩٧٠ فندقا ، مما يدل على وفرة متاجرها وكثرة النزلاء فيها من التجار من أهل الاندلس ومن المشرق الاسلامي ، ومن بلاد النصارى ، والفنادق كانت تؤدي وظيفتين في آن واحد ، الاولى خزن المتاجر والسلع لتوزيعها بعد ذلك بالجملة والثانية ايواء النزلاء من التجار الوافدين . وكلما كانت المدينة عامرة بالمتاجر كلما ازداد عدد فنادقها . ويعزو الادريسي رخاء أهل المرية وتقدم التجارة فيها الى مراكب البحر التي كانت تقصدها من الاسكندرية ، والشام كله[2] . وكذلك يشير ياقوت الحموي الى سر ازدهار الحياة التجارية فيها بقوله : « منها يركب التجار ، وفيها تحل مراكب التجار ، وفيها مرفأ للسفن والمراكب »[3] ، كذلك أشار أبو عبدالله السقطي صاحب كتاب آداب الحسبة الى أهمية المرية التجارية في عصره (عصر المرابطين) كمحط للسفن ودار للتجار والمسافرين[4] .

ومما يدل على ازدهار الاقتصاد المري بسبب اتساع التجارة في المرية وازدياد ثروات السكان ، بقايا هياكل القبور بلوحاتها المنشورية

---

(١) الادريسي ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) نفس المرجع ، الحميري ، ص ١٨٤ .

(٣) ياقوت ، مجلد ٥ ص ١١٩ .

(٤) أبو عبدالله محمد بن ابي محمد السقطي المالقي ، كتاب في آداب الحسبة ، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان ، باريس ١٩٣١ ، ص ٥٥ . ومن حديثه عن المرية نستنتج انها كانت مركزا لتجارة الرقيق والنخاسة ، كذلك نصل الى هذا الاستنتاج من وثيقة رقم ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ من كتاب الوثائق العربية الدبلوماسية بمحفوظات ارغون .

الشكل (مقبريات) والشواهد الكثيرة التي كشفت في مقابر المدينة ، وهي بأناقتها ، وجودة صناعتها ، واتقانها ، ودقة النقوش وروعتها ، تعبر أصدق تعبير عن حياة الترف التي نعم بها أهل المرية في هذا العصر . ومن بين الاسماء التي وصلت الينا عن طريق النقوش الكتابية بهذه الشواهد أسماء بعض التجار ، أحدهما اسكندري الاصل يدعى « التاجر ابن حليف الاسكندري » المتوفى سنة ٥١٩ هـ[١] ، والثاني من بلاد الشام واسمه « أبو عمرو عثمان بن محمد بن بقي الشامي » المتوفى سنة ٥٢٥ هـ[٢] ، مما يؤكد تطبيقيا قيام صلات تجارية بين المرية وبين الاسكندرية والشام ، وهي صلات أشار اليها المؤرخون فيها سبق أن عرضناه . والثالث أبن الحسن آدم بن عمر الشاطبي المتوفى في المرية سنة ٥٢٧ هـ[٣] والرابع التاجر أبو بكر محمد بن ابراهيم بن حمد بن طيفور المتوفى سنة ٥٤٠ هـ[٤] .

وفي عصر الموحدين ، حافظت المرية على شهرتها التجارية ، فكانت بها على حد قول الشقندي القاعدة التجارية لسفن النصارى ، وكان فيها ديوائهم ومنها كانت تتوزع متاجرهم على بلاد الاندلس كلها ، وفيها كانت تشحن البضائع التي كانت تصلح لهم ، وقد كان في الابقاء على هذه الامتيازات الممنوحة للنصارى مصلحة للمسلمين اذ كانت تفرض على هؤلاء التجار النصارى ضريبة العشور ، كما أنه لم يكن بالاندلس مدينة أخرى تعادلها في الموقع المتوسط وفي اتساع مينائها وقيامها

---

(١) ارجع الى Ramon Revilla Vielva, Patio arabe del Museo Arqueologico nacional, Madrid, 1932, P. 120 — Lévi-Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, t. I, P. 116.

(٢) Ramon Revilla, op. cit. P. 123.

(٣) نفس المرجع ص ١٢٥ .

(٤) نفس المرجع ص ١٢٩ ، Lévi-Provençal, op. cit., P. 128.

بالصادر والوارد[١] • وقد استلزم وجود ديوان للنصارى اقامة فنادق ووكالات تجارية لهم في المرية ، وهو أمر أشار اليه المؤرخون •

ومن التجارات التي كان أهل المرية يقومون بها ، تجارة المنسوجات الحريرية التي كانت تصدر الى المشرق الاسلامي والى ايطاليا وفرنسا وقطلونية ، وزيت الزيتون الذي كان يسفن الـــى المشرق الاسلامي ، والاواني الخزفية التي اشتهرت بصناعتها مدينة المرية ومدينة مالقة على وجه خاص وكانت من التجارات الرابحة[٢] • وقد أشار سفير غرناطة الى السلطان جقمق الى تحف مـــن الفخار المالقي والانجبار الغرناطي هاداه بها[٣] •

كذلك كانت المرية تصدر التحف المعدنية والاسلحة التي اختصت بصناعتها المرية ومرسية ، والبسط التنتلية التي تسفر لبلاد الشرق[٤] ، وهي بسط تنسب الـــى تنتالة من عمل مرية ، وكان يغالي في ثمنهـــا بالمشرق[٥] • كما كانت تصدر الى بلاد افريقية والمغرب وغيرها « آلات الصفر والحديد من السكاكين والامقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل »[٦] •

وكانت المرية في عصر بني نصر على علاقة وثيقة بموانىء أرغون

---

(١) المقري ، ج ٤ ص ٢٠٧ •

(٢) يضم متحف الفن الاسلامي بالقاهرة قطعا كثيرة من جرار اندلسية معظمها من مالقة ، اكتشفت في الفسطاط (انظر Manuel Casamar, Fragmentos de Jarrones malaguenos en los museos del Cairo, Al-Andalus, Vol. XXVI 1961, P. 190) كما اسفرت الحفائر الاثرية بكوم الدكة بالاسكندرية عن كشف قطع كثيرة من الخزف الاندلسي Gamal Mehrez, Recientes hallazagos de céramica andaluza en Alejandria, Al-Andalus, Vol. XXIV, 1959, P. 400.

(٣) عبد العزيز الاهواني ، سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة ، ص ١٠٥ •

(٤) المقري ، ج ٤ ص ٢٠٧ •

(٥) المقري ، ج ١ ص ١٨٧ •

(٦) نفس المرجع •

مثل لقنت وبلنسية ، وكان التجار من أهل المرية يسافرون الى هـذه الموانىء بقصد التجارة ، ويتجلى لنا ذلك من رسالة أرسلها السلطان اسماعيل بن فرج بن نصر في ٣ محرم سنة ٧٢٣ الى خايمي الثاني ملك أرغون بشأن المطالبة بالتحقيق في غيلوط (مركب تجاري) لاهل المرية كان راسيا بلقنت للتجارة ، فهاجمته قرقورة أرغونية في هـذا الثغر واستولت على بعض سلعه ، ولما أقلع المركب الاسلامي الى المرية تبعه شيطي (سفينة حربية) أرغوني وأدركه بالقبطة واستولى على الغيلوط وعلى جميع ما كان به من الوسق (الشحنة) وخطفوا من ركابه امرأتين وصبيا وصبيتين[١] .

على أن التجارة البحرية لم تكن تسلم من الاخطار الناشئة مـن القراصنة الارغونيين وغيرهم ، وكثيرا مـا نال سفن المرية أذى أجفان أرغونة ، ومثل ذلك أن قرقورة اسلامية غرقت بساحل القبطة من أحواز المرية ، وكانت خارجة من هذا الثغر متجهة الى العدوة ، وتمكن جفنان أرغونيان من التقاط غرقى المسلمين ولكن بحارته أخذوهم أسرى[٢] ، كمـا أن سفن النصارى كانت تهاجـم البحريين المسلمين في المريـة وتأسرهم[٣] ، وتستولي على بضائعهم وأموالهم[٤] .

ولذلك اشترط الغني بالله محمد الخامس بن أبي الحجاج يوسف في معاهدته مع بدرو الرابع ملك أرغون في ١٨ صفر سنة ٧٧٩ أن يتردد

---

(١) وثيقة رقم ٥ من كتاب الوثائق العربية الدبلوماسية بمحفوظات أرغون التي نشرها Ramon Garcia de Linares, Maximiliano Alarcon

بعنوان : Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la corona de Aragon, Madrid 1940, P. 12.

(٢) من وثيقة رقم ٥٣ ، ص ١٠٦ .

(٣) من وثيقة رقم ٦١ ، ص ١١٩ .

(٤) من وثيقة رقم ٦٢ ، ص ١٢١ ، ووثيقة رقم ٦٣ ، ص ١٢٢ .

التجار المسلمون والنصارى في البحر دون أن يتطرق اليهم أحد بضرر من المسلمين أو النصارى، وأن يصرف ملك أرغون أسرى المسلمين الذين أخذوا في غراب المرية ، وعددهم ٢٤ أسيرا مقابل الافراج عن ثلاثين من أسرى النصارى[١] .

* * *

(١) من وثيقة رقم ١٦١ ، ص ٤٠٩ .

(٣)
الحياة العلمية

أ ـ الحركة الادبية :

عندما انهارت دعائم الخلافة الاموية ، وانتثر عقدها ، وتمزقت البلاد الى دويلات مستقلة ، وتلقب الثوار والمنتزون بألقاب الخلافة ، أخذوا يتطلعون الى حياة الترف والبذخ التي عرفت بها بغداد ، وتحولت عواصم الاندلس الى بغدادات صغيرة كثيرة[١] ، وسمت هممهم الى التأنق والتشبه بالملوك ، فاستغرقوا في الترف والرفاهية ، تظاهرا بالعظمة والملك ، فأقاموا القصور ، وشيدوا الاسوار والحصون ، وضربوا العملات بأسمائهم ، واتخذوا الوزراء والحجاب ، واصطنعوا الشعراء والادباء وتنافسوا في اجتذابهم اليهم للمباهاة بمدائحهم لهم ، وأصبحت المدائح تجارة رائجة ، وأخذ الشعراء عندما اشتد عليهم الطلب يقطعون الاندلس طولا وعرضا ، ينتجعون قصور الامراء[٢] للظفر بصلاتهم ، والفوز بأعطياتهم وفي هؤلاء الملوك يقول الشقندي : « وكان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد ، اذ نفقوا سوق العلوم ، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم ، فما كان أعظم مباهاتهم الا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني ، وليس منهم الا من بذل وسعه في المكارم ، ونبهت الامداح من مآثره

---

(١) غرسية غومس ، الشعر الاندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٤٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٦ .

ما ليس طول الدهر بنائم ، وقد سمعت ما كان من الفتيان العامرية مجاهد ومنذر وخيران ، وسمعت عن الملوك العربية بنو عباد وبنو صمادح وبنو الافطس وبنو ذي النون وبنو هود ، كل منهم قد خلد فيه من الامداح ، ما لو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح ، ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواسم بين الرياض ، وتفتك في أموالهم فتكة البراض ، حتى ان أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أن حلف أن لا يمدح أحدا منهم بقصيدة الا بمائة دينار ، وأن المعتضد بن عباد على ما اشتهر من سطوته ، وافراط هيبته ، كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شرطه في قسمه »[1] .

وهكذا نشطت الحركة الادبية في الاندلس في عصر الطوائف رغم التفكك السياسي الذي حل بالبلاد ، وكانت المرية من بين المدن التي تألقت فيها سماء الادب ، ففي عهد خيران قصده الشاعر الكاتب أبو عمرو أحمد بن دراج القسطلي ، وكان شاعرا من فحول شعراء المنصور بن أبي عامر ، وله فيه أمداح جليلة ، وقد ذكر الثعالبي أنه « كان عندهم بصقع الاندلس كالمتنبي بصقع الشام »[2] . وقد قضى ابن دراج حياته بعد سقوط الخلافة بقرطبة سائحا بين دويلات الطوائف ، وفيه يقول ابن حيان : « وكان ممن طرحت به تلك الفتنة الشنعاء واضطرته الى النجعة ، فاستقرى ملوكها أجمعين ، ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الاعلى ، يهز كلا بمديحه ، ويستعينهم على نكبته »[3] . وكان خيران العامري ملك المرية من بين من مدحهم بشعره وذلك في سنة ٤٠٧ هـ وهو متوجه الى سرقسطة ، وتعتبر قصيدته في مدحه من أجمل

---

(١) المقري ، ج ٤ ص ١٧٩ — ١٨٠ .
(٢) ابن بسام، الذخيرة، قسم ١ مجلد ١ ص ٤٤ ـ ابن سعيد، المغرب، ج ٢ص ٦٠ .
(٣) ابن بسام ، نفس المرجع ص ٤٤ .

ما قيل في مدح الملوك ، ومطلعها :

لك الخير أوفى بعهدك خيران وبشراك قد وافاك عز وسلطانه[1]

ومن أدباء المرية في عصر زهير العامري ، قاضيها أبو الحسن مختار ابن عبد الرحمن بن سهر الرعيني[2] . ومن أعظمهم في هذا العصر الوزير الكاتب أبو العباس أحمد بن زكريا ، وكان ابن عباس هذا كثير الغرور بنفسه ، فقد ذم أديب قرطبة أبا عامر بن شهيد ، وذم أهل قرطبة بقوله : « ما رأيت بقرطبة الا سائلا أو جاهلا »[3] . وكان بالرغم من غروره الممقوت كاتبا حسن الكتابة ، جيد الخطابة ، متمكنا في الادب ، شارعا في الفقه ، شاعرا بطبيعته[4]. وقد انتهى أمره بالموت مقتولا في ٤٢٧ هـ.

ويعتبر عصر المعتصم بن صمادح بحق العصر الذهبي للعلوم والآداب في المرية ، فقد كان ابن صمادح من أهل الادب والمعارف ، وكان للشعراء والكتاب عنده سوق نافقة ، فقصده فحول الشعراء في هذا العصر ، وكان هؤلاء الشعراء يؤثرون بلاطه على بلاط المعتمد بن عباد نفسه ، من أمثلة ذلك أنه أرسل وزيره أبا الاصبغ بن الارقم الى المعتمد بن عباد ، فأعجبت المعتمد محاولته ، ووقع في قلبه ، فأراد افساده على صاحبه ، وأغراه بالاقامة عنده ، فأبى أبو الاصبغ وقال : « ما رأيت من صاحبي ما أكره فأوثر عند غيره ما أحب ، ولو رأيت ما أكره لما كان من الوفاء تركي له في حين فوض الى أمره ، ووثق بي ، وحملني أعباء دولته » فاستحسن ذلك ابن عباد[5] . ومن شعراء المعتصم ، أبو عبدالله

---

(١) نفس المرجع ص ٧٤ وما يليها ـ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢١٢ ـ ديوان ابن دراج ، المقدمة ص ٦٨ .

(٢) ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٠٧ ـ المقري ، ج ٤ ص ٣٥٢ .

(٣) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ٢ ص ١٧٦ .

(٤) ابن بسام ، نفس المرجع ص ١٧٥ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ٢٦٧ .

(٥) المقري ، ج ٥ ص ٤٥ ـ H. Pérès, la Poésie andalouse, P. 23

ابن حداد وابن عبادة وابن الشهيد[1] ، وغيرهم ممن لزموه وحده • كما قصده ابن عمار الشاعر والسميسر والنحلي البطليوسي ، وابن بليطة وابن أخت غانم ، وأبو الحسن بن الحاج الوشاح[2] •

وأعظم شعراء المعتصم بلا منازع هو أبو عبدالله محمد بن أحمد الحداد الذي تقلد الوزارة لعلو مكانته ، فقد كان فنانا في شعره ضمنه علمه وثقافته وفلسفته ، وفيه يقول ابن بسام : « ترى العلم ينم على أشعاره ويتبين في منازعه وآثاره ، وله في العروض تأليف وتصنيف ، مشهور معروف ، مزج فيه بين الانحاء الموسيقية والآراء الخليلية »[3] • ولد ابن الحداد في بلدة وادي آش ، ولكنه استوطن المرية منذ طفولته وقضى فيها معظم عمره ، وقصد ابن صمادح ومدحه بأروع قصائده ، وقد غلبت هذه المدائح الصمادحية على كل شعره • وفي شبابه أحب ابن الحداد فتاة مسيحية تسمى نويرة أنشد فيها قصائد كثيرة ، وقد غضب ابن الحداد من المعتصم بعد أن اعتقل أخيه، فخرج من المرية سنة ٤٦١ هـ الى سرقسطة حيث مدح المقتدر بالله بن هود ، وعاد ابن الحداد الى المرية بعد أن صفح عنه المعتصم ، فأكرمه وأجزل قراه[4] •

---

(١) ابن بسام، قسم ١ مجلد ٢ ص ٢٣٩ ـ ابن عذارى، ج ٣ ص ١٧٥ ـ ابن الخطيب، أعمال الاعلام ، ص ١٩٠ •

(٢) قال من مخمسة يرثي فيها ابن صمادح :

تنتحب الدنيا على ابن معن　　كأنها ثكلى أصيبت بابن
اكرم مأمول ولا أستثني　　أثني بنعماه ولا أثني
والروض لا ينكر معروف المطر
عهدي بـه والملك في ذماره　　والنصر فيما شاء من انصاره
يطلع بدر التم من أزراره　　وتكمن العفة في ازاره
ويحضر السودد أيان حضر

(المقري ، ج ٥ ص ٢٤٣) •

(٣) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ٢ ص ٢٠١ ـ ابن سعيد ، ج ٢ ص ١٤٤ •

(٤) نفس المرجع ص ٢٣٤ •

أما أبو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، فقد كان من مشاهير أدباء المرية في عصر ابن صمادح ، كما كان من البارعين في نظم الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الاندلس[1] ، أما أبو حفص عمر بن الشهيد فقد كان من أئمة أدباء المرية وفرسان الشعر والنثر ، مدح المعتصم بقصائد رائعة منها قوله :

سبط اليدين كأن كـل عمامة ... قـد ركبت في راحتيه أناملا
لا عيش الا حيث كنت وانما ... تمضي ليالي العمر بعدك باطلا[2]

وأبدع في الجمع بـين جمال الروض بزهره ومحيا ابن صمادح بفضائله بقوله :

خليلي عوجا بي على الربع دارسا ... نحـى رياضا أحدقت بجـداول
مـلاعب كاسات ونزهة أعـين ... ومسلى لمشتاق وذكرى لغافـل
وأحسن من روض تحلى بنوره ... محيا ابن معن في حلى الفضائل[3]

ومن شعراء المعتصم بن صمادح أبو الفضل جعفر بن أبي عبدالله محمد بن شرف البرجي المعروف بالحكيم الفيلسوف[4] ، ومنهم أبو عبيد الله البكري الجغرافي الشاعر الذي انتقل الى المرية وعاش في كنف المعتصم فترة من الزمن ، ثم استقر بعد ذلك بإشبيلية ، ومنهم الشاعر أبو جعفر البغيل[5] ، وأبو الحسن بن الحاج[6] ، وأبو القاسم أسعد[7] .

---

(١) ابن سعيد ، ج ٢ ص ١٣٦ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٠٩ .
(٣) ابن بسام ، قسم ١ مجلد ٢ ص ١٩٦ .
(٤) آنخل جنثالث بلنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١١٠ – ١١١ .
(٥) المقري ، ج ٥ ص ٢٨٣ .
(٦) المقري ، ج ٥ ص ٢٤٢ .
(٧) نفس المرجع ، ج ٥ ص ٢٣٩ .

وكان المعتصم وبنوه من الشعراء المجيدين ، ومما يؤثر عـن المعتصم أنه لما حاصر المرابطون بلده وهو يعالج سكرات الموت ، قال : لا اله الا الله ، نغص علينا كل شيء حتى الموت ، فدمعت عين حظية له ، فأنشدها بصوت خافت وهو يحتضر :

ترفق بدمعك لا تفنـه فبين يديك بكاء طويل[1]

ومن أشعر أبنائه رفيع الدولة ، وأبو جعفر أحمد ، وعز الدولة ، وأختهم الشاعرة الزجالة أم الكرام • ومن شاعرات المرية في هذا العصر زينب المرية والجارية المسماة غاية المنى[2] •

وفي عصر المرابطين برز أبو مروان عبد الملك بن سميدع من أهل المرية ، والشاعر النحوي أبو الحسن سليمان بن محمد بن الطراوة ، والعالم المتصوف أبو العباس أحمد بن العريف ، وأبو الحسين محمد بن سفر ، وأبو عبدالله محمد بن جعفر بن شرف البرجي •

وفي عصر الموحدين نبغ من أدباء المرية أبو بكر يزيد بن صقلاب صاحب أعمال المرية ، وأبو الحكم بن هرودس ، والشاعر الوشاح أبو الحسن بن علي بن المريني، والزجال أحمد بن الحاج المعروف بمدغليس، « وكان مدغليس هذا مشهورا بالانطباع والصنعة في الازجال ، خليفة ابـن قزمان في زمانه ، وكان أهل الاندلس يقولون : ابـن قزمان في الزجالين بمنزله المتنبي في الشعراء ومدغليس بمنزلة أبي تمام ، بالنظر الى الانطباع والصناعة »[3] ، كما نبغ بهـا الخطيب الاديب النحوي أبو عبدالله محمد بن الفراء[4] •

---

(1) ابن سعيد ، ج ٢ ص ١٩٦ — ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٩١ •
(2) المقري ، ج ٦ ص ٢٢ ، ٢٣ •
(3) نفس المرجع ، ج ٤ ص ٣٥٦ •
(4) نفس المرجع ، ج ٤ ص ٣٥٧ •

ب ـ علوم اللغة والدين :

بـدأت الدراسات اللغوية في الاندلس تعتمد أول الامر علـى مصنفات علماء المشرق أمثال سيبويه والكسائي وأبو علي القالي ، ثم ظهر انتاج علماء الاندلس في النحو منذ عصر بني أمية فظهر أبو بكر بن القوطية وأبو محمد بن الحسن الزبيدي الاشبيلي . وفي عصر الطوائف ظهر جملة من كبار علماء النحو واللغة في الاندلس . ولـم تكن المرية بمنأى عن هذا النشاط الكبير في العلوم اللغوية ، فقد برز فيها أبـو الحسن سليمان بن محمد بن الطراوة نحوي المرية ، « الذي لم يكن في هذه الصناعة مثله ، وله الذكر السائر في الآفاق »[1] وكان له مـن التعبيرات في النحو ما هو مشهور ، كما برز بها في عصر المعتصم أبـو عبدالله محمد بن معمر ابن أخت انم العالم اللغوي[2] . وفي عصر المرابطين برز من أهل المرية في علوم اللغة الفقيه المحدث عبد الملك بن محمد بن عمر المعروف بابن ورد التميمي ، وكان من جلة الفقهاء المحدثين ، وكان موفور الحظ من الادب والنحو والتاريخ ، كما كان متقدما في علـم الاصول والتفسير ، وقد توفى بالمرية في سنة ٥٤٠ هـ[3] .

ومنهم أيضا يوسف بن يبقى بن يوسف التجيبي المعروف بابن يسعون ، من أهالي المرية والمسلم له في صناعة العربية ، وقد أقام بالمرية بعد تغلغب الروم على بلده في سنة ٥٤٢ هـ ، وولي القضاء بين المسلمين المقيمين في عهد الاحتلال[4] . ومنهم الاديب النحوي أبو عبدالله محمد ابن الفراء ، « وكان يعلم بالمرية القرآن والنحو واللغة ، وكانت فيه فطنة

---

(١) ابن سعيد المغربي ، ج ٢ ص ٢٠٨ ـ المقري ، ج ٤ ص ٣٥٥ .
(٢) المقري ، ج ٤ ص ٣٦٧ .
(٣) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ١٧٦ ـ المقري ، ج ٤ ص ٣٥٤ .
(٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٣١٦ .

ولوذعية ، وذكاء وألمعية ، خرق بها العوائد »[1] .

أما في علوم الدين فقد بلغ علماء المرية الغاية ونبغ منهم كثيرون في علوم الحديث والتفسير والقراءات ، خاصة في عصر المرابطين ، ومن علماء المرية في التفسير أبو بكر محمد بن ابراهيم بن أسود الغساني ، وله كتاب في تفسير القرآن[2] ، والمقرىء المحدث أبو علي الصيرفي المعروف بابن شكره ، وأصله من سرقسطة ، ولكنه استوطن المرية فترة طويلة ، ولطول مقامه بها أخذ الناس عنه ، وقد شهد ابن شكره موقعة كتندة سنة ٥١٤ هـ واستشهد فيها[3] . ومن كبار المحدثين بالمرية أبو عبدالله محمد بن سعدون التروي ، وأبو عبدالله بن المرابط[4] ، والمحدث أبو عبدالله محمد بن أحمد الوضاحي القيسي المتوفى سنة ٥٣٦ هـ[5] ، وأبو علي الحسن بن محمد الانصاري المعروف بابن الرهبيل المتوفى سنة ٥٨٥ هـ[6] ، والفقيه عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي ، وكان فقيها عالما بالتفسير والاحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والادب ، ولي قضاء المرية في سنة ٥٢٩ هـ وتوفى في سنة ٥٤٦ هـ[7] . ومنهم أبو أمية ابراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد الغافقي[8] ، والمحدث أبو علي منصور ابن خميس اللخمي المري العالم[9] ، ومنصور بن لب بن عيسى الانصاري[10] ، والحافظ عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الانصاري

---

(١) المقري ، ج ٤ ص ٣٥٧ .
(٢) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٢٦ — المقري ، ج ٢ ص ٢٥٧ .
(٣) المقري ، ج ٢ ص ٢٩٥ .
(٤) نفس المرجع ج ٢ ص ٢٩٥ .
(٥) نفس المرجع ج ٢ ص ٤١٨ .
(٦) نفس المرجع ج ٣ ص ٢٦٥ .
(٧) نفس المرجع ج ٣ ص ٢٨٠ .
(٨) نفس المرجع ج ٣ ص ٣٦١ .
(٩) نفس المرجع ج ٣ ص ٣٨٥ .
(١٠) نفس المرجع ج ٣ ص ٣٩٨ .

الخزرجي المتوفى سنة ٥٥٩ هـ[١] ، والمحدث ابن حبيش[٢] والخضر بن عبد الرحمن[٣] . ومنهم الحافظ النسابة عبدالله بن علي بن عبدالله الرَشاطي وأصله من أوريولة ، وسكن المرية ، فنشأ بها وطلب العلم فيها حتى عد من أهلها ، واستشهد بالمرية عند دخول النصارى في جمادى الاولى سنة ٥٤٢ هـ[٤]، ومنهم المفسر علي بن عبدالله الجذامى البرجي[٥]، والمحدث علي بن ابراهيم المعروف بابن اللوان[٦] .

ج ــ التاريخ والجغرافيا :

ساهمت المرية في نشاط حركة التأليف في التاريخ والجغرافيا في عصر المرابطين ، فبرز من رجالها في التاريخ الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن يوسف المعروف بابن حبيش شيخ ابن دحية وابن حوط الله وأبي الربيع الكلاعي[٧] ، وكان فيلسوفا ومؤرخا وفقيها ، ومن مصنفاته في التاريخ كتاب ذكر الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء (الاول الى الثالثة)[٨]. ومنهم المؤرخ الكبير الشاعر ابن خاتمة في عصر الدولة النصرية . وهو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد المعروف بابن خاتمة الانصاري ، الذي يعتبر « حسنة من حسنات الاندلس ، وطبقة في النظم

---

(١) Pons Boigues, Ensayo, P. 226 ، جنثالث بلنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٢٨١ .

(٢) Pons Boigues, op. cit. P. 205.

(٣) ابن الابار ، المعجم ، ص ٧١ .

(٤) نفس المرجع ص ٢١٧ ــ ٢١٩ ، Pons Boigues, P. 201

(٥) المعجم ، ص ٢٧١ .

(٦) نفس المرجع ص ٢٨٠ .

(٧) المقري ، ج ٦ ص ٢٠٧ ، أنظر ترجمة ابن حوط الله في المقري ، ج ٦ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٨) Pons Boigues, op. cit. P. 253.

والنشر »[1] . قرأ ابن خاتمة على أبي الحسن علي بن محمد بن أبي العيش المري ، ولازمه ، وعلى الشيخ الخطيب أبي اسحق ابراهيم بن أبي العاص التنوخي ، وعلى الشيخ أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن شعيب القيسي المري . وقد ألف ابن خاتمة كتابا في تاريخ المرية سماه « مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية » ، كما ألف كتابا عن الوباء الذي اجتاح الاندلس فيما بين عامي ٧٤٨ ـ ٧٥٠ هـ سماه ، « تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد »[2] .

وأعظم من نبغ في علم الجغرافيا ، أبو العباس أحمد بن أنس المعروف بابن الدلائي المتوفى بالمرية سنة ٤٧٨ هـ ودفن في مقبرة الحوض من مقابرها . وقد ألف كتابا في الجغرافيا اقتبس منه الشريف الادريسي في نزهة المشتاق ، وجعل عنوانه : « نظام المرجان في المسالك والممالك »[3] .

د ـ التصوف :

كانت المرية أيضا في عصر المرابطين مركزا هاما للتصوف في الاندلس ، وفيها نبغ شيخ الصوفية والمريدين في الاندلس ، الزاهد العارف بالله سيدي أبو العباس بن العريف ، أستاذ أساتذة محيي الدين ابن عربي المرسى ، واسمه أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله بن العريف الصنهاجي (٤٨١ ـ ٥٣٦) وكان أبوه من رجال المعتصم بن صمادح ، ونشأ ابنه أبو العباس أحمد نشأة متواضعة ، اذ كان يشتغل

---

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ص ٢٤٧ وما يليها .

(٢) Pons Boigues, op. cit. P. 331.

(٣) Ibid. P. 158. وقد قام الاستاذ الدكتور عبد العزيز الاهواني بنشره أخيرا ، وصدر من بين مطبوعات المعهد الاسلامي بمدريد .

صبيا عند حائك ، ولكن أبا العباس كان متعلقا بالعلوم الدينية ، فترك هذه الحرفة ، وقرأ القرآن على أبي الحسن البرجني بالمرية وعلى أبي القاسم بن النخاس بقرطبة ، كما أخذ الحديث في المرية عن أبي خالد يزيد مولي المعتصم ، وأبي بكر عمر بن رزق المعروف بابن الفصيح ، وأبي محمد عبد القادر بن الحناط القروي ، وتصدر ابن العريف بالمرية للاقراء ، واشتهر بالزهد والعبادة ، وكثر أتباعه على طريقته الصوفية ، حتى نمي ذلك الى علي بن يوسف بن تاشفين فأمر باشخاصه من المرية الى مراكش ، وفي مراكش توفى ابن العريف في صفر سنة ٥٣٦[١] . وقد ألف ابن العريف كتابا سماه « محاسن المجالس » ضمنه أصول طريقته الصوفية الجديدة التي تعتبر صدى بعيدا لآراء ابن مسرة القرطبي[٢] ، وكان لطريقته أثر واضح في الطريقة الشاذلية وبالذات في مذهب ابن عباد الرندي . وجوهر هذه الطريقة « الزهد في كل شيء ما عدا الله ، بما في ذلك الزهد في منازل الصوفية والعطايا والمواهب الالهية والكرامات وما اليها من المنن التي يهبها الله للنفس الانسانية[٣] . ومن شعر ابن العريف :

سلوا عن الشوق من أهوى فانهم ... أدنى الى النفس من وهمي ومن نفسي
فمن رسولي الى قلبي ليسألهم ... عن مشكل من سؤال الصب ملتبس
حلوا فؤادي فما يبذي، ولو وطئوا ... صخرا لجاد بماء منه منبجس
وفي الحشا نزلوا والوهم يجرحهم ... فكيف قروا على أذكى من القبس[٤]

(١) ابن الابار ، المعجم ، ص ١٨ — ٢٢ .
(٢) آنخل جنثالث بلنثيا ، ص ٢٧١ .
(٣) نفس المرجع ص ٣٦٩ .
(٤) المقري ، ج ٤ ص ٢١٤ .

وقوله :

من لم يشافه عالما بأصوله ... فيقينه في المشكلات ظنون
من أنكر الاشياء دون تيقن ... وتثبت فمعانـد مفتـون[1]

وقوله :

شدوا الرحال وقد نالوا المنى بمنى ... وكلهم بأليم الشوق قـد باحا
راحت ركائبهم تنـدي روائحهـا ... طيبا بما طاب ذاك الوفد أشباحا
نسيم قبـر النبي المصطفى لهـم ... راح اذا سكروا من أجله فاحا
يـا راحلين الى المختار من مضر ... زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا
إنـا أقمنا على شوق وعن قـدر ... ومن أقام على عذر كمن راحا[2]

ومـن تلاميذ ابن العريف ، الشيخ أبـو عبدالله الغزال ، رئيس المتصوفة بالمرية في عصر الموحدين ، اتصل بـه القطب الاكبر الشيخ محيى الدين ابن عربي بالمرية ، في سنة ٥٩٥ هـ ، حيث سجل احدى مناماته في رسالته الصوفية المعروفة باسم « مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم »[3] .

* * *

وهكذا ساهمت المرية في الحركة العلمية بالاندلس ، وأنجبت عددا مـن كبار مفكري الاندلس . وكان عصر المرابطين هـو العصر الذي ازدهرت فيه المرية ازدهارا شمل كل مناحي الحياة فيها ، أدبية ومادية ، فمن الناحية الادبية نجد أن الدراسات الادبية والعلمية خاصة ما يتعلق

---

(١) نفس المرجع ج ٦ ص ٥٣ .

(٢) نفس المرجع ج ٦ ص ٦٤ .

(٣) Miguel Asin Palacios, El Islam cristianizado, Madrid 1931, P. 74-75.

منها بالدين كالتفسير والقراءات والحديث والتصوف بلغت ذروتها في هذا العصر ، ومن الناحية الاقتصادية شهدت المرية رخاء لم تشهده في عصورها السابقة أو اللاحقة ، يعبر عنه انتعاش التجارة ونشاط حركة الصادر والوارد ، وتقدم صناعات النسيج والمعادن ، وليس ذلك الا دليلا حاسما للدور الرائع الذي لعبه المرابطون في دفع عجلة الحضارة الاندلسية ، وهو أمر كانوا يجحدونه حتى عهد قريب .

* * *

مراجع الكتاب

اولا ــ المصادر العربية القديمة

١ ــ **ابن بسام الشنتريني (أبو الحسن علي)** : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، القسم الاول من المجلد الاول ، القاهرة ١٩٣٩ ، والقسم الاول من المجلد الثاني ، القاهرة ١٩٤٢ ، والقسم الرابع من المجلد الاول ، القاهرة ١٩٤٥ .

٢ ــ **ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)** : كتاب الصلة في تاريخ ائمة الاندلس نشره كوديرة في جزاين ، مدريد ١٨٨٣ .

٣ ــ **ابن بلقين (الامير عبدالله الزيري)** : مذكرات الامير عبدالله المسماة بكتاب التبيين ، نشر وتحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ .

٤ ــ **ابن جبير (أبو الحسين محمد بن احمد)** : رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت William Wright ، ليدن ١٩٠٧ .

٥ ــ **ابن حزم (ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد)** : كتاب طوق الحمامة في الالفة والالاف ، تحقيق ليون برشيه Léon Bercher ، الجزائر ١٩٤٩ .

٦ ــ **ابن حوقل النصيبي** : كتاب صورة الارض ، تحقيق كرامرز Kramers ، ليدن ١٩٣٨ .

٧ ــ **ابن حيان (أبو مروان)** : المقتبس في اخبار بلد الاندلس ، قطعة نشرها عبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٥ وقطعة نشرها الدكتور محمود علي مكي (تحت الطبع) .

٨ ــ **ابن خاقان (ابو النصر الفتح بن محمد)** : قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ .

٩ ــ **ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)** : مقدمة العلامة ابن خلدون ، المكتبة التجارية ، مصر .

١٠ ــ **ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)** : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٤ ، ٧ ، بولاق ١٢٨٤ هـ .

١١ ــ **ابن دراج القسطلي** : ديوان ابن دراج القسطلي ، نشر وتحقيق الدكتور علي محمود مكي ، دمشق ١٩٦١ .

١٢ ــ **ابن سعيد (علي بن موسى)** : المغرب في حلى المغرب ، جزءان تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥ .

١٣ ــ **ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد)** : مدونة في تاريخ الموحدين نشرها الاب انطونية ملشور ، بعنوان : Sevilla y Sus monumentos arabes ، الاسكوريال ١٩٣٠ .

١٤ ــ **ابن عذارى المراكشي (أبو عبدالله محمد)** : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، طبعة بيروت في جزاين ، بيروت ١٩٥٠ .

١٥ ــ **ابن عذارى المراكشي (أبو عبدالله محمد)** : البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٣٠ .

١٦ ــ **ابن غالب الاندلسي (محمد بن أيوب)** : قطعة من كتاب فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ١٩٥٦ .

١٧ ــ **ابن الابار (أبو عبدالله محمد القضاعي)** : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق كوديرة ، مدريد ١٨٨٦ .

١٨ ــ ـــــــــــ : ذيل لكتاب التكملة نشره Gonzalez Palencia في كتابه : Miscelanea de textos, Apendice a la edicion Codera de la Tecmila, ، مدريد ١٩١٥ .

١٩ ــ ـــــــــــ : التكملة ، تحقيق بن شنب وبل ، الجزائر ١٩٢٠

٢٠ ــ ـــــــــــ : المعجم في أصحاب القاضي ابي علي الصدفي ، مدريد ، ١٨٨٥ .

٢١ ــ **ابن الاثير (علي بن احمد بن ابي الكرم)** : الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، ٨ ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .

٢٢ ــ **ابن الخطيب (لسان الدين محمد)** : كتاب أعمال الاعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦ .

٢٣ ــ ـــــــــــ : الاحاطة في اخبار غرناطة ، الجزء الاول ، تحقيق الاستاذ محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ .

٢٤ ـ ــــــــــ : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس (مجموعة من رسائله) نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، الاسكندرية ١٩٥٨ .

٢٥ ـ ــــــــــ : الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر ١٩٢٠ .

٢٦ ـ ــــــــــ : اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ .

٢٧ ـ ــــــــــ : كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية ، طبعة تونس ١٣٢٩ هـ .

٢٨ ـ **ابن الزبير (أبو جعفر احمد)** : كتاب صلة الصلة ، تحقيق ليفي بروفنسال ، الرباط ١٩٣٨ .

٢٩ ـ **ابن الفرضي (أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف)** : كتاب تاريخ علماء الاندلس ، تحقيق فرنسسكو كوديرة ، في مجلدين ، مدريد ١٨٩١ .

٣٠ ـ **ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر)** : تاريخ افتتاح الاندلس ، نشره دون خليان ريبيرا ، مدريد ١٩٢٦ .

٣١ ـ **ابن الكردبوس** : تاريخ الاندلس ، نص نشره الدكتور احمد مختار العبادي ، بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثالث عشر ، مدريد ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ .

٣٢ ـ **الادريسي (الشريف محمد بن عبد العزيز)** : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس مأخوذة مـن كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره دي غوية ودوزي ، ليدن ١٨٦٦ .

٣٣ ـ **البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز)** : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق البارون دي سلان ، الجزائر ١٩١١ .

٣٤ ـ ــــــــــ : جغرافية الاندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي، بيروت ١٩٦٨ .

٣٥ ـ **البيذق (أبو بكر الصنهاجي)** : كتاب اخبار المهدي بـن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٢٨ .

٣٦ ـ **الجزنائي (أبو الحسن علي) :** كتاب زهرة الآس في بنـا مدينة فاس ، تحقيق ألفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ .

٣٧ ـ **الحميري (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد المنعم) :** صفـة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشرها ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

٣٨ ـ **السقطي (أبو عبدالله محمد بن أبي محمد) :** كتـاب في آداب الحسبة ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ، باريس ١٩٣١ .

٣٩ ـ **السلاوي (احمد بن خالد الناصري) :** الاستقصا لاخبـار دول المغرب الاقصى ، أربعة اجزاء ، القاهرة ١٣١٠ ـ ١٣١٢ هـ .

٤٠ ـ **العذري (أحمد بن عمر بن انس المعروف بابن الدلائي) :** ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى الممالك ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهواني ، مدريد ١٩٦٥ .

٤١ ـ **العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل‌الله) :** مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الجزء الخاص بالمغرب والاندلس ترجمه الى الفرنسيـة جـودفروي ديمومبين Gaudefroy-Demombynes تحت عنوان : .L'Afrique Moins l'Egypte ، باريس ١٩٢٧ . وقسم نشره الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، في تونس .

٤٢ ـ **المراكشي (عبد الواحد) :** المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق الاستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ .

٤٣ ـ **المقري (أحمد بن محمد) :** نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب ، عشرة اجزاء ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

٤٤ ـ **الونشريشي (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني) :** أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولـم يهاجـر ، نشره الدكتور حسين مؤنس في مجلـة المعهد المصري بمدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧ .

٤٥ ـ **مجهـول** : مدونة تاريخية من عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ، نشرها ليفي بروفنسـال ، واميليو غرسية جومث تحت عنوان :
Una Cronica anonima de Abd al-Rahman III al-Nasir, Madrid, 1950.

٤٦ ـ ــــــــــــ : اخبار مجموعة في فتح الاندلس ، تحقيق دون لافونت ، القنطرة ، مدريد ١٨٦٧ .

٤٧ ـ **ياقوت الحموي (شهاب الدين ابي عبدالله)** : معجم البلدان ، المجلد الخامس ، طبعة بيروت ، ١٩٥٧ .

ثانيا ـ مراجع عربية حديثة وكتب معربة

٤٨ ـ **اشباخ (يوسف)** : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٥٨ .

٤٩ ـ **الاهواني (الدكتور عبدالعزيز)** : سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٦ ، ج ١ مايو ١٩٥٤ .

٥٠ ـ ———— : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي ، في لحن العامة ، مجلــة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٥٧ .

٥١ ـ **العبادي (دكتور احمد مختار)** : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد ٥ ، مدريد ١٩٥٧ .

٥٢ ـ ———— : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس، الاسكندرية، ١٩٦٨ .

٥٣ ـ **جنثالث بلنثيا (آنجل) : تاريخ الفكر الاندلسي** ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .

٥٤ ـ **سالم (دكتور السيد عبد العزيز)** : المرية قاعدة الاسطول الاندلسي، مجلة الرابطة ، مايو ـ يونيو ١٩٥٩ .

٥٥ ـ ———— : أثر الفن الخلافي بقرطبة في الفن المسيحي باسبانيا وفرنسا ، المجلة ، العدد ١٤ ، فبراير ١٩٥٨ .

٥٦ ـ ———— : صناعة المنسوجات بالاندلس مقــال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ، القاهرة ١٩٥٩ .

٥٧ ـ ــــــــــــــــ : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١ .

٥٨ ـ ــــــــــــــــ : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، بيروت ١٩٦٢ .

٥٩ ـ ــــــــــــــــ : المغرب الكبير ، ج ٢ ، الاسكندرية ١٩٦٦ .

٦٠ ـ **عنان (الاستاذ محمد عبدالله)** : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة ١٩٤٩ .

٦١ ـ **غرسية غومث (اميليو)** : الشعر الاندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٦ .

٦٢ ـ **كليليا سارنللي تشركوا** : مجاهد العامري ، قائد الاسطول العربي في غربي البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري ، القاهرة ١٩٦١

٦٣ ـ **لويس (ارشبالد)** : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ .

٦٤ ـ **محمود (الدكتور حسن)** : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .

ثالثا ـ مراجع حديثة بلغات اوربية

Alarcon (Maximiliano) & De Linares (Ramon Garcia) — 65
Documents arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, Madrid-Granada, 1940.

Blachère (R.) : Extraits des principaux géographes — 66
arabes du moyen-Age, Paris, 1932.

Casamar (Manuel) : Fragmentos de Jarrones malaguenos — 67
en los Museos del Cairo, Al-Andalus, Vol. XXVI, 1961.

Carreres (Carlos Sarthou): Castillos de Espana, Madrid, — 68
1952.

Codera (Francisco) : Decadencia y desaparicion de los — 69
Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899.

Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, éd. Lévi- — 70
Provençal, 3 tomes, Leyde 1932.

Garcia Gomez (Emilio) : Elogio del Islam espanol (trad. — 71
esp. del Shaqundi), Madrid 1934.

Garcia y Bellido (Antonio) : La Espana del siglo primero — 72
de mestra Era, segun P. Mela y C. Plinio, Coleccion Austral, Madrid 1947.

Gonzalez (Julio) : El Repartimiento de Sevilla, 2 vols, — 73
Madrid 1951.

Inani (Aleya) : Tres telas granadinas, revista, del Insti- — 74
tuto Egipicio de Estudios Islamicos, Vol. II, Madrid 1954.

Lambert (Elie) : Les mosquées de type andalou en Espa- — 75
gne et en Afrique du Nord, al-Andalus, Vol. XIV, 1949.

Lévi-Provençal (E.) : Inscriptions arabes d'Espagne, — 76
2 vols, Paris-Leyde 1931.

——————— : L'Espagne musulmane au Xe siè — 77
cle, Institutions et vie Sociale, Paris 1932.

——————— : Trente-sept lettres officielles al- — 78
mohades, Rabat 1941.

——————— : Un recueil de lettres almohades, — 79
Hésperis, XXVIII, 1941.

——————— : La politica africana de Abd al- — 80
Rahman III al-Andalus, Vol. XI, 1946.

——————— : La description de l'Espagne d'Ah- — 81
mad al-Razi, al-Andalus, 1953.

——————— : Histoire de l'Espagne musulmane, — 82
3 tomes, Paris 1953-1955.

——————— : Islam d'Occident, Paris 1948. — 83
(والترجمة العربية بعنوان الاسلام في المغرب والاندلس : ترجمة
الدكتور السيد عبد الزيز سالم والاستاذ صلاح الدين حلمي ،
في سلسلة الالف كتاب ، القاهرة ١٩٥٨) .

Lozoya (Marqués de) : Historia del arte hispanico, — 84
2 tomes, Barcelona, 1931.

Marçais (Georges) : L'architecture musulmane d'Occi- — 85
dent, Paris 1954.

Mehrez (Gamal) : Recientes hallagos de Ceramica — 86
andaluza en Alejandria, al-Andalus, Vol. XXIV, 1959.

Meunié (J.) & Terrasse : Recherches archéologiques à — 87
Marrakech, Paris 1952.

Miranda (Ambrosio Huici) : La invasion de los Almora- — 88
vides y la batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI, 1953.

Moreno (Manuel Gomez) : El Pantéon Real de las Huel- — 89
gas de Burgos, Madrid 1946.

——————— .. Ars Hispanaie t. III, arte arabe — 90
espanol hasta los Almohades, Madrid 1951.
والترجمة العربية

Munzer (J.) : Viaje por Espana y Portugal, trad. esp. — 91
por Lopez Toro, Madrid 1951.

Palacios (Miguel Asin) : El Islam cristianizado, Madrid — 92
1931.

Pérès (Henri) : La poésie andalouse en Arabe classique — 93
au XIe siècle, Paris 1937.

Pidal (Ramon Menendez) : Espana del Cid, 2 vols., — 94
Madrid 1947.

——————— : El Cid Campeador, Colleccion — 95
Austral, Buonos Aires, 1950.

Pons Boigues (Francisco) : Ensayo bio-bibliografico — 96
sobre los historiadores y géografos arabigo-espanoles,
Madrid 1898.

Prieto y Vives (Antonio) : Los Reyes de Taifas, Madrid — 97
1926.

Remiro (Mariano Gaspar) : Murcia Musulmana, Zara- — 98
goza, 1905.

Robles (Sainz de) : Castillos en Espana, Madrid 1952. — 99

Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes — 100
de Espana, Madrid 1897-1903.

Terrasse (Henri) : L'art hispano-Mauresque, dès origi- — 101
nes au XIIIe siècle, Publications de l'Institut de H.E.M.
t. XXV, Paris 1932.

——————— : Histoire du Maroc, dès Origines — 102
à l'établissement du Protectorat français, 2 vols., Casa-
blanca, 1949.

——————— : La forteresse Almoravide d'A- — 103
mergo, al-Andalus, Vol. XVIII, 1953.

——————— : L'art de l'empire almoravide, ses — 104
sources et son évolution, dans Studia Islamica, t. III,
Paris 1955.

Torres Balbas (Léopoldo) : Restos de una casa arabe en — 105
Almeria, Al-Andalus, Vol. X, 1945.

———————— : Atarazanas hispanomusulmanas, Al-Andalus, Vol. XI, 1946. — 106

———————— : Musalla y Saria, Al-Andalus, Vol. XIII, 1948. — 107

———————— : Ars Hispanaie, t. IV, Madrid 1949. — 108

———————— : Nuevas perspectivas sobre el arte de al-Andalus bajo el dominio almoravide, al-Andalus, Vol. XVIII, 1952. — 109

———————— : La mezquita mayor de Almeria, Al-Andalus, Vol. XVIII, 1953. — 110

———————— : La Medina, los Arrabales, los Barrios, al-Andalus, Vol. XVIII, 1953. — 111

———————— : Un mihrab almohade en Mertola, al-Andalus, Vol. XX, 1955. — 112

———————— : Extension y Demografia de las ciudades hispanomusulmanas, en Studia Islamica, t. III, Paris 1955. — 113

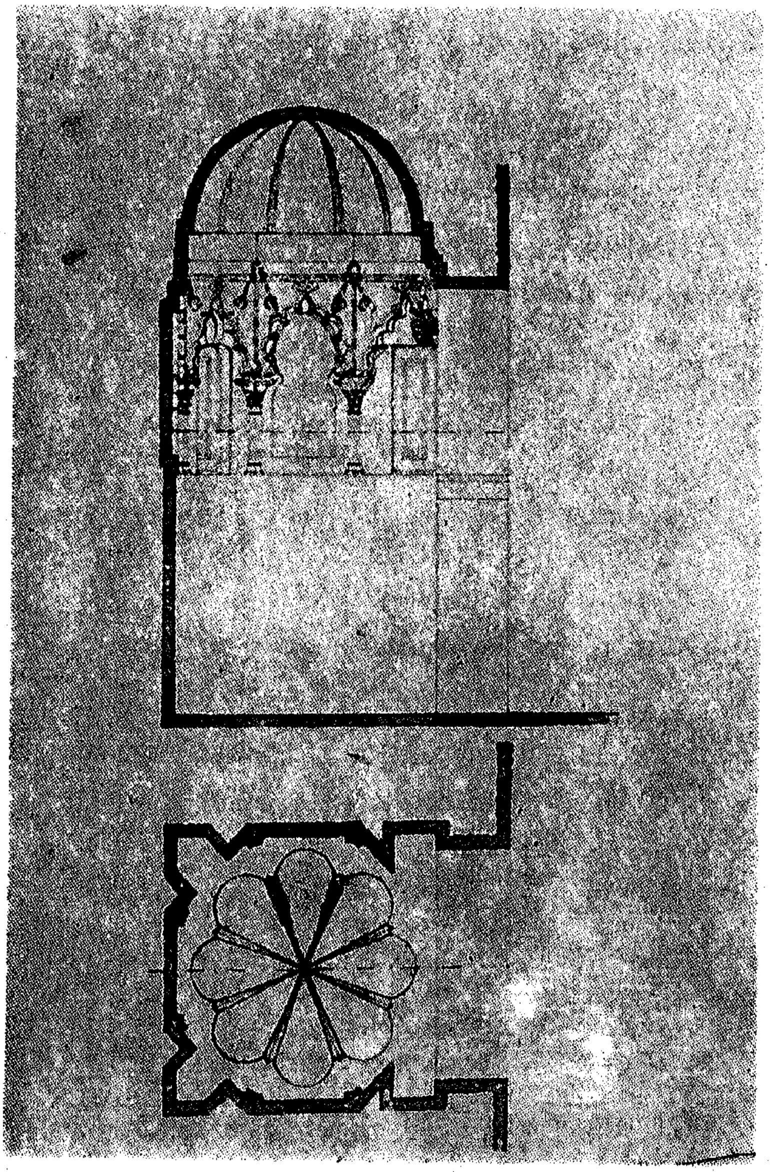
———————— : Cementerios hispanomusulmanas, Al-Andalus, Vol. XXII, 1957. — 114

———————— : Almeria Islamica, al-Andalus, Vol. XXII, 1957. — 115

Turk (Afif) : el Reino de Zaragoza en el siglo XI, Tesis para el Doctorado, Madrid 1956. — 116

Vallvé (Joaquin) : Suqut al-Bargawati, rey de Ceuta, al-Andalus, Vol. XXVIII, fasc. 1, Madrid, 1963. — 117

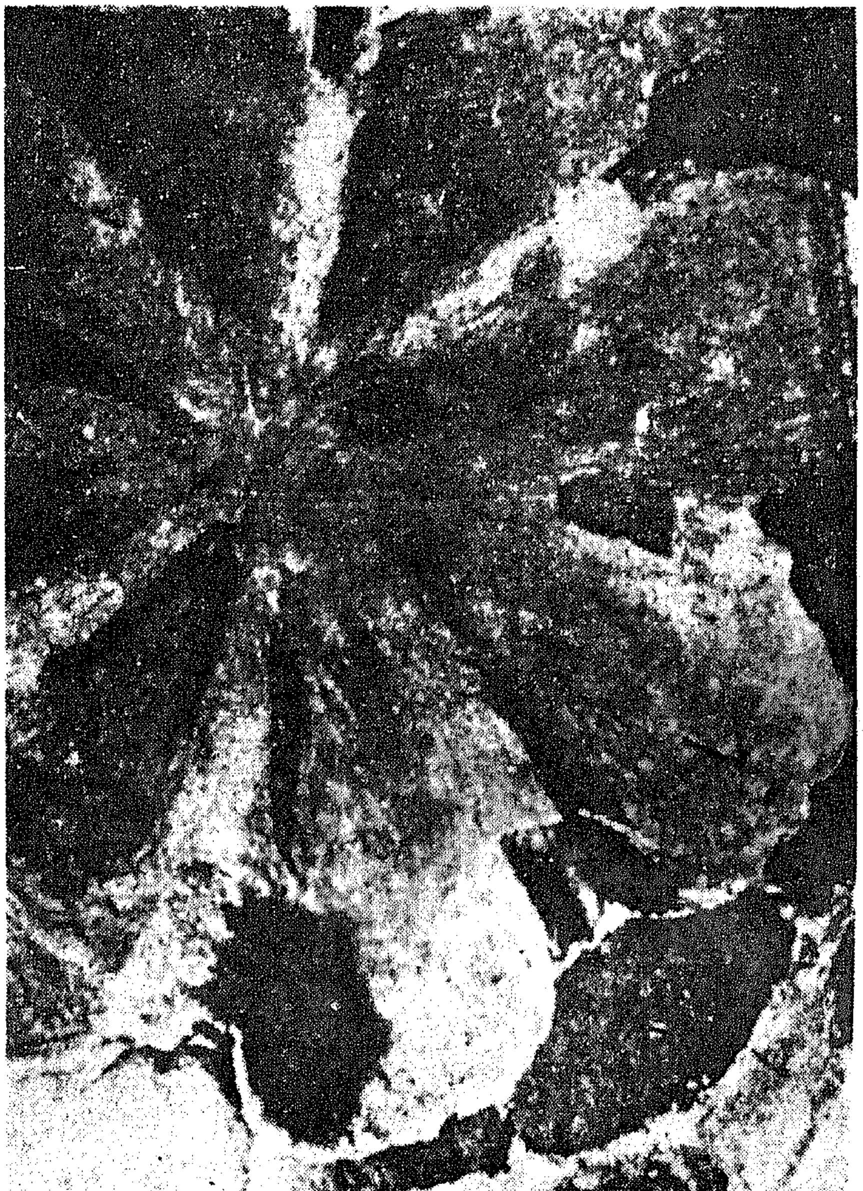
Vielva (R. Revilla) : Patio arabe del Museo arqueologico nacional, Madrid 1932. — 118



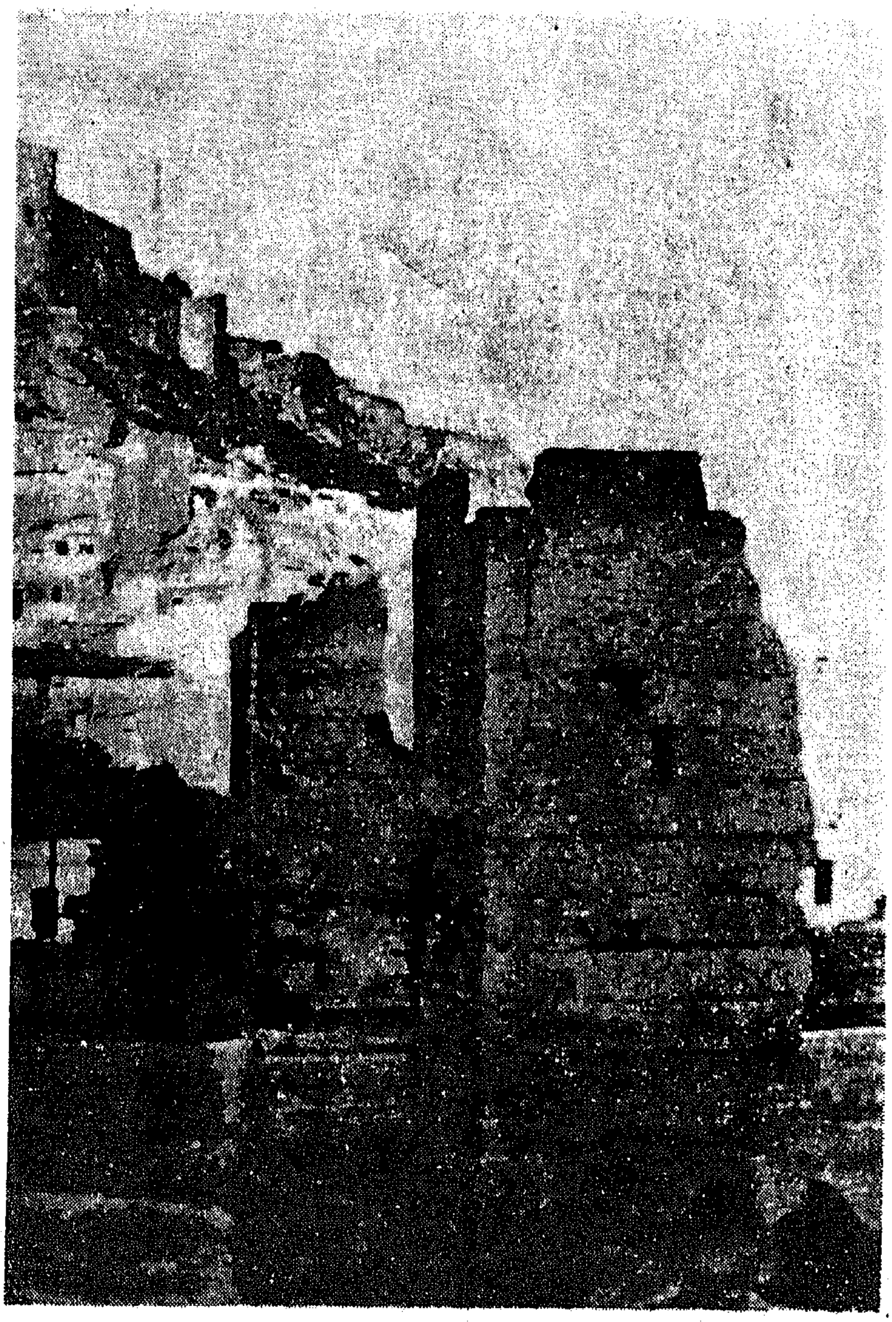
قطاع لمحراب المسجد الجامع بالمرية



محراب جامع المرية



قبوة المحراب بجامع المرية



بقايا سور لا شانكا الممتد من القصبة الى المدينة

فهرس الكتاب

فهرس موضوعات الكتاب

رقم الصفحة

الفصل الثالث

دراسة التخطيط والعمران واهم الآثار الباقية

رقم الصفحة

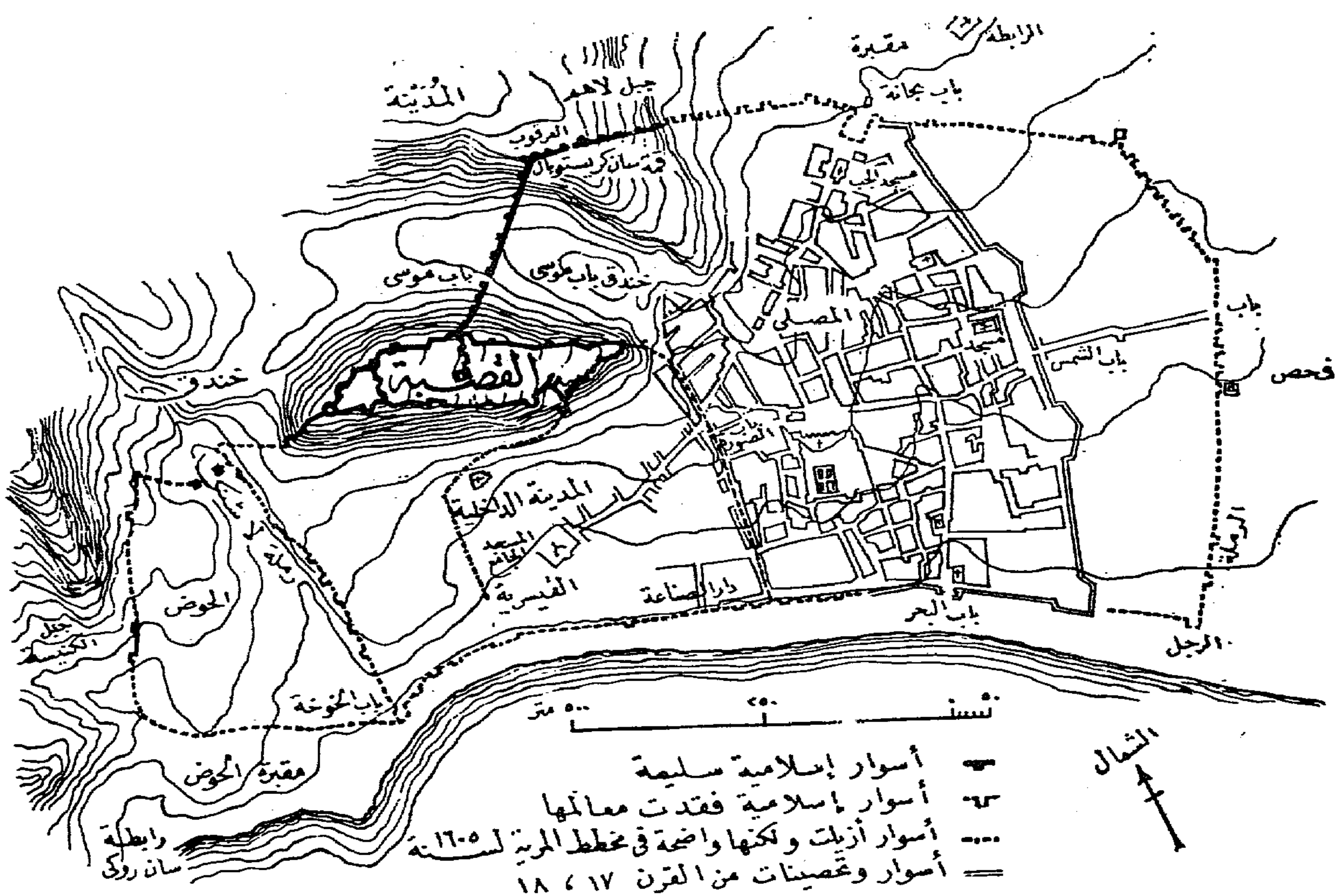
الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية والعلمية

رقم الصفحة

* * *

(تــم بعون الله وتوفيقه)



تخطيط لمدينة المرية فى القرن الثامن الهجرى
"عن توريس بلباس"